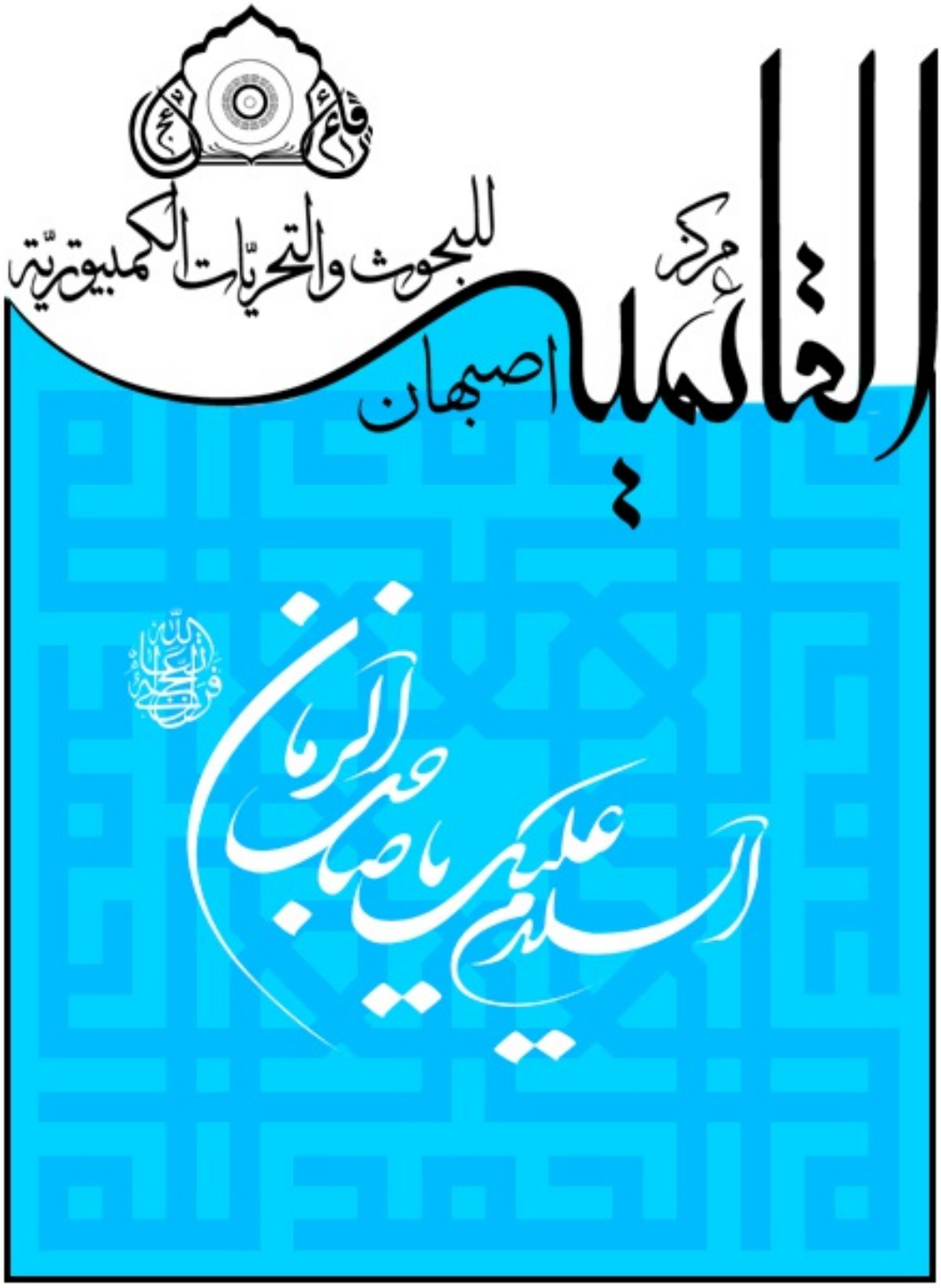

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

جعفر الخليلي

موسوعة العتبات المقدسة

٢

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

بسم الله الرحمن الرحيم

موسوعه العتبات المقدسه

كاتب:

جعفر الخليلى

نشرت فى الطباعة:

موسسة الاعلمى للمطبوعات

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵
موسوعة العتبات المقدسة، المجلد ۲ ----- ۱۵
اشارة ----- ۱۵
الجزء الثانی ----- ۱۵
[المقدمة] ----- ۱۵
مکة قدیما ----- ۱۶
اشارة ----- ۱۶
مکة المکرمة و اسماؤها ----- ۱۶
اشارة ----- ۱۶
بکّة ----- ۱۷
ام القری ----- ۱۷
البلد، و البلد الأمین، و الحرام ----- ۱۷
اسماء مکة الاخری ----- ۱۸
اول ظهور مکة فی التاریخ ----- ۱۸
ابراهیم ----- ۱۹
اسماعیل ----- ۲۲
قصة الذبح ----- ۲۳
بناء البیت ----- ۲۳
دین ابراهیم ----- ۲۵
البیت، و الکعبة، و المسجد الحرام ----- ۲۶
تمصیر مکة ----- ۲۷
امارة جرهم ----- ۲۷
حلف الفضول ----- ۲۷

إتساع رقعة مكة ۲۸
امارة خزاعة ۲۸
مكة فی ایام قریش ۲۹
دار الندوة ۳۰
طراز الحكم و صفته ۳۰
اصحاب الفیل ۳۱
اسواق مكة ۳۳
دیانة مكة و عبادتها ۳۵
الاستقسام و الازلام ۳۶
نذر عبد المطلب ۳۶
اشهر امراء مكة و عظماوها ۳۷
كسوة الكعبة و تزیینها ۳۷
تجدید بناء الكعبة ۳۸
قبائل مكة قبل الاسلام ۳۸
اشارة ۳۸
القبائل التی سكنت مكة قبل الاسلام ۳۸
العمالقة ۳۸
جرهم ۳۹
خزاعة ۴۰
قریش ۴۱
اقسام قریش ۴۳
بنو عبد مناف ۴۴
بنو هاشم ۴۵
اصحاب الایلاف ۴۶

عبد المطلب و بنوه ---- ۴۶
بطون قریش ---- ۴۷
بنو جمح ---- ۴۷
بنو تیم ---- ۴۸
بنو خزیمة ---- ۴۸
بنو زهرة ---- ۴۹
بنو سهم ---- ۴۹
بنو عدی ---- ۵۰
بنو عبد شمس ---- ۵۰
بنو عبد المطلب ---- ۵۰
بنو عامر ---- ۵۲
بنو مخزوم ---- ۵۳
بنو الحارث ---- ۵۴
مکة فی أشهر الرحلات العربیة ---- ۵۴
اشارة ---- ۵۴
مکة فی رحلة ابن جبیر ---- ۵۵
شهر جمادی الاولی، عرّفنا اللّه برکته ---- ۵۶
ذکر المسجد الحرام و البیت العتیق، کرمه اللّه و شرفه ---- ۵۶
ذکر مکة شرفها اللّه تعالی و آثارها الکریمة، و أخبارها الشریفة ---- ۵۷
ذکر بعض مشاهدها المعظمة و آثارها المقدسة ---- ۵۹
ذکر ما خص اللّه تعالی به مکة من الخیرات و البرکات ---- ۶۰
شهر جمادی الآخرة ---- ۶۲
جمال الدین و آثاره السنیة ---- ۶۳
الأمور المحظورة فی الحرم ---- ۶۴

شهر رجب الفرد ----- ۶۴
اشارة ----- ۶۴
العمرة الرجبیة ----- ۶۵
عمرة الاکمة ----- ۶۶
یوم طواف النساء ----- ۶۶
زیادة ماء زمزم ----- ۶۶
شهر رمضان ----- ۶۷
اشارة و یری ابن جبیر رمضان فی مکة و قد استهل هلاله لیلة الاثنین التاسع عشر لکانون الاول (دیسمبر)، و کان صیام اهل مکة له یوم الاحد ب
تراویح رمضان ----- ۶۷
ابن بطوطه و مکة ----- ۶۹
مکة فی رحلة ناصر خسرو الموسومة ب (سفر نامی) ----- ۷۰
(رحلات) عبد الوهاب عزّام ----- ۷۱
مکة فی رحلة السائح الهروی ----- ۷۲
منازل مکة ----- ۷۳
اشارة ----- ۷۳
منازل مکة ----- ۷۳
الطریق الی المدینة ----- ۷۷
طریق الجادة من المدینة الی مکة ----- ۷۷
طریق الجادة من معدن النقرة الی مکة ----- ۷۸
و اما الطریق من البصرة إلی مکة ----- ۷۹
و اما الطریق من مصر إلی مکة ----- ۷۹
و اما الطریق من دمشق الی مکة ----- ۷۹
و اما الطریق من الیمن الی مکة ----- ۷۹
مکة فی الشعر ----- ۸۰

اشارة ----- ۸۰
ابو العلاء المعری ----- ۸۰
احمد بن ابراهیم ----- ۸۰
احمد شوقی ----- ۸۰
امیة بن ابی الصلت ----- ۸۱
جرهمی شاعر ----- ۸۱
الحارث بن خالد ----- ۸۱
ابن حجر العقسلانی ----- ۸۱
حسان بن ثابت ----- ۸۲
الحصری القیروانی ----- ۸۲
السید رشید الهاشمی ----- ۸۲
ابن الزبعری السهمی ----- ۸۲
الشیخ صالح التمیمی ----- ۸۲
شاعر ----- ۸۳
شاعر ----- ۸۳
شاعر ----- ۸۳
عبد الباقی العمری ----- ۸۳
عبد الحسین الحویزی ----- ۸۳
عبد اللّه بن ثور الخفاجی ----- ۸۳
عبد اللّه بن حسن بن حسن ----- ۸۳
عبد اللّه بن محمد بن السید البطلیوسی ----- ۸۳
الشیخ عبد المحسن الکاظمی ----- ۸۳
الشیخ محمد علی کمونة ----- ۸۴
عبد المطلب بن هاشم ----- ۸۵

قصی بن ربیعة ----- ۸۵
کعب بن زهیر ----- ۸۵
السید محمد سعید الحبوبی ----- ۸۵
مضاض بن عمرو الجرهمی (جاهلی) ----- ۸۵
ابن ام مکتوم ----- ۸۶
مکة فی المراجع الغربیة ----- ۸۶
اشارة ----- ۸۶
مکة فی المراجع الغربیة ----- ۸۶
مقدمة ----- ۸۶
مکة قبل الهجرة ----- ۸۷
اشارة ----- ۸۷
سکان مکة ----- ۸۸
الحکومة و الادارة ----- ۸۸
موقع مکة و مناخها ----- ۸۹
مالیة مکة و حیاتها الاقتصادیة ----- ۹۰
قوافل مکة ----- ۹۲
ثروات مکة ----- ۹۲
بعد الهجرة ----- ۹۳
اشارة ----- ۹۳
مکة فی العهد الاموی ----- ۹۴
مکة فی عهد بنی العباس و ما بعده الی حد تولی الشرفاء (۷۵۰- ۹۶۱) ----- ۹۵
الموسویون الشرفاء ----- ۹۶
الشرفاء الهواشم ----- ۹۷
حکم قتاده و نسله ----- ۹۸

الشرفاء فی أیام الاحتلال الوهابی ----- ۱۰۰
مکة فی یومها هذا ----- ۱۰۲
مکة فی مراجع اجنبیة اخری ----- ۱۰۳
لقب الشرفاء ----- ۱۰۶
مکة و الصلیبیون ----- ۱۰۶
الشریف قتادة و موکب الحج العراقی ----- ۱۰۷
الحج ----- ۱۰۹
زمزم ----- ۱۱۲
الکعبة ----- ۱۱۳
تاریخ الکعبة ----- ۱۱۴
عرفات ----- ۱۱۷
منی ----- ۱۱۷
المزدلفة ----- ۱۱۸
الصفا و المروة ----- ۱۱۹
الغربیون فی مکة ----- ۱۱۹
اشارة ----- ۱۱۹
لودفیکو فارتیما الایطالی ----- ۱۲۰
مملوک برتغالی مجهول الاسم ----- ۱۲۱
جوزیف بیتس الانکلیزی ----- ۱۲۲
القس جوزیف أوفینکتون ----- ۱۲۳
ویلیام دانیال و شارل جاک بوسیه ----- ۱۲۴
الرحالة «علی بک العباسی» ----- ۱۲۴
جیوفانی فیناتی ----- ۱۲۵
جون لویس بورخارت ----- ۱۲۶

وصف بورخارت لمکة ----- ۱۲۷
اشارة ----- ۱۲۷
قناة زبیدة ----- ۱۲۸
حواری مکة او محلاتها ----- ۱۲۸
بیت اللّه الحرام ----- ۱۳۱
اماکن مقدسة اخری ----- ۱۳۲
الکعبة ----- ۱۳۳
ملاحظات حول سکان مکة ----- ۱۳۴
حکومة مکة و الشرفاء ----- ۱۳۶
الحج ----- ۱۳۷
السر ریتشارد بورتون ----- ۱۴۱
اشارة ----- ۱۴۱
فی داخل الکعبة ----- ۱۴۲
الکسوة ----- ۱۴۳
نقاط اخری ----- ۱۴۴
المستشرق الهولندی هورغرونیه ----- ۱۴۶
اشارة ----- ۱۴۶
الحیاة العائلیة ----- ۱۴۹
الحیاة العلمیة ----- ۱۴۹
فی أواخر القرن التاسع عشر ----- ۱۵۱
الحسین بن علی ----- ۱۵۲
الثورة العربیة ----- ۱۵۳
لورانس بلاد العرب ----- ۱۵۳
استیلاء الوهابیین علی مکة ----- ۱۵۶

أسلام عبد اللّه فیلبی ----- ۱۵۸
مراسیم الحج و فرائضه ----- ۱۶۱
اشارة ----- ۱۶۱
فریضة الحج ----- ۱۶۱
شروط وجوب الحج ----- ۱۶۱
واجبات الاحرام ----- ۱۶۲
محرمات الاحرام ----- ۱۶۲
المیقات او المواقیت ----- ۱۶۳
انواع الحج ----- ۱۶۴
کیفیة حج الافراد و حج القران ----- ۱۶۴
الطواف و واجباته ----- ۱۶۵
شرائط حج التمتع ----- ۱۶۵
رکعتا الطواف ----- ۱۶۶
حج التمتع ----- ۱۶۶
عرفة ----- ۱۶۷
سبب التسمیة ----- ۱۶۷
المزدلفة او المشعر الحرام ----- ۱۶۷
منی و اعمالها ----- ۱۶۷
منی ----- ۱۶۸
الافاضة الی المشعر و الوقوف به ----- ۱۶۸
ما یجب فی منی من افعال الحج ----- ۱۶۸
الهدی فی الحج ----- ۱۶۹
السعی بین الصفا و المروة ----- ۱۶۹
التقصیر ----- ۱۷۰

العودة من منی ----- ۱۷۰
مزارات مکة المکرمة ----- ۱۷۱
بعض الفروق فی الحج عند المذاهب الإسلامیة ----- ۱۷۲
فهرست الکتاب ----- ۱۷۳
تعریف مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة ----- ۱۷۹

موسوعة العتبات المقدسة، المجلد ۲

اشارة

سرشناسه : خليلى، جعفر، ۱۹۰۴ - م.

عنوان و نام پديدآور : موسوعه العتبات‌المقدسه/ تاليف جعفر الخليلى.

مشخصات نشر : بيروت: موسسه‌الاعلمى للمطبوعات، ۱۴ق= .-۱۳-

مشخصات ظاهرى : ج: .مصور، عكس.

يادداشت : عربى.

يادداشت : فهرستنويسى بر اساس جلد ششم، قسمت اول: ۱۹۸۷م = ۱۴۰۷ق = [۱۳۶۶].

يادداشت : چاپ دوم.

يادداشت : ج.۱ (چاپ اول: ۱۳۸۷ق. = ۱۹۶۷م.= ۱۳۴۶).

يادداشت : ناشر جلد يكم كتاب حاضر دارالتعارف مى باشد.

يادداشت : كتابنامه.

مندرجات : ج.۱. قسم كاظمين.- ج. ۶، ق. ۱، قسم‌النجف. - ج. ۷، ق. ۲، قسم‌النجف

موضوع : زيارتگاههاى اسلامى -- تاريخ

موضوع : زيارتگاه‌هاى اسلامى -- عراق

رده بندى كنگره : DS۷۹/۹ /ز۹خ۸ ۱۳۰۰ى

رده بندى ديويى : ۹۵۶/۷۵

شماره كتابشناسى ملى : ۱۲۵۹۱۵

الجزء الثانى

[المقدمة]

بسم اللّه الرحمن الرحيم

و به نستعين

كان الواجب ان يكون هذا الجزء اسبق جميع اجزاء الموسوعة فى الصدور لو ان تأليفه كان قد كمل فى حينه، و حسنا فعلنا حين اخذنا بمبدأ الشروع بطبع اى جزء ينتهى تأليفه دون التقيد بتقديم الأهم على المهم، و لو كنا قد تقيدنا بذلك لبقينا (نراوح) طوال السنتين فى مكاننا حتى يتم الجزء الأول من مكة المكرمة و الذى لم يتم الا- اليوم، و حسنا فعلنا ان جعلنا كل عتبة قائمة بنفسها من هذه الموسوعة. و على ان فى هذا الاستقبال الكبير الذى استقبلت به الموسوعة من مختلف القراء و مختلف المؤسسات، و الجامعات منذ اول صدور الجزئين الاولين منها تحفيزا كبيرا على مضاعفة النشاط، فان خطورة الموضوع و صعوبة القيام به على الوجه الصحيح المطلوب لا يسمح لنا مهما اجهدنا انفسنا باصدار اكثر من جزئين فى كل سنة فى الوقت الحاضر، ذلك لان غربلة الكتب من مطبوع و مخطوط، و عزل الرواية و الخبر عن الوقائع التاريخية مما أخذنا على عاتقنا القيام به و اخراجه اخراجا اكاديميا و بحوثا جامعية، على قدر ما نملك من طاقة لهو من اصعب الامور و اكثرها مشقة لا سيما و ان تداخل الاخبار و الروايات و الاحاديث و الوقائع التاريخية

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۶

فی تاریخ العتبات المقدسة و تشابکها من التعقید ما یجعل هذا التاریخ بمثابة الوشیعة من الغزل المتشابک المتقطع الذی لا تدری کیف تهتدی إلی رأس الخیط الأصلی منها، و مع کل ذلک فنحن ساعون علی قدر الامکان فی بذل الجهود فی المستقبل لیکون بمقدورنا ان نصدر ثلاثة اجزاء من الموسوعة فی کل سنة، و ان مبعث هذا الأمل کامن فی زیادة العدد الذی انضم الینا من اساتذة الجامعات و افاضل الباحثین و الکتاب، و لکن مثل هذا الأمل لا یجوز ان یسجله القارىء علینا و عدا.

و انه لمن السار لنا ان نجد الأجزاء التی صدرت تحتل الیوم مکانا مرموقا فی اهم مکتبة من مکتبات الجامعات الاروبیة و الامیرکیة، و هذا ما یبشر بنجاح هذا المشروع و مدی انتشار الموسوعة، و قیمتها العلمیة.

و قسم مکة المکرمة کسائر اقسام العتبات المقدسة لن یقل مجموعه عن عشرة اجزاء إن لم یزد علی ما نظن، و هذا هو الجزء الأول، و هو عبارة عن المامة و افیة عن مکة من اول تشأتها و اهمیتها فی التاریخ، و مصادر بحوثها، و نماذج مما ورد عنها فی اهم المصادر العربیة و الأجنبیة راجین ان نوفق الی اصدار الأجزاء التسعة الاخری بمنه تعالی و توفیقه.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۷

مکة قدیما

اشارة

إلمامة تاریخیة کافیة عن مکة المکرمة منذ أول تمصیرها حتی قیام الاسلام کتبها جعفر الخلیلی

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۹

مکة المکرمة و اسماؤها

اشارة

قلما اختلف اللغویون و المؤرخون فی اسم مدینة من المدن و اشتقاقها و تعدد اسمائها کما اختلفوا فی اسم «مکة» فقد جاء فی القاموس للفیروزآبادی ان فلانا مکّ فلانا ای اهلکه و نقصه، و منه (مکة) للبلد الحرام او للحرم کله لانها تنقص الذنوب او تفنیها .

و قد قیل انما سمیت (مکّة) فلقلة مائها، و ذلک انهم کانوا یمتکّون الماء فیها أی یستخرجونه- علی ما اورد ابن منظور- و قیل بل سمّیت مکّة لانها کانت تمکّ من ظلم فیها و ألحد- أی تهلکه، قال الراجز:

یا مکة الفاجر مکّی مکّاو لا تمکّی مذحجا و عکّا

و یقال انما سمیت (مکة) فلازدحام الناس بها من قولهم: قد امتک الفصل ضرع امه اذ امتصّه مصا شدیدا، و روی یاقوت ان الشرقی بن القطامی قال: انما سمیت مکة لان العرب فی الجاهلیة کانت تقول لا یتم حجنا حتی نأتی مکان الکعبة فنمکّ فیه ای نصفر صفیر المکّاء حول الکعبة، و کانوا یصفرون و یصفقون بأیدیهم اذا طافوا بها، و قال قوم

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۰

سمیت مکة لانها بین جبلین مرتفعین علیها و هی فی هبطة بمنزلة المکوک الی غیر ذلک من التفاسیر التی یصعب الرکون الیها و الاعتماد علیها

و لقد جاء اسم (مکة) فی القرآن الکریم مرة واحدة فی سورة الفتح من قوله تعالی (وَ هُوَ الَّذِی کَفَّ أَیْدِیَهُمْ عَنْکُمْ وَ أَیْدِیَکُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَکَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَکُمْ عَلَیْهِمْ وَ کانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِیراً) مشیرا بذلک الی صلح (الحدیبیة) کما اشارت الی ذلک التفاسیر،

بكّة

و من أسماء مكة الكثيرة (بكّة) و قيل انها سميت بذلك لان مكة كانت تبكّ اعناق الجبابرة اذا ألحدوا فيها بظلم، و قيل بل لان الناس يتباكون فيها من كل وجه اى يتزاحمون

و قال ابن منظور عن يعقوب ان (بكّة) ما بين جبلى (مكة) لان الناس يبك بعضهم بعضا فى الطواف، اى يزحم، و قيل سميت (بكّة) لان الناس يبكّ بعضهم بعضا فى الطريق اى يدفع ، قال ذلك ابو عبيدة و أنشد:

اذا الشريب أخذته أكّهفخلّه حتى يبكّ بكّه

و قيل بل ان (بكّة) موضع البيت و سائر ما حوله (مكه).

و ورد إسم (بكّة) فى القرآن الكريم فى موضع واحد من قوله:

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَ هُدىً لِلْعالَمِينَ) .

ام القرى

و من أشهر اسماء مكة (ام القرى) و فى سبب هذه التسمية اختلاف

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۱

كما هو فى اسم مكة و بكّة فقد قيل انها سميت (بام القرى) لانها توسطت الأرض فيما زعموا، و يقول ابن منظور فى لسان العرب: و قيل لانها قبلة جميع الناس يؤمونها، و قيل سميت بذلك لانها كانت اعظم القرى شأنا و لا يبعد ان يكون هذا التوجيه اقرب الى الصواب لما عرفت به مكة فى ادوارها التاريخية و لان كل مدينة بمثابة الأم لما حولها من القرى على ما يصطلح عليه اللغويون.

و قد ورد ذكرها فى القرآن الكريم فى موضعين:

(وَ هذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَ لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَ مَنْ حَوْلَها وَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ يُحافِظُونَ) (وَ كَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَ مَنْ حَوْلَها وَ تُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى الْجَنَّةِ وَ فَرِيقٌ فِى السَّعِيرِ).

البلد، و البلد الأمين، و الحرام

البلد، و البلد الامين من اشهر أسماء مكة، التى تغلب عليها هذا الاسم و الصفة، فى الاسلام اكثر و المقصود بالأمن هو ما عرفت به مكة من الامن على ساكنيها و اللائذين بها و حفظ اموالهم دون جميع اطرافها، و انما سميت مكة بالبلد فهو من باب التفخيم لها كالنجم، للثريا، و العود للمندل و قد ورد ذكر مكة باسم البلد فى أربعة مواضع من القرآن الكريم، و قد اجمع المفسرون على ان المقصود من الآية (لا أُقْسِمُ بِهذَا الْبَلَدِ، وَ أَنْتَ حِلٌّ بِهذَا الْبَلَدِ) هو القسم بالبلد الحرام و هو (مكة) و تفسير ذلك: انك يا محمد مقيم بهذا البلد و هو محلك، و هذا تنبيه على شرف البلد بشرف من

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۲

حلّ به من الرسول الداعى الى توحيده، و اخلاص عبادته، و بيان ان تعظيمه له، و قسمه به لأجله.

و هكذا كان المقصود من (البلد) فى الآية: (وَ التِّينِ وَ الزَّيْتُونِ وَ طُورِ سِينِينَ، وَ هذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ) هو مكة البلد الحرام الذى يأمن فيه الخائف فى الجاهلية و الاسلام .

و كذلك فان المقصود بالبلد فى الآية القرآنية (وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هذا بَلَداً آمِناً، وَ ارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَراتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ) هو مكة المكرمة، و ان معنى قوله (بَلَداً آمِناً) اى يأمنون فيه، كما يقال: ليل نائم اى النوم فيه .

و ورد ذكر (البلد) على لسان ابراهيم بمعنى مكة مرة اخرى فى الآية (وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً، وَ اجْنُبْنِي وَ بَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ) .

و وردت (مكة) باسم (البلدة) مرة واحدة فى القرآن الكريم فى الآية:

(إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَها، وَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ، وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ) و عن ابن عباس ان البلدة هى مكة، و قوله (و الذى حرمها) اى جعلها حرما آمنا يحرم فيها ما يحل فى غيرها، لا ينفر صيدها، و لا يختلى خلاها، و لا يقتص فيها .

و نعتت مكة (بالحرم الآمن) فى موضعين من القرآن فقد جاء فى الآية (أَ وَ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبى إِلَيْهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا) و جاء فى الآية: (أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً وَ يُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ)

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۳

اسماء مكة الاخرى

و لمكّة اسماء اخرى كثيرة أوردها المؤرخون و يغلب على الظن ان ما كان معروفا فى صقع من اسماء (مكة) غير معروف فى صقع آخر، و ما كانت تطلق قبيلة على مكة من الاسماء باستثناء اسماء (مكة) العامة الشاملة- غير ما كانت تطلقه قبيلة أخرى، و الا لما تعددت أسماء مكة كل هذا التعدد.

فمن أسماء مكة: النسّاسة، و أم رحم، و معاد، و الحاطمة، و الرأس، و الحرم، و صلاح، و العرش، و القادس، و المقدسة، و الناسّة، و الباسّة، و كوثى، و المذهب فى قول بشر:

و ما ضم جياد المصلى و مذهب و هناك من يطلق على مكة صفة (البيت) و (الكعبة) و يسميها (بالبيت العتيق) او بيت اللّه. او البيت الحرام، و غير ذلك من الأسماء و النعوت.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۴

اول ظهور مكة فى التاريخ

تقع مكة فى الجانب الغربى من جزيرة العرب و تمتد من الغرب الى الشرق على مسافة نحو ثلاثة كيلومترات طولا- و ما يقرب من نصف ذلك عرضا فى واد مائل من الشمال الى الجنوب منحصر بين سلسلتى جبال تكادان تتصلان ببعضهما من جهة الشرق و الغرب و الجنوب، و لذا لا- يشاهد ابنيتها القادم عليها الا و هو على أبوابها، و السلسلة الشمالية فيها تتركب من جبل الفلح (الفلق) غربا، ثم جبل قيقعان ثم جبل (الهندى)، ثم جبل (لعلع) ثم جبل (كداء) و هو فى أعلى مكة، و من جهته دخل رسول اللّه البلد حين الفتح، اما الجنوبية فانها تتركب من جبل (ابى حديدة) غربا يتلوه جبلا (كدى) و (كدىّ) بالتصغير بانحراف الى الجنوب، ثم جبل (ابى قبيس) الى شرقهما، ثم جبل (خندمه).

و ترتفع مكة عن سطح البحر بنحو ۳۳۰ مترا و هى على عرض ۳۱ درجة و ۲۸ دقيقة و فى طول ۴۰ درجة و ۹ دقائق .

و مكة على مسافة قليلة من البحر الاحمر يوصلها به ميناء (جدة).

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۵

و لا تنفذ من واديها الى الخارج الا من طرق معينة محدودة، و فى تأريخ ظهورها كبيت او كعبة، او مدينة، أقوال مختلفة من الصعب الركون اليها اذا اخذنا القواعد العلمية فى دراسة التاريخ بنظر الاعتبار، و كل ما يمكن القول هو ان تاريخ مكة قديم جدا ربما يرجع

الى الوف من السنين الغابرة .

و من المؤكد ان وادى مكة قد اتخذ من قبل ان تبنى: مرحلة و محطا لمرور القوافل لانها تقع وسط الطريق و لان فيها بعض العيون من المياه التى تفتقر اليها القوافل التى تقطع الصحراء بين اقصى الشمال من أراضى فلسطين الى اقصى الجنوب من أراضى اليمن،.

و ليس فى تاريخ المدن مدينة كثر حول مبدأ تكوينها و تأسيسها و اسباب ذلك من الكلام و الروايات و الاحاديث كهذه المدينة التى كانت اهم مدينة عند العرب قبل الاسلام، و هى اهم مدينة اليوم عند المسلمين، و ستظل كذلك ما دام الاسلام قائما.

و معول جميع المؤرخين فى كتابة تاريخ مكة القديم يقع على الكتب المقدسة، و على رواية الراوين، و قصص الأنبياء، و على القليل مما تبقى من الآثار التاريخية التى يمكن استخلاص بعض الوقائع منها، و هو ما سنمرّ عليه على قدر ما يسمح به التحقيق، و على قدر ما تستدعيه حاجة كتاب نريد ان نجعل منه مصدرا عاما لمختلف ما قيل عن تاريخ مكة، و بالقدر المستساغ من مجموع تلك الروايات و الاخبار، و الأحاديث، و القصص الضاربة فى الغرابة و بعد القول.

و تذهب أخبار مكة الى ان مكة او البيت او الكعبة كما تزعم هذه الأخبار كانت موجودة قبل قيام الطوفان! و حين وقع طوفان نوح و عمّ الأرض خفى موضع الكعبة و درس بسبب الغرق، و كان موضع الكعبة

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۶

– على ما تقول هذه الأخبار– أكمة حمراء مدرة لا تعلوها السيول غير ان الناس يعلمون أن موضع البيت فيما هنالك و لكنهم لم يتثبتوا منه بالضبط!! و كان يأتى البيت المظلوم، و المتعوّذ من اقطار الأرض، و يدعو عنده المكروب.

فقلّ من دعا هنالك الا استجيب له، و كان الناس يحجون الى موضع البيت حتى بوّأ اللّه مكانه لابراهيم عليه السلام لما أراد عمارة بيته و اظهار دينه و شرايعه .

و اذا صرفنا النظر عن هذه الأخبار فان جميع المصادر التأريخية و الدينية متفقة على ان بانى البيت و مؤسس مكة الأول هو ابراهيم الخليل و ان البحث يقتضينا ان نمر على حياة ابراهيم و لو بايجاز لتعيين اتجاه دينه و دعوته للتوحيد ثم علاقته بمكة و بيت اللّه الحرام.

ابراهيم

و ابراهيم اسم اعجمى كاسماعيل و فيه لغات: ابراهام، و إبراهم، و ابراهم بحذف الياء و قال عبد المطلب:

و عذت بما عاذ به إبراهم

مستقبل القبلة و هو قائم

انى لكَ اللهم عان راغم

قال (ابو محمد) و وجدت فى التوراة انه ولد لتارخ أبى ابراهيم:

ابراهيم و ناحور و هارون و قد ولد لهارون هذا (لوط) و (سارة) و هناك قول ان سارة هى إبنه هاران الأكبر، و هاران هذا هو اخو تارخ و عم ابراهيم، على ان بعض الأخبار تقول ان ابراهيم تزوج ابنة اخيه لان ذلك لم يكن مخالفا للشرع و المألوف حينذاك.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۷

و قد إختلفت المصادر فى موطن ابراهيم الأصلى و محل ولادته فقال البعض انه ولد فى (سوس) و قال البعض بل كان مولده (بابل) فى الفرات، و قال آخرون: كان مولده بناحية كوثى من ارض السواد (العراق) و قال بعضهم كان مولده، (بالوركاء) بناحية الروابى و حدود (كسكر) ثم نقله ابوه الى (كوثى) و هى الناحية التى كان فيها نمرود، و هو نمرود بن كوش العاهل التاريخى الجبار الشهير فى ذلك الزمان،، او نقله ابوه تارخ الى بابل على بعض الأقوال ، و قال البعض بل انه ولد بحران و هى مدينة بفلسطين و على ما فى هذه الأقوال من اختلاف فى موضع ولادة ابراهيم فان موضع ولادته متعين فى العراق و ان مكان ظهوره يكاد يقتصر على مدينة بابل، بلاد

الكلدانيين، و فى عصر نمرود بن كوش الملك الجبار.

و كـان آزر و قـد ذهب البعض الى ان آزر ليس أبا ابراهيم بل انه عمه و قـد تربى ابراهيم فى حجره بعـد موت ابيه و كان آزر- و هو الاـسم الثـانى لاـبى ابراهيم على اغلب المصـادر كـان نحّـارا، و يظهر انه لم يكن نجارا اعتياديا و انما كان نجارا موهوبا متفننا و كانت بابل تعبد الأصنام فكان آزر هذا متخصصا فى صنع هذه الأصنام بمختلف صفاتها، و حين كبر ابراهيم استعان به ابوه

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۸

آزر فى الخروج بهـذه الأصـنام الى السوق و بيعها على الناس لاقتنائها فى بيوتهم او معابدهم، و قد اوتى ابراهيم من ربه ملكة يميز بها الأشـياء و ينظر الى الأمور بعين الفكر و العقل لذلك سـرعان ما تسـرب الى نفسه الشك فى قدسـية هذه الأصنام الخشبية التى يصنعها ابوه و يسـبغ عليها القوم صفة الربوبية و يعبدونها، ثم حملته الهداية الالهية على أن يفكر فى الكون و خالقه، و يطيل التفكير فيستعرض الزهرة من النجوم و الكواكب، و القمر و الشمس

فيراهـا تظهر للعيـان ثم تغيب و يسـتنتج بقوة تلك المـدارك و الهدايـة ان هـذه الأشـياء و ان كانت اعظم ما تسـتلفت الأنظار من هـذا الكون المرئى فلاـ يمكن بـأى وجه من الوجوه ان يكون احـدها هو خـالق هـذا الخلق و هو رب السـموات و الاـرض، و انمـا يجب ان يكون هنالك إله غير محدود الجوانب بالبصر، و غير مشهود للعيان و هو الذى يجب ان يتجه اليه القوم و يؤمنوا به فكان اول تشكيكه فى تلك الأصنام ان توجه الى ابيه معترضا و سائلا على ما جاء فى القرآن:

(وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَ تَتَّخِذُ أَصْناماً آلِهَةً إِنِّى أَراكَ وَ قَوْمَكَ فِى ضَلالٍ مُبِينٍ .

ثم حين قوى ايمـانه و يقينه بضـلال هؤلاـء القوم، و تيقن ان هـذه العبادة هى الشـرك باللّه و ان اللّه هو فاطر السـموات و الارض و انه المعبود الذى لا شريك له قال:

(إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ حَنِيفاً وَ ما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) و راح يبشر بعقيدته و يدعو الى نبذ عبادة الاصنام، و يغرس الشكوك فى نفوس القوم بآلهتهم حتى فشا ذلك عنه فى قومه، ولكى يقيم ابراهيم الحجة المنطقية على ان هذه الأصنام ليست الا اخشابا او احجارا

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۹

و هى لاـ تملك نفعا او ضـرا تسـلل فى غفلـة من القوم و كان لهم عيـد يخرجون اليه جميعهم فلما خرجوا لم يخرج ابراهيم معهم الى العيد و خالف اصنامهم و هو يقول:

(تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنامَكُمْ) .

و جاء الاصـنام و هى فى بهو عظيم بعضها الى جنب بعض، كل صنم يليه أصغر منه، و هوى عليها فكسرها بفأس فى يده حتى اذا بقى اعظم صنم منها ربط الفأس بيده ثم تركهن .

فلمـا رجع القوم من مهرجـان العيـد ورأوا ما فعل بأصـنامهم راعهم ذلك و اعظموه و قالوا (مَنْ فَعَلَ هـذا بِآلِهَتِنا) فرد عليهم من يعرف ابراهيم و مخـالفته لهم فى دينهم قائلين: (قالُوا سَـمِعْنا فَتًى يَـذْكُرُهُمْ يُقالُ لَهُ إِبْراهِيمُ) و هم يعنون انه كان يسبّ الاصـنام و ينال منها، و بلغ ذلك نمرود و اشراف قومه فجىء به و قد كرهوا ان يأخذوه بغير بينة و سألوه و هم عند ملكهم نمرود:

(أَ أَنْتَ فَعَلْتَ هذا بِآلِهَتِنا يا إِبْراهِيمُ، قالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ) .

و لم تفد هذه الحجة مع قوم نمرود و برموا به و حاولوا ان يقضوا عليه احراقا بالنار فنجا و خرج من العراق و لم يؤمن بدعوته الا القليل و كان منهم ابنة عمه سارة بنت هاران و قد تزوجها ابراهيم و هاجر بها و بمن آمن معه الى (حاران) من ارض كنعان.

و جاء فى التوراة- التكوين: و اخذ تارخ ابرام (ابراهيم) ابنه و لوطا

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۰

بن هاران ابن ابنه و سارای (سارة) کنته امرأة ابرام ابنه- و ذلک قبل ان تسمی ساره- فخرجوا معا من اور الکلدانیین لیذهبوا الی ارض کنعان، فأتوا الی حاران، و اقاموا هناک ».

ثم جاء فی التوراة التکوین «و حدث جوع فی الأرض فانحدر ابرام الی مصر لیتغرب هناک لان الجوع فی الارض کان شدیدا، وحدث لما قرب ان یدخل مصر أنه قال لسارای امرأته انی قد علمت انک امرأة حسنة المنظر، فیکون إذ رآک المصریون انهم یقولون هذه امرأته فیقتلوننی و یستقبونک، قولی انک اختی، لیکون لی خیر بسببک و تحیا نفسی من اجلک» و کان ملوک مصر یومذاک العمالقة (الهکسوس) و تروی الأخبار و جلّها مستقاة من التوراة قصة طویلة عما جری لابراهیم و سارة مع فرعون مصر ثم تقول ان فرعون هذا قد اهدی لسارة جاریة اسمها (هاجر) و کانت سارة عاقرا حتی ذلک الحین فلم تلد لابراهیم و لدا و کانت (هاجر) جاریة ذات هیئة فوهبتها سارة لابراهیم و قالت انی اراها امرأة وضیئة فخذها لعل اللّه یرزقک منها ولدا .

و خرج ابراهیم من مصر و نزل ارض فلسطین (بیت المقدس) و هی بلاد الکنعانیین، و قد وسع اللّه علیه و بسط له فی الرزق و المال و الخدم، و هنا ولد اسماعیل من هاجر، فهاج ذلک غیرة (ساره) و غاظها ان تری جاریتها تلد ولدا و هی لا تلد، فغضبت علیها و اخرجتها ثم اعادتها، و لیس من شک ان نزاعا حادا کان قد جری بینهما و ربما طال امد هذا النزاع فاضطر ابراهیم للهجرة بهاجر و ابنها اسماعیل و قد اختلفت الأخبار فی سن اسماعیل عند الهجرة و قال البعض انه کان رضیعا، و الراجح انه کان فی سن اکبر و فوق سن الرضاعة فقد ورد فی الأسباب التی حملت ساره علی ان تفرض علی ابراهیم الهجرة بهاجر و ابنها اسماعیل فی قولها: (لا تساکنی

هاجر فی بلد) هو ان سارة قد حملت هی الأخری باسحق فلما ولدته و کبر اقتتل هو و اسماعیل ، فلم تطق سارة بعد ذلک ان تحتمل هاجر هاجر و ابنها اکثر مما احتملته. و قد رووا انه لما ولد لابراهیم اسحق من سارة و بلغ ثلاث سنین أقبل اسماعیل علی اسحاق و هو فی حجر ابراهیم فنحاه و جلس فی مجلسه فبصرت به سارة فقالت: یا ابراهیم أ ینحّی ابن هاجر ابنی من حجرک و یجلس هو فی مکانه؟ لا و اللّه لا تجاورنی هاجر و ابنها فی بلاد ابدا فنحّهما عنی؛ و کان ابراهیم مکرما لسارة یعزّها و یعرف حقها و ذلک لانها کانت من من ولد الانبیاء و بنت خالته (کذا) .

و اقبل ابراهیم بام اسماعیل و اسماعیل حتی قدم بهما مکة و مع ام اسماعیل شنة فیها ماء تشرب منها و عمد بهما الی دوحة فوق (زمزم) و وضعهما تحتها ثم رجع، فوضعت هاجر ابنها الی جنبها تحت الدوحة، و علقت شنتها تشرب منها حتی فنی ماؤها، فانطلقت هاجر حتی صعدت (الصفا) لتنظر هل تری شیئا فلم تر شیئا، و قیل انها فعلت ذلک سبع مرات، و کان ذلک اصل السعی عند الحجاج.

و تختلف هنا الروایات فی هذه الهجرة و کیفیتها و اصل (زمزم) و ظهورها عند الدوحة لأول مرة، و اسباب تسمیة (زمزم) و ما ارفق ذلک من الاخبار التی تقتصر علی ما توردها قصص الأنبیاء و ما یوردها الرواة التی لا تنسجم اخبارها و اخبار التاریخ.

و یعلق محمد فرید وجدی علی ما ورد عن تلک الروایات فیقول:

«و یظهر لنا ان فی هذه الروایات ضعفا، بل ان اکثر امثال هذه الروایات مخلوطة بالخرافات- ثم یقول- و یلوح لنا ان ابراهیم لم یطوح بامرأته و ولده

الی هذا الحد بل انتقل بامرأته الثانیة الی جهات مکة لغرض من الأغراض بدلیل انه کان قد زار بلاد العرب مرارا» .

و علی مثل هذا الرأی کان غیر قلیل من المؤرخین کما سیجیء البحث، و لیس هنالک من تناقض بین هذا الرأی و الآیة القرآنیة الواردة علی لسان ابراهیم:

(رَبَّنا إِنِّی أَسْکَنْتُ مِنْ ذُرِّیَّتِی بِوادٍ غَیْرِ ذِی زَرْعٍ عِنْدَ بَیْتِکَ الْمُحَرَّمِ) اذ لا ینافی ذلک ان یکون الوادی ذا میاه و افیاء مع کونه وادیا غیر ذی زرع.

اسماعيل

و على مقربة من مكة كانت منازل قبائل جرهم، بل قال بعضهم ان جرهم كانت اولى القبائل التى أقامت فى (مكة) و انها كانت تقيم هناك قبل ان تجيء هاجر و ابنها على حين تذهب روايات اخرى الى ان جرهم لم تقم الا بعد ان تفجرت (زمزم) و جعلت العيش فى هذا الوادى الاجرد مستطاعا و قبائل جرهم عرب يتكلمون اللهجة التى نزل بها القرآن و هى لغة بنى معد.

فشب اسماعيل فى قبيلة جرهم و اعطوه سبع اعنز فكانت اصل ماله و نشأ مع اولادهم و تعلم الرمى، و نطق بلسانهم و ماتت امه و تزوج باحدى بنات جرهم و اقام و اياها مع الجرهميين فى هذا المكان الذى تمّ فيه تشييد البيت الحرام، و قامت مكة بعد ذلك من حوله.

و قيل ان اسماعيل قد تزوج مرتين و تتحدث الأخبار عن الزوجة الاولى و تدعى ان اسمها (عمارة) بنت سعيد بن اسامة و تقول هذه الأخبار ان

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۳

ان ابراهيم رأى ان يزور إبنه بعد مرور هذه السنين و يستطلع خبره فجاء يسأل عنه حتى وقف على بيته و وجد امرأة اسماعيل فسألها عنه فقالت:

انه غائب، و ليس من شك ان يكون غيابه فى الصيد، فقد كان الصيد يومذاك هو المعول فى حياة تلك القبائل، و قد يقضى القوم فى الصيد اياما و اسابيع، و لم يجد ابراهيم من زوجة ابنه اسماعيل ما كان مألوفا عند القبائل من ترحيب بالضيوف فقال لها ابراهيم- على ما تقول هذه الروايات: «قولى لزوجك اسماعيل اذا ما عاد انه قد جاءه شيخ صفته كذا و كذا و هو يقرئك السلام و يطلب منك: ان تغيّر عتبة بيتك لانه لم يرضها لك». ثم رجع من حيث أتى.

و حين رجع اسماعيل حدثته امرأته بحديث ذلك الشيخ فقال لها زوجها:

«و هذا أبى و انت عتبة بيتى، و هو لم يرض بك فارجعى الى اهلك» و أرجعها الى أهلها، و تزوج بجرهمية اخرى، قيل ان اسمها (رعلة) بنت مضاض التى ولد له منها اثنا عشر ذكرا فكان هو و جرهم بن قحطان الجدين الأولين للعرب المستعربة .

و جاء فى التوراة على لسان اللّه يخاطب ابراهيم فى اسماعيل «ها انا أباركه و أثمره، و اكثره كثيرا جدا، اثنى عشر رئيسا يلد و اجعله امة كبيرة» .

و تقول الرواية: و لبث ابراهيم ما شاء اللّه ان يلبث ثم عاد مرة اخرى ليزور ابنه اسماعيل فألفاه غائبا كالسابق، و وجد امرأته الجديدة فاستنزلته و هى لم تعرفه و عرضت عليه الطعام و الشراب فسألها: ما طعامكم و شرابكم؟

قالت: اللحم و الماء. قال: هل من حبّ او غيره من الطعام؟ قالت: لا، قال:

بارك اللّه لكم فى اللحم و الماء . و قالت بعض الروايات انها جاءته باللبن و اللحم ثم طلبت منه على سبيل المبالغة فى إكرام الضيف و هو شيخ كبير

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۴

و على رأسه أثر من غبار السفر، طلبت منه ان تغسل له رأسه و هو على فرسه دون ان ينزل من فرسه و جاءته (بالمقام) بالاناء و وضعته عند شقه الايمن، فوضع قدمه عليه فغسلت له شق رأسه الأيمن، ثم حولت (المقام) الى شقه الايسر و فعلت به كذلك، فقال لها اذا جاء زوجك فاقرئيه عنى السلام و قولى له: الآن قد استقامت عتبة بابك. فلما جاء اسماعيل قالت له زوجته: لقد جاءنا من بعدك شيخ احسن الناس وجها، و أطيبهم ريحا، و قال لى كذا و كذا و قلت له كذا و كذا، و غسلت له رأسه، و هو يقرئك السلام و يقول: قد قد استقامت عتبة بابك فلا تغيرها. فقال لها اسماعيل:

ذلك هو ابى ابراهيم، و قوله هذا يدل على رضاه منك.

و ولـد لاسـماعيل من هـذا الزواج كما مر اثنا عشـر ولدا هم آباء العرب المسـتعربة، هؤلاء العرب الذين ينتمون من ناحية خؤولتهم فى جرهم الى العرب العاربـة ابناء يعرب بن قحطان. و من ناحية أبوّتهم لاسـماعيل بن ابراهيم الذى يمتّ من ناحية امومته الى مصـر بأوثق نسب، و من ناحية ابوته الى العراق و الى فلسطين، و الى حيث نزل ابراهيم من ارض اللّه .

هـذه القصة من قصـص التاريخ- على ما اورد هيكل- يكاد ينعقد الاجماع على جملتها من ذهاب ابراهيم و اسـماعيل الى (مكة) و ان وقع خلاـف على التفاصـيل، و الـذى يعرضون لتفاصـيل حوادثها بالنقـد، يروونها على ان هاجر ذهبت باسـماعيل الى الوادى الـذى به (مكة) اليوم، و كانت به عيون أقامت (جرهم) عندها فنزلت هاجر منهم اهلا و سهلا لما جاء ابراهيم بها و بابنها، و ان ما ورد عن حيرة هاجر لما نضب الماء منها، و عن سعيها سبعا بين الصفا و المروة، و عن (زمزم) و كيف نبع الماء منها فهو

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۵

موضع شك عندهم، و هناك من يرتاب فى ذهاب ابراهيم و اسـماعيل الى الحجاز و ينفى القصة من اساسـها و من هؤلاء السـير و ليم موير، و لكن هذا الارتياب يفتقر الى ما يسنده فى حين ان جميع الروايات على خلاف هذا الرأى

قصة الذبح

و مصـادر قصـة الذبـح هى نفسـها مصادر قصـة ابراهيم و مصادر قصـة اسـماعيل الواردة فى الكتب المقدسـة؛ و الرواة كابن عباس، و الصـحابة، و قصـص الأنبياء، و تتلخص القصـة، فى ان ابراهيم قـد رأى فى المنام ان اللّه يأمره بأن يذبح ابنه فقالت التوراة و معها بعض الرواة ان الذبيـح هـذا هو اسـحاق بن سارة، و ان ذلك كان فى فلسـطين ، و قال الراوون الآخرون بل الذبيـح هو اسـماعيل و ان ذلك كان فى مكـة، و اورد القرآن قصـة الذبـح و لكن لم يعين اسم الذبيـح فى القصة. و كل ما جاء هو ان ابراهيم قد اخذ ابنه امتثالا للرؤيا التى رآها لقد اخذه لكى يذبحه و يحرقه و يقدمه قربانا فسار به فى الصـباح، و تقول الآية (فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْىَ قالَ يا بُنَىَّ إِنِّى أَرى فِى الْمَنامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ ما ذا تَرى قالَ يا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِى إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ، فَلَمَّا أَسْلَما وَ تَلَّهُ لِلْجَبِينِ، وَ نادَيْناهُ أَنْ يا إِبْراهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ، إِنَّ هذا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ، وَ فَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ» .

و تكثر الروايات و بأساليب مختلفـة و عن طرق مختلفـة من الرواة عن الذبيـح و كيف جرى هـذا الذبـح حتى لقد علق الدكتور محمد حسـين هيكل على احدى قصـص الذبح، يقول: و تسبغ بعض الروايات على هذه القصة خيالا شعريا تدعونا روعتها ان نقصها ثم يسرد تلك القصة .

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۶

و ملخص ما تروى المصادر عن كيفيـة الذبح هو ان ابراهيم لما رأى فى المنام ان يذبح ابنه و تحقق لديه من هذه الرؤيا انها أمر ربانى فيه رضا اللّه قال لابنه: يا بنى خذ الحبل و المدية و انطلق بنا الى هذه الهضبة لنحتطب لاهلنا، و فعل الغلام و تبع والده، و هناك أفضى ابراهيم الى ابنه برؤياه و سأله رأيه فى الأمر؟ فقال: يا أبت افعل ما تؤمر. و هم ابراهيم بالتنفيـذ و لكن اللّه افتـدى الغلام بكبش عظيم و نودى ان قـد صـدقت الرؤيا فالتفت ابراهيم و اذا بكبش على مقربـة منه فعلم انه هو الفدية، فذبحه و حرقه و آمن بأن اللّه قد قبل منه و من ابنه هـذا الفـداء، و هـذا خلاصـة ما تـذكره الكتب المقدسة و الروايات فى الذبيح، فاذا كان الذبيح اسـحاق على ما تقول التوراة و يروى الرواة فيجب ان يكون مسـرح هذه القصة فى فلسـطين، اما اذا كان الذبيح اسـماعيل كما يروى الآخرون فيجب ان يكون مسـرح القصة فى مكة.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۷

بناء البيت

و اختلف الرواة فيما اذا كان هنالك بيت او بنية سبقت عهد ابراهيم فى مكة، فلما جاء ابراهيم الى مكة شيد هذا البيت على أسسه ام ان ابراهيم قد قام بتشييد هذا البيت ابتداء فى هذا المكان الذى يقوم فيه بيت اللّه اليوم، فقد أوردت بعض المصادر من الأخبار ما يستدل منه ان لمكة هذه كانت بنية من قبل و ان هنالك مواسم كانت القبائل تأتى مكة فيها، و ان مكة هذه كانت ممرا للقوافل و سوقا للتجارة يقع فيها التبادل فى البضائع بين القوافل المارة من هناك و كان الناس يحجون إلى مكة و الى موضع البيت الذى كان مبنيا من الطين مخطط الكعبة كما بناها ابراهيم على ما يدعى البعض نقلا من كتاب (مكة المكرمة- و المدينة المنورة) بالانكليزية تأليف أميل ايسين

قبل الطوفان حتى بوأ اللّه مكانه لابراهيم لما اراد أللّه عمارته و اظهار دينه و شعائره، كما أشرنا فى ذلك من قبل. و تذهب هذه الروايات الى مدى ابعد من التصور فتقول عن هذا البيت انه «لم يزل منذ اهبط آدم الى الأرض معظما محرما تتناسخه الأمم و الملل امة بعد امة و ملة بعد ملة!!» .

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۸

و هناك من يذهب الى ان ابراهيم قد هاجر باسماعيل و امه فى الموسم فقد رأى فى المنام أمر اللّه بأن يهاجر باسماعيل و امه من ارض الشام فى الموسم- و كان ذلك فى ذى الحجة- الى مكة و يذبحه فى الموسم و هو يدل على ان هنالك كان موسم، و كان اجتماع، إذ يستبعد ان يكون هذا الموسم قد سنّه ابراهيم و صار موسما عاما فذبح فيه ابنه اسماعيل و الموسم فى عامه الأول.

و لكن اكثر الرواة على ان اول من بنى البيت كان ابراهيم، فما لبث ابراهيم بعد زيارته ابنه اسماعيل للمرة الثانية فى مكة حتى عاد مرة اخرى من ارض الشام الى مكة و فى هذه المرة فاجأ ابنه اسماعيل و هو جالس يصلح نبلا له و لا شك ان اللقاء بين الأب و الابن كان مؤثرا و ان الحديث كان طويلا و هناك اى فى هذه الزيارة قال لابراهيم: يا اسماعيل ان اللّه قد أمرنى ان ابنى له بيتا هنا قال اسماعيل: فأطع ربك، فقال ابراهيم: و قد امرك ان تعيننى على بنائه، قال: فافعل.

و لا بد ان الاب و الابن قد أعدّا العدّة حينذاك و هيآ المواد اللازما و فى تعيين مكان البيت و المواد روايات كثيرة، و استمرا فى البناء (وَ إِذْ يَرْفَعُ إِبْراهِيمُ الْقَواعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَ إِسْماعِيلُ .) و كلما انجزا قسما منه دعوا اللّه قائلين: (رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .) و حين ارتفع الجدار و عجز الأب الشيخ ان يضع الحجارة فوق الحجارة رأى ان يضع حجرا و يقوم عليه، و لم يزل مكان هذا الحجر يعتبر مقاما لابراهيم لانه وقف عليه فى اثناء بناء البيت، و جعل ابنه اسماعيل يناوله الحجارة، و قد كان هذا الحجر ملصقا بحائط الكعبة على ما كان عليه من قديم الزمان الى ايام عمر بن الخطاب (رض) فأخّره عن البيت قليلا لئلا يشغل المصلين

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۹

عنده و الطائفين بالبيت . و فى مقام ابراهيم من الآية (وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى) اختلاف عند المفسرين فقال بعضهم: ان مقام ابراهيم هو مراسيم الحج اى الحج كله، و قال البعض بل المقصود بمقام ابراهيم: عرفه و المزدلفة و الجمار، و قيل الحرم كله، و عن السعدى ان مقام ابراهيم هو الحجر الذى كانت زوجة اسماعيل وضعته تحت قدم ابراهيم حين غسلت رأسه و يفسر المفسرون قول ابراهيم و ابنه اسماعيل (رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا) على انهما بنيا الكعبة مسجدا لامسكنا لانهما التمسا الثواب عليه و الثواب انما يطلب على الطاعة.

و استدل المستدلون على ان هذا اول بيت بنى كمسجد للعبادة و كبيت للّه الذى عبده ابراهيم و من بعده اسماعيل و دعا اليه و لم يكن نظير له من قبل لقد استدلوا عليه فى الآية: (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَ هُدىً لِلْعالَمِينَ .) على الرغم مما ورد من الاختلاف و التفاسير فى كونه البيت الأول.

و ابرز ما فى هذا البيت مما قدس هو الحجر الأسود الذى وضع فى البناء و ربما افرد فاكتفوا بقولهم (الحجر) بدون وصف اعظاما له، و من ذلك قول عمر بن الخطاب (رض) يخاطب الحجر الأسود و هو يؤدى مراسيم الحج «و اللّه انك حجر و لو لا انى رأيت رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم يفعل كذا ما فعلت» .

فأما قول الفرزدق:

و إذا ذكرت أباك أو أيّامه‌أخزاك حيث تقبّل الاحجار

فانه جعل كل ناحية منه حجرا، ألا ترى انك لو مسست كل ناحية منه لجاز ان تقول: مسست الحجر .

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۰

دين ابراهيم

و بعد ان اتم ابراهيم و اسماعيل بناء البيت تعينت هنالك الفروض الواجبة.

على ابراهيم و اسماعيل و المؤمنين بدعوته الى الوحدانية، و تتلخص ديانة ابراهيم بأنه كان (حنيفا) ففسر البعض الحنيفية بالاستقامة و قالوا اى انه كان مستقيما ، و ايدت الأخبار المستقاة من النصوص المقدسة و الروايات ان ديانة ابراهيم كانت ديانة مستقلة لم تنهج نهج ديانات اخرى و قد ايدها الاسلام بعد ذلك و اعتبرها من اسس دعوته، و قد استدل المستدلون على ديانة ابراهيم المستقلة و تأييد الاسلام لها من الآية:

(ما كانَ إِبْراهِيمُ يَهُودِيًّا وَ لا نَصْرانِيًّا وَ لكِنْ كانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْراهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَ هذَا النَّبِيُّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ اللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ .)

ثم استدلوا على ان ابراهيم لم يكن مشركا و ان طقوسه كانت مقبولة و لم يرد بها الا الدعوة الى الوحدانية فى بناء البيت لكى يحضروا عنده و يدعو اللّه من قلوب خالصة و يصلوا الى ربهم انهم يستدلون على ذلك بالآية:

(وَ إِذْ بَوَّأْنا لِإِبْراهِيمَ مَكانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَ طَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْقائِمِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ .)

قال المبرد: كأنه قال وحدّني فى هذا البيت و ذلك معنى (لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً) و طهر بيتى من الشرك و عبادة الأوثان، و من الآية الاخرى:

(وَ عَهِدْنا إِلى إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ أَنْ طَهِّرا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْعاكِفِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ) اتخذوا دلائل اخرى على اتجاه ابراهيم فى ديانته و الغرض المطلوب من بناء البيت.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۱

و كما لم يكن لدى المؤرخين فى الغالب ما يرجعون اليه فى تعيين دين ابراهيم و أسسه و بناء البيت و أركانه غير الكتب المقدسة و الأحاديث و الروايات فإنه ليس فى الطقوس الدينية فى الحج من مصدر غيرها و قد روت هذه المصادر روايات مختلفة لا يخرج مفهومها عن ان طقوس الحج التى يقوم بها المسلمون و الصلاة التى يؤدونها اليوم تكاد تكون نفس الطقوس التى قام بها ابراهيم، و هى موضع مناقشة عند المؤرخين لا سيما فيما يتعلق بالصلاة التى لم تعين تلك المصادر نوعها، و بمواقيتها التى وردت فى تلك الأخبار، و مجمل تلك الاقوال هو ان ابراهيم حين فرغ من بناء البيت دعا الناس ممن آمن بدعوته الى الحج و خرج بابنه اسماعيل و بمن لبّى دعوته يوم (التروية) فنزل بهم (منى) و صلى بهم الظهر، و العصر، و المغرب، و العشاء الآخرة، ثم بات بهم حتى أصبح فصلى بهم صلاة الفجر، ثم غدا بهم الى (عرفة) فقام بهم هنالك حتى اذا مالت الشمس جمع بين الصلاتين:

الظهر و العصر ثم راح بهم الى الموقف من (عرفة) فوقف بهم على (الاراك) و هو الموقف من (عرفة) الذى يقف عليه الامام يريه لاسماعيل و يعلّمه، فلما غربت الشمس دفع ابراهيم باسماعيل و بمن معه حتى اتى (المزدلفة) فجمع فيها بين الصلاتين: المغرب و العشاء الآخرة، ثم بات به و بمن معه حتى اذا طلع الفجر صلى بهم صلاة الغداة ثم وقف على (قزاح) من (المردلفة) فيمن معه و هو الموقف الذى يقف به الامام، حتى اذا أسفر دفع باسماعيل و بمن معه يريه و يعلمه كيف يصنع حتى رمى (الجمرة الكبرى)، و اراه (المنحر) من (منى) ثم نحر، و حلق، ثم أفاض به من منى ليريه كيف كيف (يطوف) ثم عاد به الى (منى) ليريه كيف يرمى (الجمار)

حتى فرغ له من الحج و أذن به فى الناس .

و تكرر بعد ذلك حج ابراهيم، و كان ابراهيم يحجه فى كل سنة، و حجّت

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۲

بعد ذلك الانبياء و الامم، و فى رواية عن عبد اللّه بن ضمرة السلولى: «ما بين الركن الى المقام، الى زمزم قبر تسعه و تسعين نبيا جاؤوا حجاجا فقبروا هنالك» و جاء: «كان النبى من الأنبياء اذا هلكت امته لحق بمكة فتعبد بها النبى و من معه حتى يموت، فمات بها نوح، و هود، و صالح، و شعيب، و قبورهم بين زمزم و الحجر» و مات ابراهيم و دفن فى المغارة التى كانت بحبرون الحيثى عند امرأته (ساره) بمدينة الخليل فى الأردن، و لم يزل البيت على ما بناه ابراهيم الى ان هدمته قريش سنة ۳۵ من مولد النبى.

البيت، و الكعبة، و المسجد الحرام

و اطلق على بيت اللّه اسم (البيت) و (البيت العتيق) و (الكعبة)، لتكعيبها- اى تربيعها- و المسجد الحرام، و يقال البيت الحرام، كما يقال المسجد الحرام و قد اورده القرآن باسم البيت فى عدة آيات سبق ان اوردنا بعضها شواهد فيما مرّ و نورد هنا جميع الآيات الأخرى التى ورد فيها اسم البيت مقصودا به الكعبة قد ايد الاسلام شعائر ابراهيم و نهى عن قتال الآمّين الى البيت و منحهم الأمن فيه، و حقن حتى دم الحيوان فى الحرم.

فالآيات القرآنية التى ورد فيها اسم البيت هى:

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعائِرَ اللَّهِ وَ لَا الشَّهْرَ الْحَرامَ وَ لَا الْهَدْيَ وَ لَا الْقَلائِدَ وَ لَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرامَ) .

(لَكُمْ فِيها مَنافِعُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّها إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ).

(وَ ما كانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكاءً وَ تَصْدِيَةً) .

(فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هذَا الْبَيْتِ الَّذِى أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَ آمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ)

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۳

(وَ لْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَ لْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ) .

(وَ الطُّورِ، وَ كِتابٍ مَسْطُورٍ، فِى رَقٍّ مَنْشُورٍ، وَ الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ) .

(وَ إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثابَةً لِلنَّاسِ وَ أَمْناً، وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى) .

(إِنَّ الصَّفا وَ الْمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُناحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِما) .

و هناك آية جمعت بين اسم البيت و الكعبة فى القرآن:

(جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ) .

و ما عدا ذلك فقد ورد اسم الكعبة فى القرآن مرة واحدة و ذلك فى الآية:

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَ أَنْتُمْ حُرُمٌ وَ مَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزاءٌ مِثْلُ ما قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْياً بالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعامُ مَساكِينَ، أَوْ عَدْلُ ذلِكَ صِياماً لِيَذُوقَ وَبالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ، وَ مَنْ عادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ، وَ اللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقامٍ)

و ورد اسم المسجد الحرام بقصد البيت فى القرآن فى اربعة مواضع:

(إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرامَ) .

(هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ) .

(لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ) .

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ الَّذِي جَعَلْناهُ لِلنَّاسِ سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَ الْبادِ) .

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۴

تمصير مكة

و عهد ابراهيم بالدعوة الى ابنه اسماعيل و صار لمكة شأن آخر غير شأنها الذى جعل منها ممرا للقبائل القادمة من اليمن فى طريقها الى الشام و القبائل القادمة من الشام فى طريقها الى اليمن و ليس من البعيد ان يكون هذا العبور و المرور و إقامة القوافل يوما او يومين بقصد الاستراحة سببا آخر لنشر دعوة اسماعيل و ازدياد عدد الحجاج فى كل موسم من المواسم. و لا بد لموقع مثل هذا انحصر به المرور و العبور، و استراحة القبائل بالاضافة الى ما تستدعيه قدسيّته لوقوع بيت اللّه فيه و كثرة آبار المياه من التوجه إليه و الطواف به و التبرك بحجه نقول: لا- بد ان يكون هناك موقع استراتيجى فى عالم العبادة و التجارة و الكسب و تبادل المنافع، لذلك من الطبيعى- شأن تمصير اى مدينة قديمة ام حديثة- ان يتخذه من تقتضيهم مصالحهم سكنا، و مع ذلك لم نجد فى المصادر ما يشير الى ان هؤلاء السكان قد عرفوا البناء من ز من طويل و فى ايام قريش على اغلب الظن.

و يستدل من تصفح هذه الأخبار و المصادر ان مكة قد عمرت بالسكان فى عهد اسماعيل حتى كان لها نظام حكم و سلطة، و ادارة، خصوصا ان مكة كبرت و اتسعت و تشابكت مصالح سكانها، و اصبحت لها مواسم

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۵

تختلف مهماتها من طقوس دينية، و عروض تجارية، و غير ذلك من النوازع و الغايات.

و اوردت هذه المصادر ان اسماعيل قد خلف من زوجته الثانية اثنى عشر ولدا هم:

نابت، و قيدار، و أذيل، و ميشا، و مسمع، و رما، و ماش، و آذر، و قطورا، و قافس، و طميا، و قيدمان .

امارة جرهم

و يقول المؤرخون أن من (نابت) و (قيدار) ابنى اسماعيل نشر اللّه العرب ، و على هذا يذهب اكثر المؤرخين فينسبون عرب الحجاز كلهم الى (نابت) و (قيدار) كما قد اشرنا الى ذلك من قبل و حين توفى اسماعيل و دفن الى جوار امه (هاجر) بالحجر كان الرئيس بعده و القائم بالأمور و الحاكم المطلق فى مكة و الناظر فى امر البيت و زمزم هو (نابت) بن اسماعيل على الرغم من ان اسماعيل كما تقول الروايات الاخرى قد اوصى لاخيه اسحاق و هو فى بر الشام (فلسطين)، و لقد تغلبت (جرهم) على البيت بعد ذلك بداعى الخؤولة او القدرة و البأس فحكمت بمكة و ما والاها عوضا عن بنى اسماعيل بالرغم من كثرة اولاد اسماعيل و شرفهم و انتشارهم بمكة كما تقول الروايات، و احسن الجرهميون ادارة الحكم و اشتهر بعض حكامهم بالمقدرة و حسن السيرة و قوة البأس كان اشهرهم (مضاض) بن عمرو الجرهمى، و كان قد تولى الحكم بعد (نابت) مباشرة، ثم الحارث، ثم عمرو بن الحارث ثم مضاض ابن عمرو بن الحارث، و لكل من هؤلاء ذكر غير قليل فى الروايات.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۶

و فى ايام جرهم داهم السيل (البيت) و كان سيلا جارفا فهدم البيت فقامت جرهم و اعادة البناء على الأسس التى اقامها ابراهيم، و من اهم ما جعل لمكة شأنا بعد ذلك، و حرمة فى النفوس هو حلف الفضول الذى شدد فى رعاية حقوق الضعفاء و المحتمين بالبيت فى ايام حكومة الجرهميين على الرغم مما قيل عن عبثهم بالأموال و الهدايا التى كان الناس و القبائل يهدونها للكعبة.

حلف الفضول

هو حلف جرى بمكة يهدف الى الأخذ بنصرة الضعيف و اخذ حقه من القوى، و يرعى حقوق الغرباء الذين يسكنون مكة و يحمى الاقلية التى تحل مكة من الأكثرية، و يردّ كل اعتداء يقع من اية جهة اتباعا لدعوة الانصاف، و انما سمى بحلف الفضول لانه «قام به رجال من جرهم كلهم يسمى الفضل: الفضل بن الحرث، و الفضل بن و داعة، و الفضل بن فضالة فقيل له حلف الفضول جمعا لأسماء هؤلاء» .

و ظل هذا الحلف معمولا به الى ايام قريش، و صار موضع فخر لمكة و فخر للعرب جميعا لما كان يتضمن من عهود شريفة نبيلة، و قد تجدد هذا الحلف فى أيام قريش بدار عبد اللّه بن جدعان و أدركه النبى (ص) فقال: لقد شهدت فى دار عبد اللّه بن جدعان حلف الفضول، و لو أدعى اليه فى الاسلام لأجبت.

قال محمد بن ابراهيم بن الحارث التيمى: «كان بين الحسين بن على ابن ابى طالب و بين الوليد بن عتبة بن ابى سفيان منازعة فى مال كان بينهما، و الوليد يومئذ أمير على (المدينة) لعمّه معاوية، فتحامل الوليد لسلطانه، فقال له الحسين: أقسم باللّه لتنصفنّى أو لأخذنّ سيفى ثم لأقومنّ فى مسجد

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۷

رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم ثم لأدعونّ (بحلف الفضول) فقال عبد اللّه ابن الزبير- و كان حاضرا- و انا أحلف باللّه لو دعا به (اى الحسين) لأجبته حتى ينصف من حقه او نموت، و بلغ المسور بن مخرمة الزهرى فقال مثل ذلك، و بلغ عبد الرحمن بن عثمان بن عبد اللّه التيمى فقال مثل ذلك، فلما بلغ الوليد ذلك أنصف الحسين من نفسه حتى رضى ».

إتساع رقعة مكة

و اتسعت رقعة مكة باتخاذها سكنا لما كان يستدعيه حسن الادارة و طلب المثوبة، و الحث على سكناها من لدن جميع الأنبياء الذين كانوا فى مختلف أنحاء الحجاز، فقد جاء فى الروايات ان النبى (صالحا) قال لمن آمن به من قومه: ان هذه الدار- يعنى مساكنهم- قد سخط اللّه عليها و على أهلها فاظعنوا عنها فانها ليست لكم بدار، فقالوا له: فأين تريدنا نذهب؟ قال:

تلحقون بحرم اللّه و أمنه- يعنى مكة- فانى لا أرى لكم دونه، فانطلقوا آميّن البيت الحرام حتى وردوا مكة، فلم يزالوا بها حتى ماتوا و تلك قبورهم غربى الكعبة بين (دار الندوة) و دار بنى هاشم، و كذلك فعل (هود) و من آمن معه، و كذلك فعل (شعيب) و من آمن معه .

و الذى زاد اهمية مكة و اتساع رقعتها و كثرة الوافدين عليها من الحجاج ان كانت نفائس الأمتعة و الاعلاق و الحلى التى تهدى الى الكعبة و الأموال التى تجبى اليها قد جعلتها اهم سكن فى جزيرة العرب حتى لقد كان لها فى ايام (جرهم) خزانة بئر فى (البيت) يلقى فيها الحلى و المتاع و السلاح مما كان يهدى الى (البيت) و فى ضمن ما كان قد أهدى للبيت غزالتان من الذهب، و اسلحة من الذهب مما دل على ان حياة مكة كانت رخية ناعمة.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۸

امارة خزاعة

و كانت قبيلة خزاعة تنزل حول الحرم فى ايام جرهم، و قد اختلف المؤرخون فى اصل خزاعة فقال بعضهم ان اصلها من اليمن كالجرهميين، و قد هاجرت بسبب ما كان ينتظر من الدمار الذى يخلفه سيل العرم و اقامت فى مكة، و قال بعضهم بل إن خزاعة من بنى اسماعيل، و كيفما كان فقد اطمع رخاء مكة و شأنها العظيم و وفرة النعمة خزاعة بامارة مكة و كان ذلك فى ايام حكم مضاض بن عمرو بن الحارث، فقامت خزاعة فى وجه جرهم، و وقع القتال بينهما، و اعتزل بنو اسماعيل الفريقين، فتغلبت خزاعة على جرهم و

انتزعت منهم الامارة، و أجلتهم عن مكة فقصدوا اليمن موطن اصولهم إذ لم يبق لهم مأمل فى مكة.

و من قصيدة منسوبة لمضاض بن عمرو بن الحارث بن مضاض بن عمرو الجرهمى الذى غلب على امره و أجلى عن مكة هو و من تبعه يستخلص الباحث بعض الرخاء و النعمة و راحة النفس التى كانت تتمتع بها مكة، يقول مضاض عن مكة و هو فى طريقه إلى اليمن جاليا:

و قائلة و الدمع سكب مبادرو قد شرقت بالدمع منها المحاجر

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفاأنيس و لم يسمر بمكّة سامر

بلى نحن كنّا أهلها فأزالناصروف الليالى و الجدود العواثر

و كنّا ولاة البيت من بعد (نابت)نطوف بذاك البيت و الخير ظاهر

الى ان يقول:

و صرنا احاديثا و كنّا بغبطةبذلك عضّتنا السنون الغوابر

فسحّت دموع العين تبكى لبلدةبها حرم أمن و فيها المشاعر

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۹ و تبكى لبيت ليس يؤذى حمامهيظل به أمنا و فيه العصافر

و فيه و حوش لا ترام أنيسهاذا خرجت منه فليست تغادر

على ان بعض المصادر قالت ان الواقعة قد حدثت فى ايام عمرو بن الحارث و ليس فى ايام ابنه مضاض و ان هذا الشعر انما هو لعمرو و انه هو الذى أجلى عن مكة و ليس ابنه مضاضا كما ذكرنا، و تزعم بعضن المصادر ان هذه القصيدة و غيرها من ابيات عمرو بن الحارث كانت اول شعر عربى قيل و لم يقل قبله احد شعرا!! .

و غير هذا الكثير الذى يدل على توسع رقعة مكة و ازدياد عدد سكانها يوما بعد يوم لما امتازت به هذه البلدة من رخاء و أمن و عزة.

و يقول الأزرقى فى اخبار مكة و فى قوله دلالة اخرى على النعمة و الرخاء التى كانت تتمتع به مكة فى امارة خزاعة خاصة، يقول «و احتازب خزاعة حجابة الكعبة و ولاية امر مكة و فيهم بنو اسماعيل بن ابراهيم بمكة و ما حولها لا ينازعهم احد منهم فى شىء من ذلك و لا يطلبونه فتزوج (لحى)- و هو ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر (الخزاعى)- (فهيرة) بنت عامر بن عمرو ابن الحارث بن مضاض بن عمرو الجرهمى ملك جرهم فولدت له (عمروا) و هو عمرو بن لحى، و بلغ بمكة و فى العرب فى حطمة حطموها عشرة آلاف ناقة؟ و كان قد اعور عشرين فحلا، و كان الرجل فى الجاهلية اذا ملك الف ناقة فقأ عين فحل إبله! فكان قد فقأ عين عشرين فحلا!! و كان اول من اطعم الحاج بمكة سدايف الابل و لحمانها على الثريد، و عمّ فى تلك السنة جميع حاج العرب بثلاثة اثواب من برود اليمن».

فمن اين لعمرو هذا عشرون الف بعير؟ و من اين له كل هذا الثراء

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۴۰

الذى ينفق منه آلاف البرود اليمنية الغالية الثمن على الحجاج، و يطعم هؤلاء الحجاج شحوم السنام لو لم تكن مكة قد تجاوزت الحدود فى الرخاء و النعمة و فيما كان يدخل اليها من المداخل؟

و لقد دافعت خزاعة عن مكة و الحرم غير مرة، و كان بعض التبابعة من اليمن قد سار الى البيت غازيا و اراد هدمه و تخريبه فقامت دونه خزاعة و قاتلت عليه اشد القتال حتى رجع ثم غزاها غزوة اخرى و هكذا و كانت لخزاعة نفوس أبية منعتها من ان تمد يدا الى الاموال و الهدايا التى تهدى الى الكعبة، و لا بد ان يكون هذا الاباء قد انعكس فى ادارة حكمها فزاد من قيم الأنظمة و اعزاز البيت و تقديسه.

مكة فى ايام قريش

و تولت خزاعة الحكم نحو ثلثماية سنة، و قيل خمسماية سنة تولت بعدها قريش الحكم و ولاية البيت بزعامة (قصى) بن كلاب بعد حرب وقعت بين خزاعة و بين القبائل التى استعان بها قصى لانتزاع الحكم من مخطط بناء الكعبة فى عهد قريش نقلا عن كتاب (مكة المكرمة و المدينة المنورة) بالانكليزية- تاليف اميل ايسين.

ايدى خزاعة، و انتهت هذه الحرب بالتحكيم و تولى قصى ولاية البيت و امارة مكة و بقيت مكة تحت حكم قريش حتى قام الاسلام.

و تغير اسلوب الحكم و طريقة الادارة منذ ان تول قصى بن كلاب امارة مكة، و قام بحفر عدد من الآبار زادت من ثروة البلاد المائية، و اوجد تشريعات جديدة، و احدث وظائف اكثر ضمانا لتنظيم حياة السكان فى مكة.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۴۱

دار الندوة

و انشأ قصى فى داره مجلسا اشبه بالمجلس النيابى باسم (دار الندوة) و قد بنى داره هذه و جعل بابها الى مسجد الكعبة، و سن لها تشريعا يقصر بمقتضاه دخولها على اولاده كافة و على من يبلغ الأربعين من العمر من قريش، و فى دار الندوة هذه كانت تجتمع قريش للتداول فى الرأى و التشاور فى كل امر يخص المدينة او البيت الحرام، فلا يبرمون شيئا الا فيها، و لا يعتقدون لواء لحرب قوم من غيرهم الا فيها يعقده لهم بعض اولاد قصىّ و لا تفصل خصومة بينهم الا هناك.

قال الكلبى: و هى اول دار بنيت بمكة ثم تتابع الناس فبنوا من الدور ما استوطنوه، و كلما قربوا من عصر الاسلام ازدادوا قوة و كثرة حتى دانت لهم العرب، و صار امر قصى فى قريش كالدين المتبع، و سميت (الندوة) لأنهم كانوا ينتدون فيها اى يجتمعون للخير و الشر و كثر المنتدون بعد ذلك فكان لعبد المطلب مجلس فى ظل الكعبة على فراش يعد له لا يجلس عليه احد غيره احتراما له و اجلالا لقدره، و فى جوار الكعبة كانت قريش تسمر فى اندية تسمع فيها المواعظ و الأخبار، و غير ذلك.

طراز الحكم و صفته

و عظم شأن مكة و كثرت مواردها و تعددت المرافق و النواحى التى تفتقر الى الرعاية و ادارة شئون البلد الواسعة و صار الحكم فيها منذ عهد قصى الذى تولى حكمها يقرب من الحكم الديمقراطى الذى يشترك فى ادارته غير واحد من الحكام مما يشبه الحكم الشورى و كانت مناصب مكة تقوم على ستة اسس تعتبر هى القواعد الأساسية لادارة شؤون مكة الخاصة و العامة،

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۴۲

و هى: السدانة، و دار الندوة، و اللواء، و السقاية و الرفادة، و القيادة.

و كان من أولاد قصى عبد مناف، و كانت له و جاهة و شخصية تكاد تحصر ز عامة ابيه فيه و قد شق ذلك على الاب و الام ان لا يكون للابن الثانى و هو عبد الدار هذه المنزلة و رأى الأب ان يقسم هذه المناصب بينهما فناط بابنه عبد الدار (السدانة) و (دار الندوة) و (اللواء).

و السدانة- هى الحجابة و باستطاعة المتولى لها ان يحجب الكعبة لان مفتاحها بيده وحده يفتح بابها للناس و يقفله، و لها المقام الأول عندهم، و مثل هذا المنصب قديم عند اليهود، فقد كانت عندهم كاهن خاص لحراسة الهيكل يسمونه حافظ الباب، و قد جعل صاحب (العقد الفريد) السدانة و الحجابة منصبين .

دار الندوة- و قد مر ذكرها و هى ادارة شؤون الشورى و ما يتعلق ببلوغ الرشد عند الفتيان و الفتيات و غير ذلك من مهام هذه الندوة.

اللواء- هو الراية- و قد كانت لقريش راية تسمى العقاب، فكانوا اذا ارادوا الحرب اخرجوها، فاذا اجتمع رأيهم على واحد سلموه اياها

و الا فانهم يسلمونها الى صاحبها .

ثم ناط قصى بابنه عبد مناف المناصب الثلاثة الأخرى و هى: (السقاية) و (الرفادة) و (القيادة).

و السقاية- اما السقاية فحياض من أدم (جلود كانت على عهد قصى توضع بفناء الكعبة و يسقى فيها الماء العذب من الآبار على الابل و يسقاه الحجاج.

و الرفادة- خرج من المال كانت قريش تخرجه من اموالها فى كل موسم فتدفعه الى قصى يصنع به طعاما للحاج يأكله من لم يكن معه سعة و لا زاد.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۴۳

و فى احدى السنين و كانت الرفادة بيد عمرو بن عبد مناف اصاب البلد قحط و جدب شديد، فخرج عمرو بن عبد مناف الى الشام فاشترى بماله دقيقا و كعكا، فقدم به مكة فى الموسم، و هشم ذلك الكعك و نحر الجزور و طبخه و جعله ثريدا و اطعم الناس، و كانوا فى مجاعة شديدة حتى أشبعهم فسمى منذ ذلك الحين باسم (هاشم) و لم يعد احد يسميه عمروا لانه هشم الثريد لأهل مكة . و فى ذلك يقول الشاعر مشيرا إلى هاشم:

عمرو العلا هشم الثريد لمعشر كانوا بمكة مسنتين عجاف

و القيادة- هى إمارة الركب و يتقدم صاحبها الركب و يقودهم للقتال فى الحرب و يتزعمهم فى قيادته فى الخروج للتجارة.

و تفرعت بعد ذلك من هذه المناصب مناصب اخرى اهمها: (الاشناق) و هى النظر فى الديات و الغرم، و (القبة) و هى جمع تجهيزات الجيش فى الحرب، و (الاعنّة) و هى تدبير شؤون الخيل عند قريش فى الحرب، و (المشورة) و هو منصب مهمته اسداء النصيحة و المشورة و قد كان هذا المنصب فى بنى اسد فلم تكن قريش تجتمع على امر حتى يعرضوه على بنى اسد، و (السفارة) فى القيام بالاتصال بين قريش و غيرهم من القبائل اذا وقعت حرب او تطلب الأمر الى مذاكرة و صلح، و (الايسار) و هى الازلام التى كانوا يستقسمون بها للاستخارة بما يشبه سحب القرعة، و كان يتولى ذلك رجل من بنى جمح، و (الحكومة) و هى التى تحكم بين الناس اذا اختلفوا، و (الاموال) المحجرة و هى الأموال التى كانت تخص آلهتهم من النقد و الحلى و السلاح و هى ما تشبه (بيت المال) فى الاسلام، و كانت ولايتها فى بنى سهم، و (العمارة) و يراد بها ان لا يتكلم احد فى المسجد

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۴۴

الحرام بهجر و لا رفث و لا يرفع صوته على ما وصف به العقد الفريد، و يمكن ان يوصف صاحبها بالمسؤول او المحافظ على حرمة البيت .

و يعلق جرجى زيدان على هذه المناصب فيقول ان بعض هذه المناصب لا اهمية لها على الاطلاق و لكن يظهر انهم قد اكثروها ليرضوا كل بطون قريش خوفا من التحاسد و إجلالا لقدر الكعبة و المبالغة فى تعظيمها، و ترى انهم جمعوا بها بين السياسة و الدين و الادارة و الحرب و لكنهم اقتسموها فيما بينهم بما يشبه الجمهورية، او هو نوع من الحكومة لا ترى له شبيها بين الامم المتمدنة، و ربما اشهت الحكومة الشورية بعض الوجوه الا ان للشورى، رئيسا كالملك او السلطان او رئيس الجمهورية، و ليس فى هذه شىء من ذلك الا ما قد يكون لصاحب (دار الندوة) او السدانة من الرياسة .

و كان لهذا الحكم و نظامه شىء غير قليل من الامتياز، و اليه يرجع الكثير من الأسباب التى جعلت من مكة مدينة عامرة ذات امجاد و شهرة انفردت بها بهن جميع المدن العربية قبل الاسلام ثروة، و جاها، و حرية، و أمنا، و حربا.

اصحاب الفيل

ان قصة اصحاب الفيل هى قصة ابرهة الأشرم الذى سار بجيش جرار من الأحباش مستخدما الفيلة ناويا هدم بيت اللّه الحرام و قد هزم

اللبائل العربية التى اعترضته و هو فى طريقه الى مكة حتى وقعت به و بجيشه النكبة عند ابواب مكة و التى تحدثت الروايات عنها بمختلف الأحاديث، و تفشت على اثرها الحصبة و الجدرى فى حيش ابرهة و هى امراض قيل انها عرفت فى بلاد العرب لأول مرة فى ذلك التاريخ و داهمهم السيل فألقى بهم فى البحر و رجع ابرهة ناكصا على عقبيه و قد وقع الدمار بمن بقى من الجيش

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۴۵

حتى صار عبرة للمعتبرين اذ جاء فى محكم كتاب اللّه:

«أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحابِ الْفِيلِ؟».

إن قصة ابرهة هذه قد رفعت قدر مكة خصوصا حين وجدوا عبد المطلب و هو رئيس مكة و عظيمها يطمئن قريشا بأن للبيت ربّا سيحميه. فلما ردّ اللّه تعالى الحبشة عن مكة و اصابهم بما أصابهم به من النقمة عظمّت العرب شأن قريش و قالوا: «اهل اللّه قاتل اللّه عنهم، و اكفاهم مؤونة عدوهم» .

و سبب زحف ابرهة كما يروى الرواة هو ان ابرهة الاشرم احد قواد النجاشى الحبشى العظام لما فتح اليمن بنى كنيسة كبيرة فيها اراد بها ان يصرف العرب عن حج مكة اليها، فتغوط بعض العرب فيها فى غفلة من الناس تحقيرا لها و يقول الطوسى فى تفسيره بل هدّم البعض فى غفلة من القوم جانبا منها بقصد الاهانة فعزم ابرهة ان يسير الى مكة فيهدمها انتقاما فكان الذى كان من الدمار الذى لحق بجيشه.

و فى طير الابابيل و صفته و حمله الحجارة بمنقاره و كيفية مهاجمة هذا الطير جيش ابرهة اختلاف فى التفاسير و الروايات.

و يقول فريد و جدى: اما الروايات فى اشكال هذه الطيور فكثيرة و كثرتها تدل على انه لا يوجد نص صحيح فى ذلك عن النبى صلى اللّه عليه و آله، فقيل انها كانت طيرا خرجت من البحر و اختلفوا فى لونها فقيل كانت بيضاء، و قيل سوداء، و قيل خضراء لها خراطيم كخراطيم الطير و اكف كأكفّ الكلاب الى غير ذلك من الروايات المختلفة «و قد يذهب بعض علماء العصر الى ان هذه الطيور عبارة عن الميكروبات حملت اليهم الطاعون او البعوض و قد حمل اليهم الحميّات الخبيثة، او ميكروبات الجدرى

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۴۶

و ليس فى الآية ما يمنع هذا المعنى فيتفق المنقول و المعقول،- و يقول فريد و جدى و نحن نميل الى هذا الرأى و نؤيده، لا سيما و ليس من مانع لغوى و لا علمى يمنع من ان يريد بالطير المكاريب، و كثيرا ما يتفشى الطاعون فى الجيوش فيردها على اعقابها خاسرة، فهذا نابليون الاول لما حاصر (عكا) و لبث أشهرا اصاب جيشه الطاعون فكان سبب رفعه الحصار عنها و رجع لمصر راضيا من الغنيمة بالاياب و اصابه مثل ذلك فى محاربته لروسيا فى موسكو فكان الوباء و البرد اشد عليه من كل ما لقيه من جيوش الروس فرجع و لا جندى معه و هلك عسكره برمته» .

و يروى احمد بن ابى يعقوب المتوفى سنة ۲۹۲ رواية تفيد علماء العصر فى استخلاص ما يرون استخلاصه مما يتفق و اراءهم عن انكسار جيش (ابرهة) و هلاكه فيقول: ان الرعب قد داخل ابرهة و غشيه الذعر حينما خرج اليه زعيم مكة الكبير عبد المطلب طالبا منه ان يعيد له أبله التى استحوذ عليها أبرهة فى مرعاها خارج مكة و كانت نحو مائتى بعير فتعجب ابرهة و قال انه كان يتوقع ان يكون طلبه منحصرا فى حفظ البيت من هدمه اياه لا رد ابله اليه، فقال له عبد المطلب و بكل وثوق و اطمئنان: «ان للبيت ربا يحميه» ثم يقول احمد ابن ابى يعقوب:

«فلما انصرف عبد المطلب من عند ابرهة جمع ولده، و من معه، ثم جاء الى باب الكعبة فتعلق به، ثم انصرف و اقام بموضعه، فلما كان من غد بعث ابنه عبد اللّه (ابا محمد بن عبد اللّه النبى) ليأتيه بالخبر، و دنا و قد اجتمعت اليه من قريش جماعة ليقاتلوا معه ان امكنهم ذلك، فانى عبد اللّه على فرس شقراء يركض و قد جردت ركبته، فقال عبد المطلب: قد جاءكم عبد اللّه بشيرا و نذيرا، و اللّه ما رأيت ركبته قط قبل هذا اليوم فاخبرهم بما صنع اللّه باصحاب الفيل» .

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۴۷

و لم يزد اليعقوبى و هو من اقدم مؤرخى الاسلام و من اقرب المؤرخين الى ذلك العهد، انه لم يزد شيئا على ذلك و لم يأت بذكر عن طير الابابيل و صفتها، اما الشيخ محمد عبده فقد اورد فى تفسيره لجزء (عم) قوله:

«عندما اقترب (ابرهة) من مكة فزع اهلها و انطلقوا الى شعب الجبال ينتظرون ما هو فاعل رغم ما اكده لهم رسله من انه لم يأت لحربهم و انما اتى لهدم البيت، اى الكعبة، و فى اليوم التالى فشا فى جند ابرهة داء الجدرى و الحصبة، و كانت هذه اول مرة يظهر فيها الجدرى ببلاد العرب كما قال عكرمة، و كما يقول يعقوب بن عبثه من ان (اول ما رؤيت الحصبة و الجدرى ببلاد العرب ذلك العام) لقد فعل ذلك الوباء باجسام الحبشى و جنده ما يندر وقوع مثله، فكان لحمهم يتناثر و يتساقط فذعر الجيش و صاحبه و ولوا هاربين، و اصيب الحبشى و لم يزل يسقط لحمه قطعة قطعة و انملة و انملة حتى انصدع صدره و مات فى صنعاء».

و لا يستبعد بعد ذلك الشيخ محمد عبده ان يكون طير الابابيل من الحشرات كالذباب و البعوض الذى يحمل جراثيم بعض الامراض و قد علق به من الطين اليابس الملوث بالمكروب.

و كيفما كان الامر فليس هنالك من شك ان (ابرهة) قد غزا مكة بالافيال محاولا هدمها و قد ردّ مقهورا، و وقع فى جيشه الوباء و البلاء، فاضافت قصة انهزام اصحاب الفيل هذه، الى عظمة مكة عظمة اخرى، و اضفت عليها شيئا كثيرا من الهيبة و الجلال و العظمة.

اسواق مكة

و كان لا بد للتجارة ان تتسع فتتسع اسواقها بمكة، فسكان مكة كانوا اكثر ارتيادا للاسواق الخارجية و كانت لهم اتصالات واسعة باهم الاسواق المشهوره حتى لقد اصبحت مكة سنين طويلة معرضا لا نفس البضائع و اغلاها

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۴۸

و هذا من اهم العوامل التى زادت قيمة مكة و زادت ثراءها خصوصا فى ايام قريش الذين كانوا يعتمدون التجارة فى حياتهم و كانت طرق التجارة خطرة الا عليهم لحفظ العرب حرمتهم لانهم ولاة الكعبة، و كانوا كثيرا ما يسافرون الى بلاد فارس او الى الشام او اليمن، فيأتون من اليمن بالبرد و المنسوجات اليمنية الفاخرة، و يأتون من الشام بالاطعمة، و يأتون من فارس بالشمع و الستر و غير ذلك، و لما كانت البلاد العربية قد عرفت بالخيول الجيدة فلا يبعد ان تكون قريش قد تاجرت بها مع ما تاجرت به من البضائع و خصوصا الجلود و الاموال التجارية و كانت لهؤلاء التجار من قريش رحلتان رحلة الشتاء و هى التى تدفع بهم الى الجنوب من بلاد اليمن، و رحلة الصيف و هى التى يؤمون بها الشام، و فى موسم معين تعرض قريش و تعرض كل القبائل ما لديها من البضائع و المنتوج فى هذا السوق، و كانت للعرب اسواق كثيرة فى مختلف بقاع جزيرة العرب و لكن اسواق مكة كانت اهم جميع تلك الاسواق و اوسعها و اكثرها جمعا للقبائل بل اوسعها غاية.

و من اهم اسواق مكة سوق (عكاظ)، و سوق عكاظ و ان كانت اقرب الى الطائف منها الى مكة لوقوعها فى واد بينه و بين مكة ثلاث ليال بينما لا تبعد عن الطائف الا ليلة واحدة فقد تعتبر سوقا تخص مكة من حيث الافادة، و يقول ابن منظور: سمى عكاظ عكاظا لان العرب كانت تجتمع فيه فيعكظ بعضهم بعضا بالفخار اى يدعكه و كان العرب يتوافدون الى هذه السوق بجميع ما لديهم فى موسم معين، و من اشهر ما عرفت به عكاظ هو الأديم الكاظمى و هو ما يحمل الى عكاظ و يباع فيها حتى اذا انتهوا من عروض تجارتهم و سائر اغراضهم، و قفوا فى (عرفه) ثم قصدوا مكة فقضوا فيها مناسك الحج ثم انصرفوا الى مواطنهم.

و تجاوزت سوق عكاظ حدود التجارة و اتخذت منها قريش منتدى

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۴۹

منتدى لمطارحة الشعر و الخطب و عرض الخلاف بين القبائل على المحكومين، و كان لعكاظ ايام الموسم رجل يولونه الحكومة

للفصل فی ما قد یقع من الخلاف او نحوه، و کان الغالب ان یکون ذلک الحاکم من بنی تمیم و کان احدهم الأقرع بن حابس التمیمی.

و توسعت اغراض سوق عکاظ فکانت مسرحا عاما یخطب فیها کل خطیب مصقع، و منهم کان قس بن ساعدة، الایادی إذ خطب خطبته الشهیرة هناک و هو علی جمله و کان کل شریف انما یحضر سوق بلده الا سوق عکاظ فانهم کانوا یتوافدون الیها من کل جهة فکانت تأتیها قریش، و هوازن:

و بنو سلیم، و الاحابیش، و عقیل، و المصطلق، و طوائف من العرب، و من کان له اسیر سعی فی فدائه، و من کانت له حکومة ارتفع الی الذی یقوم بأمر الحکومة اما متی اتخذت سوقا فیحددها فرید وجدی بسنة ۵۴۰ للمیلاد .

و قضایا عکاظ و ایام عکاظ مشحونة بأخبار الحروب و التفاخر و الشعر و من اطرف ما ورد فی بلوغ الأرب ان طریف بن تمیم العنبری کان من مشاهیر شجعان العرب و فرسانهم و قد قتل مرة رجلا من بنی شیبان ثم حضر موسما من مواسم عکاظ فرآه احد اقارب ذلک القتیل و صار یمعن النظر فی وجه طریف، فسأله طریف عن سبب امعانه فقال: ارید ان اعرفک فلعلی اصادفک یوما لأقتلک او تقتلنی، و من الغرائب انه قد صادف

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۵۰

ذلک الرجل طریفا ذات یوم و قتله و اخذ بثأر قریبه.

و افادت قریش من سوق عکاظ فوائد اخری غیر الفوائد الاقتصادیة و الاجتماعیة فلقد کان لهذه السوق العظیمة تأثیر کبیر فی تهذیب اللغة العربیة عند قریش فکانت قریش لقرب هذه السوق منها اسبق القبائل لالتقاط کل معنی حسن، و لفظ جزل و عبارة بلیغة فنسب الیها التهذیب الأخیر للغة حتی استأهلت الشرف العظیم بنزول القرآن الکریم بلغتها، و اعتبرت لهجتها اخلص لهجات العرب من التعقید و التنافر .

و قد بلغ من اهمیة مکة و الاهتمام بالکعبة ان اختارت العرب سبع قصائد من اجود الشعر و کتبتها بماء الذهب و علقتها بأستار الکعبة تکریما لشعرائها الذین فضلهم العرب علی غیرهم، و هذا وحده کاف للدلالة علی علی ما کان لمکة من اهمیة فی جمیع النواحی من الحکم و الادارة و الاقتصاد و الادب و لیس لمخالفة البعض من المؤرخین فی صحة روایة المعلقات المسماة بالمعلقات السبع، من اهمیة فی تقلیل شأن مکة الأدبی.

و یورد جرجی زیدان نقلا عن ابن خلدون قوله:

یقول ابن خلدون «حتی انتهوا- ای العرب- الی المناغاة فی تعلیق اشعارهم بأرکان البیت الحرام موضع حجهم، و بیت ابراهیم کما فعل امرؤ القیس بن حجر، و النابغة الذبیانی، و زهیر بن ابی سلمی، و عنترة بن شداد، و طرفة بن العبد، و علقمة بن عبدة، و الاعشی، و غیرهم من اصحاب المعلقات السبع» .

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۵۱

و یقول البغدادی فی الخزانة (الجزء الأول صفحة ۶۱) ان العرب کانت فی الجاهلیة یقول الرجل منهم الشعر فی أقصی الأرض فلا یعبأ به، و لا ینشده احد، حتی یأتی مکة فی موسم الحج فیعرض علی اندیة قریش فاذا استحسنوه روی و کان فخرا لقائله، و علق علی رکن من ارکان الکعبة حتی ینظر الیه، و ان لم یستحسنوه طرح و لم یعبأ به، و قیل بل کان الملک اذ استجیدت قصیدة یقول: علقوا لنا هذه لتکون فی خزانته، و هذا القول ینفی انها کانت تعلق فی الکعبة علی ان هذه المعلقات سمیت ایضا السبع الطوال، و سمیت السموط، و سمیت المذهبات کما سمیت سبع قصائد غیرها المذهبات فی (جمهرة أشعار العرب) و حتی اصحاب المعلقات مختلف فی احصائهم ... امرؤ القیس، طرفة، زهیر، لبید، عمرو بن کلثوم، و هؤلاء متفق علیهم، و عنترة، و الحارث بن حلزة، او النابغة الذبیانی، و الأعشی میمون، ثم عبید بن الابرص، و لهذا تجد کتبا اسمها (المعلقات العشر) و مما یذکر ان حمادا الراویة هو الذی جمعها، او ان بعض بنی

امية أمر من اختار له سبعة أشعار فسماها المعلقات .

و كيفما كان الامر فان حضور العرب اسواق مكـة و قراءة الشـعر على قريش أكان قد تم تعليق الجيد منه فى الكعبة او لم يتم قد ساعد على رفع قيمة مكة و شأنها فى نظر جميع العرب قاصيها و دانيها.

و من اهم اسواق مكة بعد ذلك (سوق ذى المجاز) و كانت بناحية (عرفة) و سوق (مجنّة) و هى فى موضع بقرب مكة.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۵۲

و قد افادت مكة من هذه الأسواق فوائد كبيرة عامها جعلت لها الزعامة الكبرى بين جميع المدن العربية كما جعلت لقريش ميزة كبرى بين جميع القبائل.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۵۳

ديانة مكة و عبادتها

لم تعرف مكـة دينا غير دين ابراهيم فى اول عهـدها بالـدين اذ المفروض ان يكون تأسيس مكة متعلقا بتأسيس البيت، فقبل تأسيس البيت لم تكن مكة اكثر من ممرّ للقبائل يمرون بها لوقوعها فى وسط الطريق بين اقصى شـمال الجزيرة و بين اقصى جنوبها فحين بنى ابراهيم البيت و دعا الى التوحيد و نهج ابنه اسـماعيل نهجه آمن به اكثر من سمع دعوته فكانت الحنيفية التى عرف بها ابراهيم هى اول مـا اعتنقت مكـة من دين فكـانوا يعتقـدون ان اللّه واحـد، و هـو خـالق الخلـق وحـده لاـ شـريك له. و كـانوا يحجون البيت و يقيمون المناسـك، و يعظمون الأشـهر الحرم، و ينكرون الفواحش و التقـاطع و التظـالم فلم يزالوا على ذلـك مـا كانوا ولاة على البيت، و كان آخر من قام بولايـة البيت الحرام من ولد معد هو ثعلبة بن اياد بن نزار بن معد، فلما خرجت اياد و ليت خزاعة حجابة البيت. و فى امرة عمرو بن لحى الـذى تولى حجابـة البيت تغير ما كان عليه الأمر فى المناسك و اتجهت العبادة اتجاها آخر و دخلت الاصـنام لأول مرة مكة على اساس كونها و سائط مقدسة بين

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۵۴

اللّه و بين عباده، فالدعوات و القرابين و التوسلات يجب ان تقدم لها.

و قصة دخول الأصـنام الى مكة لأول مرة و عبادة اللّه عن طريقها يختلف فى روايتها الراوون، و يقول البعض ان عمرو بن لحى هذا قد مرض فوصـفوا له الاغتسال فى عين من العيون بالبقاء من ربوع الشام و قالوا له اذا اتيتها برأت من المرض، و قصدها عمر و اسـتحم بها و كان من نتيجـة ذلك أن برىء و فى مكوثه هناك رأى اهل هذه البقعة يعبدون الأصـنام فسألهم عنها فقالوا هذه أرباب نتخذها لنا و نستنصـر بهـا فننصـر، و نستسـقى بها فنسـقى، و كل من سألها يعطى فطلب منهم صـنما يـدعونه (هنبل) فسار به إلى مكـة و نصـبه على الكعبـة، و دعا الناس الى تعظيمه و عبادته ففعلوا ذلك و هناك من يقول ان (هبل) هـذا قـد جاء به عمرو بن هيث و قلـد بعض العرب اهل مكة فى عبادة الأصـنام فاتخذت كل قبيلة لها صـنما و حين تم فتح مكة من قبل النبى محمد (ص) كان عدد الأصنام حول الكعبة ثلثمايـة و ستين صـنما، و كان اشـهر هـذه الأصـنام بعـد (هبل) الـذى يعـد اكبر اصـنام العرب هو (أساف) و (نائلـة) و فى اصل هـذين الصنمين مزاعم لا يركن اليها.

فكان الطائف اذا طاف بـدأ (باساف) ثم (بنائلـة) و ختم بهما فكان هـذا عاملا آخر فى عظمـة مكة و جعلها مطمح انظار العرب جميعا بحيث صاروا ملزمين بأن يتوجهوا بقلوبهم لاصنام الكعبة و حجهم الهياكل عام من كل صوب و حدب، و لكل قوم و قبيلة تلبية خاصة بهم، و كانت تلبية قريش:

(لبيك اللهم لبيك لا شريك لك، تملكه و ما ملك) .

على ان سـكان مكة كانوا يقدسون الى جانب تقديس اصنامهم بمكة صم (اللات) بالطائف و سموا باسمه زيد اللات، و تيم اللات، و

ضنم (العزى) و هو بواد من نخلة الشامية فى طريق العراق من مكة، و سموا

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۵۵

باسمه عبد العزى بن كعب، و صم (مناة) و كان منصوبا على ساحل البحر بناحية (المشلل) بين مكة و المدينة و قد سمت العرب باسمه: عبد مناة، و زيد مناة.

و هذه كانت أعظم الأصنام عند قريش، و كانت تطوف بالكعبة و تقول:

و اللات، و العزّى، و مناة الثالثة الأخرى، فانهن الغرانيق العلى و ان شفاعتهن لترتجى» .

و كانت العرب تقدم مكة و تهدى الهدى للاصنام و تضحى، و تدعو و تنذر، و تستقسم.

و يبدو لمن يسبر التاريخ و يستعرض الحوادث ان مكة لم تكن كلها على هذا النحو و انما بقى هناك على دين ابراهيم عدد و ان قل فان فيهم الزعيم و الشخصية المرموقة من ذوى الصولة و الجاه و من هؤلاء كان عبد المطلب على ما يروى البعض.

الاستقسام و الازلام

و الاستقسام هو طلب القسم الذى قسّم للمرء و قدّر مما لم يقسم و لم يقدّر، و الازلام سهام كانت لأهل الجاهلية مكتوب على بعضها: أمرنى ربى، و على بعضها نهانى ربى و على الآخر غفل فاذا اراد الرجل سفرا أو أمرا ضرب تلك القداح (السهام) فان خرج السهم الذى عليه: أمرنى ربى، مضى لحاجته، و ان خرج الذى عليه: نهانى ربى، لم يمض فى أمره و ان خرج الغفل عاد فأجالها و ضرب بها اخرى الى ان يخرج (الامر) او (النهى) .

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۵۶

و كانت العرب تستقسم بالازلام اى (القداح) فلا يكون لها حاجة من الحاجات من زواج و سفر و استكشاف حال الا رجعت الى القداح، و كان لهم امناء على القداح لا يثقون بغيرهم، على ان البعض يقامر بالقداح و هو ما يسمى بالميسر (القمار) و ليس له بالقداح الذى يستقسم به من صلة.

و يقول ابن جرير و اذا اريد الاستقسام بالازلام جاؤوا الى (هبل) و هبل هذا قائم على بئر فى جوف الكعبة، و هذه البئر هى التى يجمع فيها ما يهدى للكعبة، و كان عند هبل سبعة (اقدح) كل قدح منها فيه كتاب، قدح فيه العقل و ذلك اذا اختلفوا فى العقل و من يحمله منهم ضربوا بالقداح السبعة، و قدح فيه (نعم) فاذا ارادوه ضربوا به فان خرج قدح (نعم) عملوا به، و قدح فيه (لا) فاذا ارادوا امرا ضربوا به فى القداح فاذا خرج ذلك القدح لم يفعلوا ذلك الامر، و قدح فيه (منكم)، و قدح فيه (ملصق) و قدح فيه (من غيركم)، و قدح فيه (المياه) فاذا ارادوا ان يحفروا للماء ضربوا بالقداح و فيها قدح (المياه) فحيثما خرج عملوا به، و كانوا اذا ارادوا ان يختنوا غلاما او يتزوجوا، او يدفنوا ميتا او شكوا فى نسب احد منهم ذهبوا به الى (هبل) و بمائة درهم و جزور و أعطوها صاحب القداح الذى يضربها ثم قربوا صاحبهم الذى يريدون به ما يريدون ثم قالوا: «يا إلهنا هذا فلان بن فلان قد اردنا به كذا و كذا فأخرج الحق فيه» ثم يقولون لصاحب القداح اضرب، فيضرب، فان خرج عليه (منكم) كان وسيطا و ان خرج عليه (من غيركم) كان حليفا، و ان خرج عليه (ملصق) كان على منزلته منهم لا نسب له، و لا حلف، و ان خرج فى شىء سوى هذا مما يعملون به (نعم) عملوا به، و ان خرج (لا) أخرّوه عامهم ذلك حتى يأتوا به مرة اخرى و ينتهوا فى امورهم الى ذلك .

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۵۷

نذر عبد المطلب

و المنقول عن عبد المطلب حين لقى بعض الأذى من قريش عند حفره (زمزم) نذر لئن ولد له عشرة نفر و بلغوا اشدهم بحيث يستطيع

ان يستعين بهم و يمنعوه لينحرن احدهم للّه عند الكعبة فلما ولد له عشرة بنين و عرف انهم سيمنعونه جمعهم و اخبرهم بنذره الذى نذر و دعاهم الى الوفاء للّه فأطاعوه، و قالوا كيف نصنع؟ قال يأخذ كل رجل منكم قدحا ثم يكتب فيه اسمه، فجيء بالقداح فضربوا بها فظهرت باسم (عبد اللّه) أبى النبى محمد (ص) و كان اصغرهم، و أحبهم الى أبيه، فأخذه ليذبحه فقامت قريش فى وجهه و قالت: و اللّه لا تذبحه ابدا حتى تعذر فيه، فلئن فعلت هذا فلا يزال الرجل يأتى بابنه حتى يذبحه، فما بقاء الناس على هذا و وجدت قريش حلا بأن يقدموا عشرا من الابل كفدية و يضربوا عليها بالقداح فان خرجت على عبد اللّه (فليزيدوها عشرا عشرا حتى تخرج القداح على الابل و بذلك نرضى اللّه عنه، و هكذا فعل عبد المطلب و نحر مائة من الابل و تركها للناس طعاما، و منذ ذلك اليوم صارت الدية من الابل على ما سن عبد المطلب .

و هكذا نجد مكة قد اصبحت كل شيء فى كيان العرب قبل الاسلام لأنها منذ وجدت شغلت المحل الأسمى فى الروايات ان الكعبة سرة الارض و قد صوها المصور المسلم مركزا لدائرة يحيط بها جميع اقطار العالم معينا لكل قطر قبيلة منها (نقلا عن كتاب لز آراب لا للعرب بالفرنسية)

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۵۸

من تاريخ العرب، من حيث الدين، و اللغة، و طريقة الحكم و الصولة، و الثروة.

اشهر امراء مكة و عظماوها

نابت و قيدار- من ابناء اسماعيل.

مضاض بن عمرو الجرهمى، الحارث، عمرو بن الحارث، مضاض ابن عمرو بن الحارث من جرهم.

لحى بن حارثة الخزاعى، عمرو بن لحى، من خزاعة.

قصى بن كلاب، عبد مناف، عبد الدار، هاشم، عبد المطلب ابو طالب من قريش.

كسوة الكعبة و تزيينها

يقال ان اول من كسا الكعبة هو (تبّع) و قد مرّ بمكة فأخبر بفضلها و شرفها و كانت الكعبة غير مسقفة فكساها (تبّع) الخصف، و هى حصر من خوص النخل، ثم كساها بعد ذلك (الانطاع) و هو بساط من الجلد ثم كساها (المعافر) و المعافر: ثياب يمانية تنسب إلى قبيلة من همدان يقال لها المعافر و جعل لها بابا يغلق، و روى الأزرقى ان الكعبة كانت تكسى

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۵۹

فى الجاهلية كسى شتى من خز، و حبرة، و انماط فتكسى منه الكعبة و يجعل ما بقى فى خزانة الكعبة فاذا بلى منها شيء أخلف عليها مكانه ثوب آخر، و لا ينزع مما عليها شيء من ذلك و كان يهدى اليها خلوق و مجمر، و كانت تطيّب بذلك فى بطنها و من خارجها .

و كانت قريش فى الجاهلية تفرض كسوة الكعبة على القبائل و تجمع أثمانها منهم على قدر احتمالهم، و قد جرى ذلك فى عهد قصى بن كلاب حتى نشأ ابو ربيعة المغيرة بن عبد اللّه بن مخزوم و كان مثريا فقال لقريش انا اكسو الكعبة وحدى سنة و تكسو قريش كلها سنة، فكان يأتى بالحبرة الثمينة من اليمن فيكسوها فسمّته قريش العدل لأن فعله عدل بفعل قريش كلها و يقال لأولاده بنو العدل، و ظل يكسو الكعبة حتى مات .

و كان أوّل من حلى البيت هو عبد المطلب لما حفر بئر زمزم و اصاب فيه من دفن (جرهم) غزالين من ذهب فضربهما فى باب الكعبة .

تجديد بناء الكعبة

و فى أواخر حكم قريش بمكة داهم السيل الكعبة، و كان من القوة بحيث هدمها كما فعل ذلك فى أيام جرهم و كان هذا اهم شىء فى مكة و عند سكانها لان عظمة مكة كلها مدينة للبيت و طقوسه و حرمته عند العرب، فاجتمعت قريش و تشاورت فيما بينها و اجمعت أمرها على تجديد بناء الكعبة و احكامها و كان ذلك قبل مبعث النبى بخمس سنوات، و كان البحر على ما روى المؤرخون قد رمى بسفينة (بجدة) فتحطّمت فأخذوا أخشابها و استعانوا به على عمارتها، و يقول الحموى: و كان بمكّة رجل قبطى نجّار فسوى لهم ذلك و بنوها ثمانية عشر ذراعا، فلما انتهوا الى موضع (الركن) اختصموا،

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۶۰

و اراد كل قوم ان يكونوا هم الذين يضعون الحجر فى موضعه من الركن، و تفاقم الأمر بينهم حتى تواعدوا للقتال، ثم تحاجزوا و تناصفوا على ان يجعلوا بينهم اول طالع يطلع من باب المسجد حكما ليقضى بينهم فيما يرى و يكون بحكمه الفصل، فخرج عليهم محمد بن عبد اللّه (ص) و كان يومذاك فى نحو الخامسة و الثلاثين و لم يعلن نبوّته بعد، فاحتكموا اليه فقال لهم:

هلمّوا ثوبا، فأتى به، فوضع الحجر فيه ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ليرفعوا، حتى اذا رفعوه الى موضعه اخذ النبى الحجر بيده فوضعه فى الركن العراقى خارج الكعبة على ارتفاع دون القامة ليتسنى لمسه للمتبركين و هو الركن القريب من مقام ابراهيم و زمزم فرضوا بذلك و انهوا عن الشرور، و رفعوا باب الكعبة عن الأرض مخافة السيل، و ان لا يدخل فيها الا من أحبوا، و بقوا على ذلك الى ايام عبد اللّه بن الزبير.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۶۱

قبائل مكة قبل الاسلام

اشارة

كتبه الدكتور حسين امين استاذ التاريخ الاسلامى المساعد و مقرر دائرة التاريخ و الآثار بجامعة بغداد و الحائز على درجة دكتوراه الشرف الاولى من جامعة الاسكندرية

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۶۳

القبائل التى سكنت مكة قبل الاسلام

العمالقة

ان عددا من رواة التأريخ يقولون أن العمالقة هم أول من استوطن مكة و نسبوهم الى عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح ، بينما نجد ابن خلدون ينسبهم الى عمليق بن ارفخشد بن سام بن نوح ، و الأبحاث العلمية التأريخية تؤكد ان العماليق كانوا يسكنون جنوبى فلسطين، و يظهر انهم كانوا يتحكمون فى طرق التجارة بين غزة و أيلة (ايلات) أى العقبة المؤدية الى مصر ، و قد جرت بين العبرانيين و العمالقة حروب شديدة .

و تبدو أخبار العمالقة، مضطربة فى مصادر التأريخ، مما يجعلنا متحفظين فى قبول اكثر اخبار رواتها، و اقدم تلك الأخبار العربية تقول: ان ابراهيم (ع) لما اسكن اسماعيل مكة مع أمه هاجر و ابتهل الى خالقه قائلا: رَبَّنا

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۶۴

إِنِّی أَسْکَنْتُ مِنْ ذُرِّیَّتِی بِوادٍ غَیْرِ ذِی زَرْعٍ عِنْدَ بَیْتِکَ الْمُحَرَّمِ، رَبَّنا لِیُقِیمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِی إِلَیْهِمْ وَ ارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ یَشْکُرُونَ » و کان موضع البیت ربوة حمراء، أمر ابراهیم هاجر ان تتخذ علیه عریشا یکون لها مسکنا، و کان من ظمأ اسماعیل و هاجر ما کان إلی ان أنبع اللّه لهما (زمزم)، و أقحط الشحر و الیمن، فتفرق العمالیق و جرهم فی البلاد، و من هناک من بقایا عاد، فبقیت العمالیق نحو تهامة یطلبون الماء و المرعی و الدار الخصیبة، و علیهم (السمیدع بن هود بن لابی بن قنطور ابن کرکر بن حیدان) فلما أمعنت بنو کرکر فی المسیر. و قد عدمت المأوی و المرعی، و اشتد بها الجهد، أقبل السمیدع بن هود، یحثهم علی السیر فی شعر له:

سیروا بنی الکرر فی البلادإنی أری ذا الدهر فی فساد

قد سار من قحطان ذی الرشادجرهم لمّا هدها التعادی

فأشرف روادهم علی الوادی، فنظروا الطیر ترتفع و تنخفض، فهبطوا الوادی و نظروا الی العریش علی الربوة الحمراء، و فیها هاجر و اسماعیل، و قد زمّت حول الماء بالاحجار و منعته من الجریان، فسلم الرواد علیها، و استأذنوها فی نزولهم و شربهم من الماء، فأنست الیهم، و أذنت لهم فی النزول، فتلقوا من کان وراءهم من اهلیهم، و اخبروهم خبر الماء فنزلوا الوادی مطمئنین، مستبشرین بالماء .

و یبدو ان الاخباریین تأثروا بالتوراة فأوردوا اخبارا عن العمالقة الذین اعتبروهم اول من سکن مکة و ذکروا او صافا عدیدة عن اجسامهم و طولهم و عن ابنیتهم و قدمهم و قصصا عن احوالهم و حروبهم .

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۶۵

و یعتقد الاخباریون ان قبیلة (جرهم) التی کانت علی عهد العمالقة من العرب البائدة، و قد سموا بجرهم الأولی ، و ان نسبهم یعود الی (عابر)، و ان هؤلاء ابیدوا علی ایدی القحطانیین.

جرهم

و جرهم الثانیة هی قبیلة قدمت الی موقع مکة من الیمن، و هی تنتسب الی القحطانیة، و القبائل القحطانیة بالنسبة الی قحطان بن عابر بن شالخ ابن ارفخشر بن سام بن نوح ، و یذکر بعض المؤرخین ان (یعرب) تولی الملک بعد (قحطان) و کان ملکه بالیمن، و قد غلب بقایا (عاد) و استعان باخوته فی حکم البلاد فأقر اخاه (حضر موت) علی البلاد التی عرفت باسمه فقیل لها (حضر موت) و عین (عمان) علی ارض عمان، و ولی جرهما علی الحجاز .

و تذکر الروایات التاریخیة ان اسماعیل تزوج من جرهم و بلغتهم تکلم، قال الازرقی: فکانت (أی هاجر أم اسماعیل) معهم (أی قبیلة جرهم) هی و ابنها حتی ترعرع الغلام و نفسوا فیه و اعجبهم، و توفیت أم اسماعیل، و طعامهم الصید یخرجون من الحرم و یخرج معهم اسماعیل فیصید فلما بلغ، أنکحوه جاریة منهم تدعی (عمارة بنت سعید بن اسامة) الی آخر ما ورد من اخبار زواج اسماعیل فی صدر هذا الجزء من الموسوعة.

و الاخبار العربیة تشیر الی ان قبیلة جرهم حکمت الحجاز و کانت قائمة علی الکعبة و اشتهر منهم رجال کان لهم شأن فی التاریخ، منهم الحارث

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۶۶

ابن مضاض الجرهمی، و کان مقیما فی الحجاز تابعا لیمن، و فی ایامه نشطت حرکة بنی اسرائیل و زحفوا یریدون مکة، من الشمال، فقاتلهم الحارث بن مضاض فهزمهم و استولی علی تابوت من الکتب کانوا یحملونه، و فیه ما انتحلوه علی الزبور، و الحارث بن مضاض هو الذی یقال انه خرج من بلاده یجول فی الأرض، زمنا طویلا، و ضربت الأمثال باغترابه.

و یذکر المسعودی: إنه اول من تولی أمر البیت بمکة من بنی جرهم، و کان ینزل فی الموضع المعروف بقعیقعان، و کان کل من

دخل مكة بتجارة عشّرها عليه، و ذلك فى اعلى مكة، و ملك العماليق (السميدع بن هود بن حدر ابن مازن بن لاى بن قنطورا) و كان ينزل (اجياد) من اسفل مكة، و كان يعشّر من دخل مكة من ناحيته، و كانت بينهما حروب، فخرج الحارث ابن مضاض ملك جرهم تتقعقع معه الرماح و الدرق، فسمى الموقع بقعيقعان، و خرج السميدع ملك العماليق و معه الجياد من الخيل فعرف الموضع بأجياد .

و من رجال جرهم عمرو بن الحارث بن مضاض الجرهمى، تولى مكة بعد خروج أبيه منها، و كذلك نفيلة بن عبد المدان .

و نستدل من الحصيلة الشعرية ان قبيلة جرهم كانت لها ولاية البيت، قول عمرو بن الحارث بن مضاض الاصغر الجرهمى:-

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفاأنيس و لم يسمر بمكة سامر

الى آخر ما ورد من الأبيات.

و قال عمرو بن الحارث بن مضاض الجرهمى: -

و كنا ولاة البيت و القاطن الذىإليه يؤدى نذره كل محرم

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۶۷ سكنا بها قبل الظباء وراثةلها عن بنى هىّ بن بنت بن جرهم

و يبدو ان خزاعة وجدت الفرصة سانحة للسيطرة على ما تسيطر عليه قبيلة جرهم، و وردت بعض الأخبار التاريخية التى تشير الى ان قبيلة جرهم بغوا بمكة و استحلوا خلالا من الحرمة، فظلموا من دخلها من غير أهلها، و أكلوا مال الكعبة الذى يهدى لها، فرّق أمرهم، فلما رأت بنو بكر بن عبد مناة بن كنانة، و غبشان من خزاعة ذلك، اجمعوا لحربهم و إخراجهم من مكة. فآذنوهم بالحرب فاقتتلوا، فغلبتهم بنو بكر و غبشان، فنفوهم من مكة.

و كان لتلك الوقعة على ما تشير الاخبار التأريخية أثرها الكبير فى انحسار نفوذ جرهم، و يذكر ابن هشام؛ قال ابن اسحاق: فخرج عمرو بن الحارث ابن مضاض الجرهمى بغزالى الكعبة و بحجر الركن، فدفنها فى زمزم، و انطلق هو و من معه من جرهم الى اليمن، فحزنوا على ما فارقوا من امر مكة و ملكها حزنا شديدا، فقال عمرو بن الحارث الجرهمى قولته المشهورة المتقدمة من الشعر:

و قائلة و الدمع سكب مبادرو قد شرقت بالدمع منها المحاجر

خزاعة

و تولت خزاعة أمر البيت الحرام، و خزاعة من عرب الجنوب، و هى فرع من قبيلة الأزد العربية الكبيرة ، و معظم النسابة ينسبون هذه القبيلة الى عمرو بن لحىّ بن حارثة بن عمرو بن مزيقياء، و يذكر المسعودى ان سبب تسميتهم (خزاعة): انه لما خرج عمرو بن عامر و ولده من مأرب،

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۶۸

انخزع بنو ربيعة، فنزلوا تهامة، فسموا خزاعة لا نخزاعهم .

و يعتقد ان ورود خزاعة كان فى القرن الخامس الميلادى على وجه التقريب . و تلقب رجال خزاعة الذين سيطروا على مكة بألقاب الملوك و صاروا يتوارثون النفوذ كابرا عن كابر.

و عبدت خزاعة اصناما كثيرة من اهمها، العزى و هبل و إساف و نائلة ، و عظمت هذه القبيلة الصنم مناة .

و يعتقد الاخباريون ان اول من نصب الأوثان هو عمرو بن ربيعة، و هو لحى بن حارثة بن عمرو بن عامر الأزدى، ابو خزاعة. و يعتبر أول من غير دين اسماعيل «فنصب الأوثان و سيب السائبة، و وصل الوصيلة، و بحر البحيرة و حمى الحامى» .

و كان آخر حكام قبيلة خزاعة حليل بن حبشية بن سلول بن كعب بن عمرو ، و خطب قصى بن كلاب ابنته حبىّ فرغب فيه حليل فزوجه، فولدت له عبد الدار و عبد مناف و عبد العزى و عبدا .

و يبدو ان حليل بن حبشية، كبرت به السن فكان اذا إعتلّ اعطى مفتاح البيت الى ابنته حبىّ ففتحته فإذا اعتلت اعطت المفتاح زوجها

قصيّا او بعض ولدها ففتحه. و لما شعر حليل بن حبشية بدنو اجله نظر الى قصى و الى ما انتشر له من الولد من ابنته فرأى ان يجعلها فى ولد ابنته، فدعا قصيا فجعل له ولاية البيت، و اسلم إليه المفتاح و كان يكون عند حبّى،

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۶۹

فلما هلك حليل أبت خزاعة أن تدعه ذاك، و أخذوا المفتاح من حبّى فمشى قصى الى رجال من قومه من قريش و بنى كنانة و دعاهم الى ان يقوموا معه فى ذلك و ان ينصروه و يعضدوه فأجابوه الى نصره. و ارسل قصىّ الى اخيه لأمه (رزاح بن ربيعة) و هو ببلاد قومه من قضاعة يدعوه الى نصره و يعلمه ما حالت خزاعة بينه و بين ولاية البيت و يسأله الخروج إليه بمن اجاب من قومه، فقام رزاح بن ربيعة فى قومه فأجابوه الى ذلك، فخرج رزاح و معه اخوته من ابيه، حنّ، و محمودة، و جلهمة بنو ربيعة بن حرام فيمن تبعهم من قضاعة فى حاجّ العرب مجتمعين لنصرة قصى و القيام معه، فلما اجتمع الناس بمكة خرجوا الى الحجّ فوقفوا بعرفة و بجمع و نزلوا منى، و قصى مجمع على ما اجمع عليه من قتالهم، بمن معه من قريش، و بنى كنانة، و من قدم عليه مع اخيه رزاح من قضاعة، فلما كان آخر أيام منى ارسلت قضاعة الى خزاعة يسألونهم ان يسلموا الى قصى ما جعل له حليل، و عظموا عليهم القتال فى الحرم، و حذروهم الظلم و البغى بمكة و ذكروهم بما كانت فيه جرهم و ما وصلت إليه حين الحدوا فيه بالظلم و البغى، فأبت خزاعة أن تسلم ذلك فاقتتلوا بمفضى مأزمى منى، و سمى ذلك المكان (المفجر) لما فجر فيه و سفك فيه من الدماء، و انتهك من حرمته، فاقتتلوا قتالا شديدا حتى كثرت القتلى فى الفريقين جميعا و فشت فيهم الجراحات و حاج العرب جميعا من مضر و اليمن مستكفون ينظرون الى قتالهم ثم تداعوا الى الصلح، و دخلت قبائل العرب بينهم، و عظموا على الفريقين سفك الدماء و الفجور فى الحرم، فاصطلحوا على ان يحكموا بينهم رجلا- من العرب فيما اختلفوا فيه فحكموا (يعمر بن عوف بن كعب بن عامر بن الليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة) و كان رجلا شريفا، فقال لهم: موعدكم فناء الكعبة غدا. فاجتمع إليه الناس، و عدوا القتلى فكانت

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۷۰

فى خزاعة اكثر منها فى قريش و قضاعة و كنانة. فلما اجتمع الناس بفناء الكعبة قام (يعمر بن عوف) فقال: الا انى قد شدخت ما كان بينكم من دم تحت قدمى هاتين فلا تباعة لاحد على احد فى دم و انى قد حكمت لقصى بحجابة الكعبة و ولاية امر مكة دون خزاعة، لما جعل له حليل و ان يخلى بينه و بين ذلك و ان لا تخرج خزاعة عن مساكنها من مكة، فسلمت ذلك خزاعة لقصى و عظموا سفك الدماء فى الحرم و افترق الناس فولى قصى بن كلاب حجابة الكعبة و امر مكة و جمع قومه من قريش من منازلهم الى مكة يستعزيهم و تملك على قومه فملكوه.

قريش

و هكذا سيطرت قريش على مكة و استحوذ قصى بن كلاب اول زعماء قريش على الامور فى تلك المدينة، و هو قصى بن كلاب بن مرة بن كعب ابن لؤى بن فهر، و أمه فاطمة بنت سعد بن سيل. و يذكر بعض المؤرخين ان قصيا اشترى ولاية البيت من ابى غيشان بزق خمر و عود ، و يذكر بعض الرواة ان هذا الشراء حصل فى ايام ملك الحيرة «المنذر بن النعمان» .

و تعتبر قريش من القبائل العدنانية، و اختلف فى معنى كلمة قريش، يقول الفيروزأبادى: يقرشه و يقرشه قطعه و جمعه من ههنا و ههنا و ضم بعضه الى بعض و منه قريش لتجمّعهم الى الحرم أو لأنهم كانوا يتقرشون البياعات فيشترونها، أو لأن النضر بن كنانة اجتمع فى ثوبه يوما فقالوا تقرّش أو لأنه جاء الى قومه فقالوا كأنه جمل قريش أى شديدا و لأن قصيا كان يقال له القرش، او لأنهم كانوا يفتشون الحاج فيسدون خلتها، او سميت بمصغر القرش و هو دابة بحرية تخافها دواب البحر كلها، او سميت

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۷۱

بقريش بن مخلد بن غالب بن فهر و كان صاحب عيرهم فكانوا يقولون قدمت عير قريش و خرجت عير قريش .

و يبدو ان الفيرزآبادى متأثر برأى المؤرخ الطبرى الذى يقول: و سميت قريش قريشا بقريش بن يخلد بن الحارث بن يخلد بن النضر بن كنانة، و به سميت قريش قريشا لأن عير بنى النضر كانت إذا قدمت قالت العرب قد جاءت عير قريش، قالوا و كان قريش هذا دليل بنى النضر فى اسفارهم و صاحب ميرتهم، و كان له ابن يسمى بدرا و قال ابن الكلبى انما قريش جماع نسب ليس بأب و لا أم و لا حاضن و لا حاضنه، و قال آخرون انما سمى بنو النضر بن كنانة قريشا لأن النضر بن كنانة خرج يوما على نادى قومه فقال بعضهم لبعض انظروا النضر كأنه جمل قريش. و قيل انما سميت قريش قريشا بدابة تكون فى البحر تدعى القرش، فشبه بنو النضر بن كنانة بها لأنها اعظم دواب البحر قوة، و قيل ان النضر بن كنانة كان يقرش عن حاجة الناس فيسدها بماله، و القرش فيما زعموا التفتيش، و كان بنوه يقرشون اهل الموسم عن الحاجة فيسدونها بما يبلغهم، و قيل ان النضر بن كنانة كان اسمه قريشا، و قيل بل لم تزل بنو النضر بن كنانة يدعون بنى النضر حتى جمعهم قصى بن كلاب فقيل لهم قريش من اجل ان التجمع هو التقرش، فقالت العرب: تقرش بنو النضر أى قد تجمعوا، و عن محمد بن سعد:

سميت قريش قريشا حتى اجتمعت إلى الحرم من تفرقها فذلك التجمع التقرش. قال عبد الملك ما سمعت هذا و لكن سمعت أن قصيا كان يقال له القرشى، و لم يسم قرشى قبله .

تلك هى الآراء التى قدمها المؤرخ الطبرى، و لعل أقرب الآراء للبحث العلمى ان اسم قريش من (القرش) و هو حيوان بحرى، و أن البحث العلمى فى المستقل قد يتوصل الى معلومات قيمة عن أصالة هذه القبيلة و صلتها

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۷۲

الوثيقة بهذا الحيوان الذى ارتبطت به و التفت حوله ليكون حاميها و المدافع عنها، و هذا الموضوع معروف عند علماء الاجتماع بمبدأ الطوطمية Totemism و هو عبارة عن اعتقاد جماعة من الناس بوجود صلة لهم بحيوان ما، تقدم له الاحترام و لا تجيز صيده او ذبحه، و يرى بعض العلماء انه ليس من الضرورى ان تقوم القبيلة بعبادة الحيوان و لكنها تشعر بروابط دموية بين افرادها اى بوجود صلة رحم بينها، و الرابط بينها هو ذلك الطوطم الذى تنتمى الجماعة إليه و تلتف حوله ليكون حاميها و المدافع عنها فى الملمات .

و يعتبر قصى بن كلاب اول رئيس وردت اخباره التأريخية و أنه هو الذى لمّ شعث قومه، و جمعهم من الاودية و الشعاب و الجبال الى مكة، و ابتنى دار الندوة و جعل بابها الى البيت، ففيها كان يكون أمر قريش كله، و كانت إليه الحجابة و السقاية و الرفادة و اللواء و الندوة و حكم مكة كله و كان يعشر من دخل مكة سوى اهلها كما ان قصيا بعد ان تمكن من مكة حفر بها بئرا اسماها (العجول) و هى اول بئر حفرتها قريش ، و ادخل قصى بطون قريش كلها الأبطح، فسموا قريش البطاح، و اقام بنو معيص بن عامر بن لؤى و بنو تيم الأدوم بن غالب بن فهر و بنو محارب بن فهر و بنو الحارث بن فهر، بظهر مكة فهؤلاء الظواهر لأنهم لم يهبطوا مع قصى الى الأبطح فهم مع المطيّبين اهل البطاح، و قد قال الشاعر فى ذلك و هو ذكوان مولى عمر بن الخطاب للضحاك بن قيس الفهرى حين ضربه:

فلو شهدتنى من قريش عصابةقريش البطاح لا قريش الظواهر

و تذكر المراجع ان قصى بن كلاب لما كبر ورقّ و كان عبد الدار بكره موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۷۳

و اكبر ولده، فأعطاه دار الندوة و حجابة البيت و اللواء و السقاية و الرفادة.

و يرى بعض المؤرخين ان قصيا عمل ذلك لأنه رأى ضعف ولده عبد الدار و ان عبد مناف كان قد ساد فى حياة ابيه فأراد قصى تقويته بتلك الامتيازات التى اسبغها على عبد الدار . و يورد الأزرقى رواية اخرى فيذكر ان قصى اجمع على ان يقسم امور مكة الستة التى فيها الذكر، و الشرف، و العز، بين ابنيه فأعطى عبد الدار السدانة و هى الحجابة، و دار الندوة، و اللواء، و اعطى عبد مناف السقاية، و الرفادة، و القيادة . و يذكر ابن الأثير:

ان قبيلة قريش تفرقت، فكانت طائفة مع بنى عبد مناف و طائفة مع بنى عبد الدار، فكان بنو اسد بن عبد العزى، و بنو زهرة بن كلاب، و بنو تميم بن مرة، و بنو الحارث بن فهر مع بنى عبد مناف، و كان بنو مخزوم و بنو سهم و بنو جمح و بنو عدى مع بنى عبد الدار

فتحالف كل قوم حلفا مؤكدا، و أخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيبا فوضعوها عند الكعبة و تحالفوا و جعلوا ايديهم فى الطيب، فسموا المطيبين، و تعاقد بنو عبد الدار و من معهم و تحالفوا فسموا الأحلاف، و تبعوا للقتال ثم تداعوا الى الصلح على ان يعطوا بنى عبد مناف السقاية و الرفادة، فرضوا بذلك، و تحاجز الناس عن الحرب، و اقترعوا عليها فصارت لهاشم بن عبد مناف، ثم بعده للمطلب بن عبد مناف ثم لابن طالب بن عبد المطلب .

ان قريش سيطرت على الطرق التجارية و استغلت ضعف الاسطول البيزنطى بسبب الحروب الفارسية البيزنطية، و تحولت التجارة من البحر الى البر نتيجة لذلك، و قد برع القريشيون فى التجارة، و قد اشار القرآن الكريم الى تجارتهم فى قوله تعالى: (لايلاف قريش، ايلافهم رحلة الشتاء و الصيف)، و يبدو ان القريشيين استغلوا ايضا الوضع السيىء الذى آلت

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۷۴

إليه اليمن نتيجة انهيارها السياسى بدخول الأحباش إليها، و صار رجال قريش يهيمنون على التجارة العربية و قاموا بدور الوساطة التجارية، و تنقلت قوافلهم الى بلاد الشام و اليمن، و اصبحت مكة من اهم المراكز الاقتصادية فى العالم قبل ظهور الاسلام.

و كانت مواسم الحج اياما تزدهر فيها التجارة، فالعرب يقصدون الكعبة من كل مكان، و يجلبون معهم ما يشاؤون من السلع، و ينشط التجار القريشيون فى ذلك الموسم و تعود عليهم الأرباح بشكل و فير. كما كانت تخرج لقريش القوافل الكبيرة للتجارة يشرف عليها احد كبار رجالات مكة امثال ابن العاص بن الربيع العبشمى ، زوج السيدة زينب ابنة الرسول محمد (ص) و كان يخرج الى الشام بتجارة قريش، و كان رجلا مأمونا، يخرج بماله و مال و أموال رجال من قريش أبضعوها معه، و أبى سفيان صخر بن حرب الذى كان يقود قافلة كبيرة لقريش و بسببها وقعت موقعة بدر فى السنة الثانية للهجرة. و كانت وسيلة النقل التجارى لقريش هى الجمال و انها استخدمت عناصر سودانية و حبشية و غير هما من شرقى افريقيا لحراسة القوافل و تحميل الجمال و تفريغها و اطعامها، و قد عرفت تلك العناصر بالأحابيش.

ان قريش المتحكمة فى مكة تعتبر نفسها هى الحامية للأصنام و الاوثان و من اشهر الأصنام التى عبدتها قريش و عظمتها، (هبل) الذى كان من اعظم تلك الآلهة ، و كان مصنوعا من عقيق أحمر على صورة الانسان مكسور اليد اليمنى، ادركته قريش فجعلوا له يدا من ذهب . و (العزى) و كانت قريش تزورها و تهدى إليها و يتقربون إليها بالذبح. كما كانت قريش تخص (اللات) بالاعظام و الاكبار.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۷۵

اقسام قريش

و قبيلة قريش قسمان، قريش الظواهر و قريش البطاح، و قريش الظواهر، تلك التى سكنت فى ظاهر مكة، و هم بنو بغيض بن عامر بن لؤى، و بنو الأدوم بن غالب بن فهر، و بنو محارب بن فهر، و كان هؤلاء يعيشون عيشة البداوة، لم يتعودوا حياة الاستقرار، و كثيرا ما قامت بينهم الغارات.

اما قريش البطاح فهى التى سكنت حول الحرم، و استحوذ رجالها على جميع الوظائف فى مكة، و كانت بيدها التجارة و كل المرافق الاقتصادية، و تميزت بالغنى و الثروة و بحياة الاستقرار و صلاتها المختلفة مع البلدان كالشام و العراق و اليمن و الحبشة.

و قبائل قريش البطاح هى: بنو عبد الدار، و بنو عبد مناف، و بنو عبد قصى، و بنو زهرة بن كلاب، و بنو تيم بن مرة و بنو مخزوم بن يقظة و بنو سهم، و بنو جمح، و بنو عدى بن كعب، و بنو حسل بن عامر بن لؤى، و بنو هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر، و بنو هلال بن مالك بن ضبة بن الحارث بن فهر، و بنو هاشم بن عبد مناف و بنو المطلب ابن عبد مناف، و بنو الحارث بن عبد مناف و بنو أمية بن عبد شمس، و بنو نوفل بن عبد مناف، و بنو الحارث بن فهر.

و من زعماء قريش المشهورين، قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى سيد قريش و زعيمها الأول، مات ابوه و هو طفل فتزوجت

امه من ربيعة ابن حرام بن ضنّة بن عبد بن كبير، بن عذرة بن سعد بن زيد أحد قضاعة فاحتملها الى بلاده من ارض عذرة من اشراف الشام الى سرغ و ما دونها،

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۷۶

و كان قصى فطيما، و سمى قصيا لتقصيها به الشام، و ولدت امه لربيعة ولدا سمى (رزاحا) و كان قصى ينسب الى ربيعة بن حرام، فناضل يوما رجلا من قضاعة يدعى رقيعا، و هو من عذرة، فنضله قصى فغضب المنضول، فوقع بينهما شر حتى تقاولا و تنازعا، فقال رقيع:- ألا تلحق ببلدك و قومك، فانك لست منا. فرجع قصى الى امه فقال: من أبى؟

فقال: أبوك ربيعة. قال: لو كنت ابنه ما نفيت. قالت: أو قد قال هذا؟

فو اللّه ما أحسن الجوار، و لا- حفظ الحق، أنت و اللّه يا بنى اكرم منه نفسا و والدا و نسبا و اشرف منزلا، أبوك كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة القرشى، و قومك بمكة عند البيت الحرام فما حوله؛ قال: فو اللّه لا أقيم ههنا ابدا. قالت: فأقم حتى يجيء إبّان الحج فتخرج فى حاجّ العرب، فانى أخشى عليك ان يصيبك بعض الناس، فأقام فلما حضر ذلك بعثته مع قوم من قضاعة، فقدم مكة، و زهرة أخوه يومئذ حى، و كان أشعر و قصى اشعر ايضا، فأتاه، فقال له قصى:- أنا اخوك، فقال زهرة: أدن منى، و كان قد ذهب بصره و كبر، فلمسه فقال: اعرف و اللّه الصوت و الشبه، فلما فرغ من الحج عالجه القضاعيون على الخروج معهم و الرجوع الى بلادهم، فأبى و أقام بمكة .

و يبدو ان قصى بن كلاب كان رجلا جلدا بعيد النظر و طموحا، و انه خطب الى حليل بن حبشية بن سلول الخزاعى، ابنته حبّى- كما ترى-، فرغب فيه حليل و زوّجه، فولدت له عبد الدار، و عبد مناف، و عبد العزى، و عبد قصى، و كان حليل بن حبشية يلى الكعبة و آمر مكة، و كان حليل إذا إعتلى اعطى إبنته مفتاح الكعبة، ففتحت ابواب البيت، فاذا اعتلت اعطت المفتاح زوجها قصيا او بعض ولدها ففتحه، و لما حضرت حليلا الوفاة نظر إلى قصى و الى ما انتشر له من الولد من ابنته

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۷۷

فرأى ان يجعلها فى ولد ابنته فدعا قصيا فجعل له ولاية البيت و اسلم إليه المفتاح ، و هكذا اصبحت الزعامة الى قصى و آل اليه الأمر فى مكة كما قد أشرنا الى ذلك من قبل.

و جعل قصى لولده عبد الدار، الحجابة و الندوة و السقاية و الرفادة و اللواء، و الحجابة و هى حجابة الكعبة، و الندوة و هى مجلس قريش و معقد اجتماعهم، و فيها تقرر الحروب و تعقد المحالفات السياسية و الاقتصادية و ترسم سير القوافل التجارية و اتجاهاتها و غيرها من الأمور المهمة، و الرفادة و هى خرج تخرجه قريش فى كل موسم من اموالها الى قصى بن كلاب فيصنع منه طعاما للحجاج يأكله الفقراء، و السقاية، و هى سقاية الحاج، و اللواء، راية قريش، و كان قصى هو الذى يعقد لقريش ألويتهم.

و جرى نزاع بين أبناء عبد الدار و ابناء عبد مناف، فقد اراد ابناء عبد مناف انتزاع المراتب الشرفية التى كانت لعبد الدار و ابنائه، فانقسمت قريش أحلافا، و نحر بنو عبد الدار و انصارهم جزورا، و غمسوا ايديهم فى دمه، متعاهدين، و لعق أحدهم من ذلك الدم، و تابعه من كان معه، فسموا الاحلاف و لعقة الدم، و اخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيبا، فوضعوها عند الكعبة، و تحالفوا، و جعلوا ايديهم فى الطيب، فسموا بالمطيبين، و استعدوا للقتال، ثم اصطلحوا على ان تكون لبنى عبد مناف السقاية و الرفادة، و لبنى عبد الدار اللواء و الحجابة .

بنو عبد مناف

و بنو عبد مناف، ينتسبون الى عبد مناف، و قيل ان اسمه المغيرة، لقبه، و ذكر ابن سعد عن هشام بن محمد بن السائب الكلبى عن ابيه قال:

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۷۸

لما هلك قصى بن كلاب، قام عبد مناف بن قصى على أمر قصى بعده، و أمر قريش إليه، و اختط بمكة رباعا بعد الذى كان قصى قطع لقومه، و على عبد مناف اقتصر رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلم، حتى أنزل اللّه تبارك و تعالى عليه (وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) .

و ولد عبد مناف بن قصى ستة نفر، و ست نسوة، المطلب بن عبد مناف، و كان اكبرهم، و هو الذى عقد الحلف لقريش من النجاشىّ فى متجرها الى ارضه، و هاشم بن عبد مناف، و عبد شمس بن عبد مناف، و تماضر بنت عبد مناف و حنّة، و قلابة، و برّة، و هالة، بنات عبد مناف و أمهم عاتكة الكبرى بنت مرة بن هلال بن فالج، بن ثعلبة، بن ذكوان، ابن ثعلبة، بن بهثة، بن سليم، بن منصور، بن عكزمة بن خصفة، ابن قيس، بن عيلان، بن مضر، و نوفل بن عبد مناف، و هو الذى عقد الحلف لقريش من كسرى الى العراق، و ابا عمرو بن عبد مناف، و ابا عبيد درج، و امهم واقدة بنت أبى عدىّ، و ريطة بنت عبد مناف .

بنو هاشم

و بنو هاشم، و ينتسبون الى هاشم، اكبر اولاد عبد مناف، و قد انتهت إليه السيادة فى مكة، و ذكر ان اسمه (عمرو) و كنيته (ابو نضله) و انما قيل له هاشم لأنه اول من هشم الثريد لقومه بمكة و أطعمه . و امتاز هاشم بقوة الشخصية و سعة النفوذ، و هو الذى حفر عدة آبار فى مكة مثل بئر (سجلة) و هى البئر التى يقال لها بئر جبير بن مطعم فى و بئر (بذر) و قال حين حفرها لأجعلنها للناس بلاغا و هى البئر التى حقّ المقوّم ابن عبد المطلب فى ظهر دار الطلوب مولاة زبيدة بالبطحاء

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۷۹

و هاشم اول من سنّ الرحلتين لقريش، للتجارة، رحلة الشتاء الى اليمن و الحبشة، و رحلة الصيف الى غزة و بلاد الشام و ربما بلغ أنقرة، فيدخل على قيصر فيكرمه و يحبوه فأصابت قريشا سنوات ذهبن بالأموال .

و هو الذى اخذ الحلف من قيصر لقريش على ان تأتى الشام و تعود منها آمنة.

و كان احد الأجواد الذين ضرب بهم المثل فى الكرم، و قد ذكر انه خرج مرة الى الشام فأمر بخبز كثير فخبز له، فحمله فى الغرائر على الابل حتى وافى مكة، فهشم ذلك الخبز و شرده و نحر تلك الابل، ثم أمر الطهاة فطبخوا، ثم كفأ القدور على الجفان ، فأشبع اهل مكة، فكان ذلك اول الحيا بعد السنة التى أصابتهم فسمى بذلك هاشما و فى ذلك قال عبد اللّه بن الزّبعرى:-

عمرو العلى هشم الثريد لقومهو رجال مكة مسنتون عجاف

و قد مر ذكره فى صدر هذا الجزء

و يبدو أن ما أصاب هاشما من علو المكانة و سمو المجد، اثار حسد أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى، و كان ذا مال، فتكلف أن يصنع صنيع هاشم فعجز عنه، فشمت به ناس من قريش فغضب، و نال من هاشم و دعاه الى المنافرة، فكره هاشم ذلك لسنه و قدره، فلم تدعه قريش و أحفظوه، قال هاشم: فانى انافرك على خمسين ناقة سود الحدق تنحرها ببطن مكة، و الجلاء عن مكة عشر سنين، فرضى أمية بن عبد شمس بذلك، و جعلا بينهما الكاهن الخزاعى و هو جد عمرو بن الحمق و منزله بعسفان ، و قد قضى الكاهن لهاشم بالغلبة، فأخذ هاشم الابل فنحرها

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۸۰

و اطعمها من حضره، و خرج امية الى الشام فأقام بها عشر سنين، فكانت هذه اول عداوة وقعت بين هاشم و امية .

و فى ايام هاشم حصل النزاع بين بنى عبد مناف و بنى عبد الدار من اجل السيطرة على المراتب التى استحوذت عليها بنو عبد الدار، و قد بينا فيما سبق ما آل اليه ذلك النزاع حيث اصبحت السقاية و الرفادة لبنى عبد مناف، و احتفظ بنو عبد الدار باللواء و الحجابة و دار

الندوة . و دار الندوة ملك خاص لبنى عبد الدار توارثوها حتى آلت الى عكرمة بن عامر بن هاشم ابن عبد مناف بن عبد الدار بن قصى، من معاوية بن أبى سفيان فجعلها دار الامارة ، و قيل ان دار الندوة صارت الى حكيم بن حزام بن خويلد ابن اسد بن عبد العزى بن قصى، فباعها من معاوية بن ابى سفيان بماية الف درهم، فلامه معاوية على ذلك و قال: بعت مكرمة آبائك و شرفهم، فقال حكيم: ذهبت المكارم إلّا التقوى، و اللّه لقد اشتريتها فى الجاهلية بزق خمر و قد بعتها بماية الف درهم، و اشهدكم ان ثمنها فى سبيل اللّه تعالى فأين المغبون؟ و قال ابن الكلبى: دار الندوة اول دار بنت قريش بمكة و انتقلت بعد موت قصى الى ولده الأكبر عبد الدار.

و ولد هاشم بن عبد مناف اربعة نفر و خمس نسوة، شيبة الحمد و هو عبد المطلب، و كان سيد قريش حتى هلك، و رقية، ماتت و هى جارية لم تبرز و امها سلمى بنت عمرو بن زيد بن لبيد بن خداش بن عامر بن غنم ابن عدى بن النجار. و أبا صيفى بن هاشم، و اسمه عمرو و هو اكبرهم.

و صيفيا، و امهما هند بنت عمرو بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن سالم بن غنم بن عوف بن الخزرج، و اسد بن هاشم، و امه قيلة بنت عامر بن مالك

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۸۱

ابن جذيمة من خزاعة، و نضله بن هاشم. و الشفاء. و رقية و امهم أميمة بنت عدى بن عبد اللّه بن دينار بن مالك من قضاعة، و الضعيفة بنت هاشم و خالدة بنت هاشم، و امها ام عبد اللّه واقدة بنت أبى عدى. و حنة بنت هاشم، و امها عدىّ بنت حبيّب بن الحارث بن مالك بن حطيط بن جشم ابن قسى و هو ثقيف .

و فى حدود ۵۲۴ م وفد هاشم بن عبد مناف على الشام فى تجارة له، فمرض فى طريقه إليها، فتحول الى غزة فمات فيها .

اصحاب الايلاف

و من اولاد مناف، نوفل بن عبد مناف، و هو من اصحاب الايلاف، قال ابن حبيب: اصحاب الايلاف الذين رفع اللّه بهم قريشا، و نعش فقراءها، هاشم، و عبد شمس، و المطلب، و نوفل، بنو عبد مناف . و كل من هؤلاء كان رئيس من يخرج معه ممن يتجر فى وجهته، و اشتهر من اولاده، عدى، و عامر، و عمرو، و عبد عمرو، و يبدو ان نوفل كانت تجارته الى العراق، و فى احدى رحلاته التجارية توفى فى مكان يعرف (بالسلمان) و هو ماء قديم جاهلى فى الطريق الى تهامة من العراق ، و قد مات نوفل قبل اخيه المطلب .

و من بنى عبد مناف، عبد شمس بن عبد مناف بن قصى، و كان هذا هو الآخر من اصحاب الايلاف، و كان متجره الى بلاد الحبشة ، و له من الولد، أمية، و حبيب، و عبد أمية، و نوفل، و ربيعة، و عبد العزى، و عبد اللّه. و توفى عبد شمس فى مكة.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۸۲

و من بنى عبد مناف، المطلب بن عبد مناف بن قصى، و كان اكبر من هاشم و من عبد شمس، و هو الذى عقد الحلف لقريش من النجاشى فى متجرها، و كان شريفا فى قومه مطاعا سيدا، و كانت قريش تسميه الفيض لسماحته، فولى بعد هشام السقاية و الرفادة، و خرج مرة بتجارة الى ارض اليمن فتوفى بردمان من بلاد اليمن .

عبد المطلب و بنوه

و تولى الرفادة و السقاية بعد وفاة المطلب بن عبد مناف، عبد المطلب ابن هاشم، و كان اسمه شيبة، و هو الذى حفر زمزم، و كان يحمل الماء من زمزم الى عرفة فيسقى الحاج، و من أبرز الحوادث التى حصلت فى زمن عبد المطلب، حملة الأحباش الكبيرة على مكة، و كان فى مقدمة جيش الحبشة فيل كبير، و يقود تلك الحملة القائد الحبشى (ابرهة) و قد هلك معظم جيش الأحباش نتيجة و

باء و بيل اكتسح ذلك الجيش و مزق صفوفه، و قد اشار القرآن الكريم الى تلك الحادثة فى قوله تعالى: «أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحابِ الْفِيلِ، أَ لَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ، وَ أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبابِيلَ، تَرْمِيهِمْ بِحِجارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ، فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ» و بذلك انقذت مكة و ذهب عن اهلها الخوف.

و ولد عبد المطلب بن هاشم اثنى عشر رجلا وستّ نسوة، الحارث و هو اكبر ولده و به كان يكنى و مات فى حياة ابيه، و امه صفيّة بنت جنيدب بن حجير بن زيّاب بن حبيب بن سواءه بن عامر بن صعصعة، و عبد اللّه أبا رسول اللّه صلى اللّه عليه و علم، و الزبير و كان شاعرا شريفا، و إليه أوصى عبد المطلب، و ابا طالب و اسمه عبد مناف، و عبد الكعبة مات و لم يعقب، و أمّ حكيم و هى البيضاء، و عاتكة، و برّة، و اميمة،

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۸۳

و اروى، و امهم فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم بن يقظة ابن مرة بن كعب بن لؤى، و حمزة و هو اسد اللّه و اسد رسوله، شهد بدرا و استشهد يوم احد، و المقوّم، و حجلا و اسمه المغيرة، و صفية و امهم هالة بنت و هيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، و العبّاس و كان شريفا عاقلا مهيبا، و ضرارا و كان من فتيان قريش جمالا و سخاء، و مات أيام أوحى اللّه الى النبى صلى اللّه عليه و سلم، و لا عقب له، و قثم بن عبد المطلب لا عقب له، و ابا لهب بن عبد المطلب و اسمه عبد العزى و يكنى ابا عتبة، كنّاه عبد المطلب ابا لهب لحسنه و جماله، و كان جوادا، و الغيداق بن عبد المطلب و اسمه مصعب .

و توفى عبد المطلب بمكة سنة ۵۷۹ م بعد ان عاش نحوا من ثمانين عاما.

و ذكر ان وفاته كانت سنة تسع من عام الفيل و للنبى (ص) يومئذ ثمانى سنين، و قيل: بل توفى عبد المطلب و هو ابن ثلاث سنين .

بطون قريش

و قريش القبيلة الكبيرة فى مكة، تتألف من بطون أخرى كثيرة منها:

بنو أسد و هم ابناء اسد بن عبد العزى بن قصى، و هم حى كبير من قريش، و كانت تلبية بنى اسد فى الجاهلية إذا حجوا: (لبيك اللهم لبيك، يا رب أقبلت بنو أسد اهل التوانى و الوفاء و الجلد، إليك.) و يعتقد ان لا عقب لعبد العزى إلّا من أسد . و من مشاهير هذه القبيلة فى الجاهلية عثمان بن الحويرث بن اسد بن عبد العزى، و ورقة بن نوفل بن أسد، و من مشاهيرها فى الاسلام السيدة الجليلة خديجة بنت خويلد بن اسد بن عبد العزى، ام المؤمنين عليها السلام، و حكيم بن حزام بن خويلد بن اسد

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۸۴

ابن عبد العزى، ابو خالد و هو ابن اخى السيدة خديجة عليها السلام، و كان من سادات قريش فى الجاهلية و الاسلام، و قد اسلم يوم الفتح، و كان من أصدقاء النبى (ص) و كان من المؤلفة و شهد حنينا و أعطى من غنائمها مائة بعير ثم حسن اسلامه، قال الزبير: جاء الاسلام و فى يد حكيم ابن حزام الرفادة و كان يفعل المعروف و يصل الرحم، و قيل انه عاش مائة و عشرين سنة شطرها فى الجاهلية و شطرها فى الاسلام . و من المشهورين فى هذه القبيلة الزبير بن العوام بن خويلد الأسدى و هو من المسلمين الأولين و شهد بدرا و أحدا و قتل سنة ۳۶ ه بوادى السباع على بعد سبعة فراسخ من البصرة.

بنو جمح

و بنو جمح، و هم اولاد جمح بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤى ابن غالب بن فهر بن مالك بن النضر ، و كان له من الولد حذافة و سعد، و من بنى سعد بن جمح، ابو محذورة و قيل ان اسمه أوس بن معير بن لوذان بن ربيعة بن عريج بن سعد بن جمح،

مؤذن الرسول (ص) .

و اخوه انيس بن أنيس بن مغير، قتل يوم بدر كافرا، و من بنى حذافة ابن جمح، أمية بن خلف و أخوه أبى بن خلف، و كانا من المشركين، و كلدة بن أسيد بن خلف بن حذافة بن جمح، الذى انزل فيه (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِی کَبَدٍ) و جميل بن معمر بن حبيب بن وهب الذى انزل فيه (ما جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِی جَوْفِهِ) على احد الاقوال .

بنو تيم

و بنو تيم، و هم أبناء تيم بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۸۵

ابن مالك بن النضر، و من مشاهير هذه القبيلة ابو بكر، عبد اللّه بن ابى قحافة عثمان بن عامر بن كعب، اول الخلفاء الراشدين و المتوفى سنة ۱۳ ه، و طلحة بن عبيد اللّه بن عثمان، و كان من رجال الشورى الذين عينهم الخليفة عمر بن الخطاب (ر ض)، و قتل فى معركة الجمل سنة ۳۶ ه

بنو خزيمة

و بنو خزيمة، و هم ابناء خزيمة بن مدركة بن الياس، من مضر، و كنيته ابو اسد، و هو الذى نصب (هبل) على الكعبة، و كان يقال له: هبل خزيمة، و من ابنائه، عضل بن الهون بن خزيمة بن مدركة، اختلط بنوه ببنى اخ له اسمه «الديش» و سموا (القارة) لاجتماعهم و التفافهم، و يذكر القسطلانى: ان القارة بطن من الهون ينسبون الى الديش المذكور ، و يعتقد البعض الآخر ان الهون، و عضل، و القارة، اخوة الهزيل ، بينما يرى فريق آخر ان الهون، و عضل، حيان فى نهاية العداوة لرسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم . و هم على ما يظهر بنو زهرة فى الجاهلية . و من مشاهير هذه القبيلة عبد الرحمن بن عبد القارى، و هو من ولد القارة بن الديش، من التابعين الأجلاء فى المدينة و علمائهم، و كان على بيت المال للخليفة عمر بن الخطاب (ر ض) ، و روى عن عمر بن الخطاب، و روى عنه عروة بن الزبير و حميد بن عبد الرحمن . و اشتهر بنو القارة بإجادة الرمى و فيهم المثل، و هو من رجز لأحدهم:- «قد انصف القارة من راماها»

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۸۶

و يورد ابو الفرج الأصفهانى، قصة و قد عضل، و القارة، و قدومهم على الرسول (ص) و غدرهم بعدد من الصحابة، قال ابو الفرج:- قدم على رسول اللّه (ص) بعد أحد رهط من عضل و القارة، فقالوا: يا رسول اللّه، ان فينا اسلاما و خيرا، فابعث معنا من اصحابك، يفقهونا فى الدين، و يقرئونا القرآن، و يعلمونا شرائع الاسلام، فبعث رسول اللّه (ص) معهم نفرا ستة من أصحابه: مرثد بن ابى مرثد الغنوى، حليف حمزة بن عبد المطلب، و خالد بن البكير، حليف بنى عدى بن كعب، و عاصم بن ثابت بن أبى الأقلح اخا بنى عمرو بن عوف، و خبيب بن عدى اخا بنى جحجبن بن كلفة بن عمرو بن عوف، و زيد بن الدّثنّة، اخا بنى بياضة بن عامر، و عبد اللّه بن طارق حليفا لبنى ظفر من بلىّ، و أمّر رسول اللّه (ص) عليهم مرثد بن أبى مرثد، فخرجوا مع القوم، حتى إذا كانوا على الرجيع غدروا بهم و استصرخوا عليهم هذيلا فلم يرع القوم و هم فى رحالهم إلّا بالرجال و فى ايديهم السيوف قد غشوهم، فأخذوا اسيافهم ليقاتلوا القوم، فقالوا: إنا و اللّه ما نريد قتلكم و لكنا نريد ان نصيب بكم شيئا من اهل مكة، و لكم عهد اللّه و ميثاقه ألا نقتلكم.

فأمّا مرثد بن أبى مرثد، و خالد بن البكير، و عاصم بن ثابت بن أبى الأقلح، فقالوا: إنا و اللّه لا نقبل من مشرك عهدا و لا عقدا ابدا. فقاتلوهم حتى قتلوهم جميعا. و اما زيد بن الدّثنّة و خبيب بن عدى، و عبد اللّه ابن طارق فلانوا و رقوا و رغبوا فى الحياة و أعطوا

بأيديهم، فأسروهم، ثم خرجوا بهم إلى مكة ليبيعوهم بها، حتى إذا كانوا بالظهران ، انتزع عبد اللّه بن طارق يده من القران ، ثم أخذ سيفه و استأخر عن القوم،

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۸۷

فرموه بالحجارة حتى قتلوه، فقبره بالظهران. اما خبيب بن عدى وزيد ابن الدثنة فقدموا بهما مكة فباعوهما .

بنو زهرة

و بنو زهرة، و هم ابناء زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى ، و من مشاهير بنى زهرة، عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف بن عبد الحارث الزهرى القرشى، من صحابة رسول اللّه (ص) و احد الستة اصحاب الشورى الذين عينهم عمر بن الخطاب (ر ض)، و كان اسمه قبل اسلامه (عبد الكعبة) و سماه رسول اللّه (ص) عبد الرحمن، و قيل كان اسمه (عبد عمرو) .

و من مشاهير بنى زهرة سعد بن أبى و قاص مالك بن أهيب بن عبد مناف الزهرى، و هو احد الستة الذين عينهم عمر بن الخطاب (ر ض) لمجلس الشورى، اسلم و هو ابن ۱۷ سنة و شهد بدرا، و قاد جيش المسلمين فى موقعة القادسية و التى انتصر فيها المسلمون انتصارا رائعا على الدولة الساسانية و فتحوا العراق، مات فى قصره بالعقيق و حمل الى المدينة و ذلك سنة خمس و خمسين للهجرة.

و من رجالات بنى زهرة المعروفين محمد بن مسلم بن عبيد اللّه بن شهاب الزهرى، رأى عشرة من اصحاب النبى (ص) و روى عنه جماعة منهم مالك و ابن عيينة و الثورى . و يعتبر محمد بن مسلم اول من دون الحديث واحد اكابر الحفاظ و الفقهاء ، و نزل محمد بن مسلم الزهرى

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۹۰

مدينة الشام و استقر بها، و حضرته الوفاة فى ضيعته المعروفة (شغب) و هى خلف وادى القرى و بها قبره .

بنو سهم

و بنو سهم، أولاد سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤى ، و من مشاهيرهم، العاص بن وائل بن هاشم السهمى، أدرك الاسلام و ظل على الشرك، و كان على رأس بنى سهم فى حرب الفجار، و كان من المستهزئين، و هو القائل لما مات القاسم ابن النبى (ص) ان محمدا ابتر لا يعيش له ولد ذكر، فأنزل (ان شانئك هو الأبتر) . و من مشاهير بنى سهم، منبه بن الحجاج السهمى، و كان ادرك الاسلام و وقف مواقف عدائية للمسلمين، و هو نديم لطعيمة بن عدى بن نوفل من رؤساء قريش فى الجاهلية، و قد قتل الامام على بن ابى طالب، طعيمة بن عدى فى موقعة بدر ، و قتل منبه بن الحجاج، ابو اليسر، اخو بنى سلمة فى تلك الوقعة ايضا.

و نبيه بن الحجاج بن عامر أخو منبه بن الحجاج، كان نديما للنضر بن الحارث، و قتل مشركا فى وقعة بدر، قتله حمزة بن عبد المطلب .

و من مشاهيرهم فى الاسلام، هشام بن العاص بن وائل بن هاشم، من المسلمين الأقدمين، و هاجر الى بلاد الحبشة فى الهجرة الثانية، ثم عاد الى مكة حين علم بهجرة الرسول (ص) الى المدينة، و قتل فى موقعة اجنادين .

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۹۱

و من بنى سهم عمرو بن العاص أخو هشام بن العاص و كان من المعارضين للرسول محمد (ص) و للمسلمين، و اسلم بعد معاهدة الحديبية، شارك فى فتوح الشام و ولاه الخليفة عمر بن الخطاب فلسطين ثم مصر، و عزله الخليفة عثمان بن عفان، و أيد عمرو بن العاص معاوية بن أبى سفيان ضد الامام على بن ابى طالب، و مات فى مصر سنة ۴۳ ه.

بنو عدى

و بنو عـدى، و هم ابناء عدى بن كعب بن مرة، و كان له من الولد رزاح و عويج، فمن بنى (رزاح) الخليفة عمر بن الخطاب (ر ض) و من بنى عويج، نعيم بن عبد اللّه المعروف بالنحام .

و من مشاهير بنى عـدى فى الجاهليـة، زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى، و كان مشـهورا بالاتزان و الحكمة و سـعة الصدر، و يعتبر نصـيرا للمرأة فى الجاهلية، و إنه اعتزل عبادة الأوثان و امتنع من اكل ذبائحهم، و كان إذا خلص الى البيت استقبله ثم قال:- لبيك حقا حقا، تعبدا ورقا، البرّ ارجو لا الخال ، و هل مهجر كمن قال:

عذت بما عاذ به ابراهيم‌مستقبل الكعبة و هو قائم

يقول انفى لكك عان راغم‌مهما تجشّمنى فإنى جاشم

و رحـل الى الشام باحثا عن عبادات اهلها، فلم تسـتهوه اليهوديـة و لا المسـيحية، و رجع الى مكـة يعبـد اللّه على دين ابراهيم، و جاهد بعداء الاوثان ،

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۹۲

فتـألب عليه جمع من قريش، فأخرجوه من مكـة، فانصـرف الى (حراء) فسـلط عليه عمه الخطاب ابن نفيل جماعـة من قريش منعوه من دخول مكـة فكان لا يدخلها إلّا سـرا، و كان يعارض فكرة وأد البنات، و لا يعلم ببنت يراد وأدها إلّا قصد أباها و كفاه مؤونتها، فيربيها حتى إذا ترعرعت عرضها على ابيها فان لم يأخذها بحث لها عن كفؤ فزوجها به . و توفى زيد قبل مبعث النبى (ص) بخمس سنين.

و من بنى عدى الخليفة عمر بن الخطاب، و سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، هاجر الى المدينة و شارك فى معظم الغزوات و كان من ذوى الرأى و البسالة، و شـهد اليرموك، و ولاه القائد ابو عبيدة عامر بن الجراح، ولاية دمشق، و كانت وفاته فى المدينة سـنة احدى و خمسين للهجرة .

بنو عبد شمس

و بنو عبد شـمس، ابناء عبد شمس بن عبد مناف بن قصى كان له من الولد: أمية، و حبيب، و عبد أمية، و نوفل، و ربيعة، و عبد العزى و عبد اللّه . و عبد شمس من اصحاب الايلاف، و كان متجره الى الحبشة ، و من اشهر اولاده امية الذى كانت له القيادة بعد وفاة ابيه ، و قد شارك امية بن عبد شـمس مع عبد المطلب بن هاشم، و خويلد بن اسد فى وفد التهنئة الذى اوفدته قريش الى سيف بن ذى يزن فى اليمن .

و من بنى عبد شـمس، صـخر بن حرب بن أمية بن عبد شـمس (ابو سـفيان) و هو والد معاوية بن ابى سـفيان، كان من اشد المشركين حربا للرسول و المسلمين، قاد جيوش قريش فى موقعة أحد سنة ۳ ه و فى موقعة

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۹۳

الخندق سنة ۵ ه، و اعلن اسلامه بعد فتح مكة سنة ۸ ه، كما اسلم ولداه معاوية و يزيد فى السنة نفسها و هم جميعا من الطلقاء.

بنو عبد المطلب

و بنو عبد المطلب، اولاد عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصـى، و هو من أشهر زعماء قريش فى الجاهلية، امتاز بالحلم و سعة الصـدر، و فصاحة اللسان، و كانت له السـقاية و الرفادة، و فى ايامه كانت محاولة الاحباش فى غزو مكة. مات بمكة سـنة تسع من عام الفيل و للنبى (ص) يومئذ ثمان سنين على بعض الروايات.

و من اشهر اولاد عبد المطلب، (ابو طالب) عبد مناف بن عبد المطلب ابن هشام، عم النبى (ص) و كافله و مربيه و مناصره، كان من ابطال قريش و من الخطباء العقلاء الأباة، نشأ الرسول محمد (ص) فى بيته، و دافع بقوة عن الرسول محمد فى وقت كانت فيه قريش تتفنن فى اذى الرسول و اضطهاد المسلمين و تحاول كل جهدها فى القضاء على الفكرة الاسلامية. و من اولاده المشهورين، الامام على بن ابى طالب (ع) و جعفر شهيد معركة مؤتة، و عقيل، و قد امتاز عقيل بن ابى طالب بفصاحة اللسان، و انه من اعلم قريش بأيامها، و مآثرها، و مثالبها، و أنسابها، برز اسمه فى الجاهلية و كان فى قريش اربعة يتحاكم الناس إليهم فى المنافرات: عقيل بن ابى طالب، و مخرمة بن نوفل، و حويطب بن عبد العزى، و عامر بن حذيفة، و الى عقيل ينتسب بنو عقيل.

و من اولاد عبد المطلب المشهورين بالشجاعة و الشهامة و بصدق الجهاد و مضاء العزيمة، حمزة بن عبد المطلب، ابو عمارة، و قد علم يوما ان أبا

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۹۴

جهل تعرض للنبى (ص) و نال منه، فقصده حمزة بن عبد المطلب و ضربه، و قدم على الرسول (ص) و اظهر اسلامه، و هاجر مع الرسول و جاهد جهادا صادقا فى موقعة بدر، و كان شعار حمزة فى الحرب ريشة نعامة يضعها على صدره ، و فى بدر انتصر على عدو الاسلام شيبة بن ربيعة و قتله، و شارك فى قتل عتبة بن ربيعة و قتل طعيمة بن عدى، و شارك فى معركة أحد و استشهد فيها.

و العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، من الشخصيات البارزة فى بيت عبد المطلب خاصة و قريش عامة، و إليه ينتسب الخلفاء العباسيون، كان ممن حضر بيعة العقبة مع الانصار قبل اسلامه، و شهد بدرا مع المسلمين مكرها فافتدى نفسه و افتدى ابن اخيه عقيل بن ابى طالب، و يقال انه اسلم و كتم اسلامه و صار يكتب الى الرسول (ص) بالاخبار ثم هاجر قبل الفتح بقليل و شهد الفتح و ثبت يوم حنين، مات بالمدينة سنة اثنتين و ثلاثين للهجرة . و من اشهر اولاده (عبد اللّه) و يعرف (حبر الأمة) و نشأ فى بدء عصر النبوة و كان ممن لازم الرسول (ص) و روى عنه الاحاديث الصحيحة. ولد فى شعب بنى هاشم قبل الهجرة بثلاث سنين ، و قد امتاز عبد اللّه بن العباس بطلب العلم و تعليم الناس و تفقيههم فى امور دينهم ، و شهد عبد اللّه بن العباس الجمل، و صفين، و النهروان، مع الامام على بن أبى طالب طالب (ع) ، و كان عاملا على البصرة فى خلافة الامام على (ع) . و توفى ابن عباس سنة ثمان و ستين للهجرة بالطائف و صلى عليه محمد بن الحنفية، و كبر عليه اربعا و قال: «اليوم مات ربانىّ هذه الأمة» و ضرب على قبره فسطاطا . و كان عبد اللّه بن عباس قد عمى

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۹۵

آخر عمره، و قالى له يوما معاوية بن ابى سفيان: ما بالكم تصابون فى ابصاركم يا بنى هاشم؟ فقال له: كما تصابون فى بصائركم يا بنى أمية.

و من أولاد عبد المطلب (ابو لهب) عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم و هو يعد من الشخصيات الكبيرة فى العصر الجاهلى كما كان من اشد المشركين أذى للرسول محمد و لأصحابه ، و فيه نزل قوله تعالى: (تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ، وَ تَبَّ، ما أَغْنى عَنْهُ مالُهُ وَ ما كَسَبَ، سَيَصْلى ناراً ذاتَ لَهَبٍ، وَ امْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ، فِي جِيدِها حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ)، و كان من المستهزئين بالرسول و المسلمين، عظيم التكذيب له دائم الأذى، فكان يطرح العذرة و النتن على باب النبى (ص) و كان جاره، فكان رسول اللّه (ص) يقول:

أى جوار هذا يا بنى عبد المطلب، فرآه يوما حمزة فأخذ العذرة و طرحها على رأس أبى لهب، فجعل ينفضه عن رأسه و يقول: صاحبى احمق، و اقصر عما كان يفعله لكنه يضع من يفعل ذلك. و مات ابو لهب بمكة عند وصول الخبر بانهزام المشركين ببدر بمرض يعرف بالعدسة.

و عبد اللّه، هو اصغر اولاد عبد المطلب بن هاشم، ابو قثم، الملقب بالذبيح والد رسول اللّه محمد (ص) و كان ابوه قد نذر لئن ولد له عشرة ابناء و شبوا فى حياته لينحرن احدهم عند الكعبة، فشب له عشرة، فذهب بهم الى هبل، فضربت القداح بينهم، فخرجت على عبد

اللّه، و كان أحبهم إليه ففداه بمئة من الابل، فكان يعرف بالذبيح. و زوّجه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة، و كان عبد اللّه يمتهن التجارة، و خرج عبد اللّه بن عبد المطلب الى الشام فى قافلة من قوافل قريش يحملون تجارات، ففرغوا من تجاراتهم ثم انصرفوا، فمرو بالمدينة و عبد اللّه بن عبد المطلب يومئذ مريض، فقال انا اتخلف عن (۱) المرجع السابق: ص ۱۸۲.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۹۶

اخوالى بنى عدىّ بن النجار، فأقام عندهم مريضا شهرا، و مضى أصحابه، فقدموا مكة، فسألهم عبد المطلب عن عبد اللّه فقالوا:- خلفناه عند اخواله بنى عدى بن النجار و هو مريض، فبعث إليه عبد المطلب اكبر ولده الحارث فوجده قد توفى، و دفن فى دار النابغة. و كان لعبد اللّه يوم توفى خمس و عشرون سنة، و رسول اللّه (ص) يومئذ حمل .

بنو عامر

و بنو عامر، و هم اولاد عامر بن لؤى بن غالب من قريش، كان له من الولد، حسل و بغيض، فمن بنى حسل سهيل بن عمرو ، و سهيل خطيب قريش واحد سادتها فى الجاهلية، اسره المسلمون فى معركة بدر و افتدى، و قد أوفدته قريش لمفاوضة محمد (ص) و ابرام صلح معه، ذلك الذى عرف فى التاريخ بصلح الحديبية، فى السنة السادسة من الهجرة النبوية، و أسلم يوم الفتح فى السنة الثامنة، مات بالطاعون فى الشام سنة ثمان عشرة للهجرة ، و ذكر ان سهيل بن عمرو كان عند البيت الحرام لما فتح الرسول محمد (ص) مكة و دخل البيت ثم خرج فوضع يده على عضادتى الباب فقال: ماذا تقولون؟. فقال سهيل بن عمرو: نقول خيرا و نظن خيرا، أخ كريم و ابن اخ كريم. و يروى ايضا ان عمر بن الخطاب قال للنبى (ص) دعنى انزع ثنيتى سهيل بن عمرو فلا يقوم علينا خطيبا، فقال: «دعها فلعلها أن تسرك يوما» فلما مات النبى (ص)، قام سهيل ابن عمرو، فقال: من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات و من كان يعبد اللّه فان اللّه حى لا يموت.

و من بنى عامر، عمرو بن عبد ودّ، كان فارس قريش الكبير،

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۹۷

خرج يتقدم صفوف قريش الى قتال المسلمين فى معركة الخندق سنة خمس للهجرة ، و تقدم الى صفوف المسلمين متحديا و طالبا البراز، فخرج إليه بطل الاسلام الكبير الامام على بن أبى طالب (ع) و انتصر عليه و صرعه ، و كان لانتصار الامام على الأثر الكبير فى كسب انتصار موقعة الخندق لصالح المسلمين.

و من بنى عامر، عمرو بن أم مكتوم، و كان عمرو و هو مؤذن الرسول (ص) و امه أم مكتوم اسمها عاتكة بنت عبد اللّه بن عاتكة بن عامر بن مخزوم ، و هو ابن خال خديجة أم المؤمنين ، و كان ممن قدم المدينة مع مصعب بن عمير قبل رسول اللّه (ص)، و استخلفه الرسول (ص) على المدينة فى غزواته ثلاث عشرة مرة، و استخلفه فى خروجه الى حجة الوداع و شهد القادسية و معه اللواء و قتل بها شهيدا، و قال الواقدى: رجع الى المدينة و مات بها سنة خمس عشرة . و ابن ام مكتوم هو المذكور فى سورة (عبس و تولى) و نزلت فيه (غير اولى الضرر) لما نزلت (لا يستوى القاعدون) .

و اختلف فى اسمه، فأهل المدينة يقولون اسمه عبد اللّه، و اما اهل العراق فيقولون عمرو .

و من بنى عامر، عبد اللّه بن سهيل بن عمرو، و هو من الذين هاجروا الى الحبشة ، و يروى ان والده سهيل بن عمرو أخذه بعد ان رجع من الحبشة ففتنه عن دينه فأظهر الرجوع و خرج مع قريش الى بدر، ففر الى المسلمين و كان احد الشهود بعد ذلك فى صلح الحديبية، و دخل مع المسلمين يوم فتح مكة، و هو الذى اخذ الأمان لأبيه، و شارك عبد اللّه بن سهيل مع

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۹۸

المسلمين فى حروب الردة، و استشهد فى معركة اليمامة .

و من الطريف ان من بنى عامر، عبد اللّه بن مخرمة بن عبد العزى بن أبى قيس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن عامر بن لؤى القرشى العامرى، كان ممن هاجر الى الحبشة و استشهد هو الآخر فى معركة اليمامة .

و من بنى عامر، من هاجر الى الحبشة و شارك فى معركة بدر و استشهد فى معركة اليمامة، سليط بن عمرو بن عبد شمس العامرى .

و من بنى عامر، ابو سبرة بن أبى رهم بن عبد العزى العامرى، من المسلمين الأولين، و هاجر إلى الحبشة و معه أم كلثوم بنت سهيل بن عمرو، و عاد الى المدينة و شهد بدرا، و أقام بمكة بعد وفاة الرسول (ص) الى ان مات فى خلافة عثمان بن عفان، و لا يعلم احد من اهل بدر رجع الى مكة غيره .

بنو مخزوم

و من قبائل قريش المشهورة، بنو مخزوم، اولاد مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب، و كان له من الولد عمرو و عمران و عامر و من مشاهير بنى مخزوم فى الجاهلية هشام بن المغيرة بن عبد اللّه بن عمر المخزومى، و كانت قريش و كنانة و من والاهم يؤرخون بثلاث حوادث:

بناء الكعبة، و عام الفيل، و بموت هشام، و هو قريب عهد من البعثة النبوية، و صار ولده (الحارث) من الصحابة، و شهد معركة بدر مع المشركين و كان فيمن انهزم ، و اسلم يوم فتح مكة، و خرج الى الجهاد

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۹۹

فى فتوح الشام، و مات فى طاعون عمواس سنة ۱۸ ه ، و هو اخو أبى جهل .

و من بنى مخزوم الوليد بن المغيرة بن عبد اللّه بن عمرو بن مخزوم، من قضاة العرب فى الجاهلية و من زعماء قريش، و كان على جانب كبير من الثراء، و كانت قريش جميعها تكسو البيت جميعها، و الوليد يكسوه وحده ، و عند ما بدأت قريش فى تهديم الكعبة بقصد بنائها، كان الوليد بن المغيرة المخزومى أول من ضرب فيها بمعول . و ادرك الاسلام و اعلن حربه الشديدة على المسلمين، و قاوم الدعوة مقاومة عنيفة. و كان يقول:

أينزل على محمد و أترك، و أنا لبيب قريش و سيدها، و يترك ابو مسعود عمرو بن عمير الثقفى سيد ثقيف، و نحن عظيما القريتين . فأنزل اللّه تعالى فيه (وَ قالُوا لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ. أَ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا) الى قوله تعالى:- (خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ) . و مات الوليد بن المغيرة بعد الهجرة النبوية بثلاثة اشهر .

و منهم الوليد بن الوليد بن المغيرة بن عبد اللّه بن عمرو بن مخزوم، و هو أخو خالد بن الوليد، ادرك الاسلام و لكنه ظل على وثنيته، و حارب المسلمين فى موقعة بدر فأسره المسلمون، فافتداه اخواه هشام و خالد، فلما افتدى اسلم و عاتبوه فى ذلك، فقال: ما كنت لأسلم حتى أفتدى، و لا تقول قريش إنما اتبع محمدا فرارا من الفداء، و حبسه اخواه ثم أفلت من أسرهم و لحق بالنبى (ص) و مات بالمدينة فى حدود السنة السابعة للهجرة و من مشاهير بنى مخزوم، عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومى المعروف

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۰۰

بأبى جهل، و كان اشد الناس عداوة للنبى (ص) و أكثرهم اذى له و لا صحابه و من جرائمه فى حق المسلمين انه قتل السيدة الجليلة سمية ام عمار بن ياسر، و كانت قريش تهابه و تقدمه، فقد سوّدته و لم يطرّ شاربه و ادخلته دار الندوة مع الكهول .

و اورد ابن هشام قصة استماع أبى سفيان و أبى جهل و الأحنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفى، حليف بن زهرة، للرسول (ص) و هو يصلى من الليل فى بيته، فسأل الأحنس بن شريق أبا جهل عن رأيه فيما سمعه من محمد (ص)؟ فقال ابو جهل: ماذا سمعت، تنازعنا نحن و بنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، و حملوا فحملنا، و أعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاذينا على الرّكب، و كنّا كفرسى رهان، قالوا:

منا نبيّ يأتيه الوحى من السماء، فمتى ندرك مثل هذه، و اللّه لا نؤمن به أبدا، و لا نصدقه .

و خرج ابو جهل مع المشركين الى قتال المسلمين فى السنة الثانية للهجرة حيث وقعت معركة بدر الخالدة و التى انتصر فيها المسلمون انتصارهم الرائع و هلك فيها كبار مشركى مكة و فى مقدمتهم ابو جهل، قتله معوّذ ابن عفراء و عبد اللّه بن مسعود ، و بذلك يكون المسلمون قد تخلصوا من عدو لدود لهم.

و من شخصيات بنى مخزوم، الاسود بن عبد الأسد المخزومى و كان رجلا شرسا سيّء الخلق، و من كبار مشركى مكة، خرج لقتال المسلمين فى بدر و وقف امام المشركين يقول: أعاهد اللّه لأشربن من حرضهم، او لأهدمنه، او لأموتن دونه، فلما خرج، خرج اليه حمزة بن عبد المطلب، فلما التقيا ضربه حمزة فأطنّ قدمه بنصف ساقه،

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۰۱

و هو دون الحوض، فوقع على ظهره تشخب رجله دما نحو اصحابه، ثم حبا الى الحوض، حتى اقتحم فيه، يريد ان يبرّ يمينه، و أتبعه حمزة فضربه، حتى قتله فى الحوض .

و من بنى مخزوم، خالد بن الوليد بن المغيرة، و كان من المشركين المعادين للاسلام و المسلمين، و قاتل المسلمين فى عدة مواقع و كان الذى يقود ميمنة قريش فى معركة أحد ، و كان يتربص بالرماة الذين وضعهم الرسول (ص) على جبل أحد، و تمكن من السيطرة على الجبل و قتله المسلمين. و أسلم خالد بن الوليد قبل فتح مكة بقليل، فقد ورد عن عمرو بن العاص قوله: ثم خرجت الى رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، لأسلم، فلقيت خالد بن الوليد، و ذلك قبيل الفتح، و هو مقبل من مكة . و يؤيد هذا القول ما جاء فى كتاب الاصابة، من ان خالد ابن الوليد أسلم فى سنة سبع بعد موقعة خيبر و قيل قبلها ، و ساهم خالد فى الجهاد و شارك فى معركة مؤتة، و حارب المرتدين فى اليمامة، و أمره الخليفة ابو بكر بالتوجه الى فتح العراق، كما شارك فى فتوح الشام، و عزله الخليفة عمر بن الخطاب حين تولى الخلافة سنة ۱۳ ه . و مات بحمص سنة ۲۱ ه .

بنو الحارث

و بنو الحارث، بطن من قريش و هم ابناء الحارث بن فهر بن مالك ابن النضر، و كان للحارث هذا من الولد ضبة و ضرب و الخلج . و من

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۰۲

مشاهيرهم، ابو عبيدة عامر بن الجراح ابن هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث، من الصحابة الكرام، و كان اسلامه هو و عثمان بن مظعون و عبيدة بن الحارث بن المطلب و عبد الرحمن بن عوف و ابو سلمة بن عبد الأسد فى ساعة واحدة، و ذلك قبل دخول النبى دار الارقم بن ابى الأرقم . و شهد معظم الغزوات الاسلامية، و قيل انه قتل اباه فى موقعة بدر ، و كان احد قادة فتوح الشام ز من الخليفة ابى بكر (ر ض) ، و ان عمر بن الخطاب اول ما تولى الخلافة أمر بعزل خالد بن الوليد و تولية ابى عبيدة عامر بن الجراح القيادة العامة . و توفى بطاعون عمواس سنة ثمان عشرة للهجرة و هو ابن ثمان و خمسين سنة .

تلك جولة عامة فى تاريخ القبائل العربية التى استوطنت مكة منذ اقدم العصور و حتى انبثاق فجر الاسلام.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۰۳

مكة فى أشهر الرحلات العربية

اشارة

كتبه الدكتور صفاء خلوصى دكتوراه من جامعة لندن و الأستاذ بكلية التربية من جامعة بغداد

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۰۵

مكة فى رحلة ابن جبير

لم يأل الرحالة العرب جهدا فى الاهتمام بالعتبات المقدسة و لا سيما مكة و المدينة و كربلاء و النجف و الكاظمين، و على رغم أهمية ما ورد من معلومات حولها جميعا فاننا سنخص بالذكر فى هذا الفصل مكة و الكاظمين فحسب تاركين عداهما لكتاب آخر أو مناسبات أخرى، و لنبدأ بمكة فى رحلة ابن جبير الاندلسى البلنسى (ت ۵۳۹ ه- ۱۱۴۴ م- ۶۱۴ ه- ۱۲۱۷ م) يقول فى باب «عدل صلاح الدين»:

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۰۶

و من مفاخر هذا السلطان المزلفة من اللّه تعالى و آثاره التى ابقاها ذكرا جميلا للدين و الدنيا: ازالته رسم المكس المضروب وظيفة على الحجاج مدة دولة العبيديين، فكان الحجاج يلاقون من الضغط فى استيدائها عنتا مجحفا و يسامون فيها خطة خسف باهظة، و ربما ورد منهم من لا- فضل لديه على نفقته او لا نفقة عنده فيلزم اداء الضريبة المعلومة، و كانت سبعة دنانير و نصف دينار من الدنانير المصرية التى هى خمسة عشر دينارا مؤمنية على كل رأس، و يعجز عن ذلك، فيتناول بأليم العذاب بعيذاب؛ فكانت كاسمها مفتوحة العين، و ربما اخترع له من انواع العذاب التعليق من الانثيين او غير ذلك من الامور الشنيعة، نعوذ باللّه من سوء قدره؛ و كان بحدّه امثال هذا التنكيل و اضعافه لمن لم يؤد مكسه بعيذاب و وصل اسمه غير معلم عليه علامة الأداء، فمحا هذا السلطان هذا الرسم اللعين و دفع عوضا منه ما يقوم مقامه من اطعمة و سواها؛ و عيّن مجبى موضع معين بأسره لذلك و تكفل بتوصيل جميع ذلك الى الحجاز، لأن الرسم المذكور كان باسم ميرة مكة و المدينة عمرهما اللّه، فعوّض من ذلك اجمل عوض، و سهّل السبيل للحجّاج و كانت فى حيّز الانقطاع و عدم الاستطلاع، و كفى اللّه المؤمنين على يدى هذا السلطان العادل حادثا عظيما و خطبا أليما.

و تحت عنوان: «ذكر ما استدرك خبره مما كان أغفل» يقول (ص ۳۴):

انّا لما حللنا الاسكندرية فى الشهر المؤرخ اولا عاينا مجتمعا من الناس عظيما بروزا لمعاينة اسرى من الروم أدخلوا البلد راكبين على الجمال و وجوههم الى اذنابها و حولهم الطبول و الأبواق، فسألنا عن قصتهم فأخبرنا بأمر تتفطر له الأكباد اشفاقا و جزعا؛ و ذلك ان جملة من نصارى الشام اجتمعوا و أنشأوا مراكب فى اقرب المواضع التى لهم من بحر القلزم (اى البحر الأحمر)

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۰۷

ثم حملوا انقاضها على جمال العرب المجاورين لهم بكراء اتفقوا معهم عليه، فلما حصلوا بساحل البحر سمّروا مراكبهم و اكملوا انشاءها و تأليفها و دفعوها فى البحر و ركبوها قاطعين بالحجاج و انتهوا الى بحر النعم فأحرقوا فيه نحو ستة عشر مركبا، و انتهوا الى عيذاب فأخذوا فيها مركبا كان يأتى بالحجاج من جدّة، و اخذوا ايضا فى البحر قافلة كبيرة تأتى من قوص الى عيذاب، و قتلوا الجميع و لم يحيوا احدا، و اخذوا مركبين كانا مقبلين بتجّار من اليمن، و احرقوا اطعمة كثيرة على ذلك الساحل كانت معدة لميرة مكة و المدينة اعز هما اللّه، و احدثوا حوادث شنيعة لم يسمع مثلها فى الاسلام و لا انتهى رومى الى ذلك الموضع قط.

و يذكر فى الفصل الخاص ب «صفة جدّة» ما يلى (ص ۵۳):

و جدّة هذه قرية على ساحل البحر المذكور اكثر بيوتها اخصاص و فيها فنادق مبنية بالحجارة و الطين و فى اعلاها بيوت من الاخصاص كالغرف و لها سطوح يستراح فيها بالليل من اذى الحر، و بهذه القرية آثار قديمة تدل على انها كانت مدينة قديمة، و اثر سورها المحدق بها باق الى اليوم؛ و بها موضع فيه قبة مشيدة عتيقة يذكر انه كان منزل حوّاء ام البشر، صلى اللّه عليها، عند توجهها الى مكة، فبنى ذلك المبنى عليه تشهيرا لبركته و فضله، و اللّه اعلم بذلك.

و فی صدد رحلته «من جدة الی الحرم الشریف» یذکر مکة بقوله:

«و فی عشیّ یوم الثلاثاء الحادی عشر من الشهر المذکور، و هو الثانی من شهر أغشت، (اغسطوس)، کان انفصالنا من جدّة بعد ان ضمن الحجاج بعضهم بعضا، و ثبتت اسماؤهم فی زمام عند قائد جدّة علیّ ابن موفّق، حسبما نفذ الیه ذلک من سلطانه صاحب مکة مکثر بن عیسی

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۰۸

المذکور، و هذا الرجل مکثر من ذریة الحسن بن علیّ، رضوان اللّه علیهما.

لکنه ممن یعمل غیر صالح، فلیس من اهل سلفه الکریم، رضی اللّه عنهم .

و دخلنا مکة، حرسها اللّه، فی الساعة الأولی من یوم الخمیس الثالث عشر لربیع المذکور، و هو الرابع من شهر أغشت، علی باب العمرة، و کان اسراؤنا تلک اللیلة المذکورة، و البدر قد ألقی علی البسیطة شعاعه، و اللیل قد کشف عنا قناعه و الأصوات تصک الآذان بالتلبیة من کل مکان، و الألسنة تضج بالدعاء و تبتهل الی اللّه بالثناء، فتارة تشتد بالتلبیة، و آونة تتضرع بالأدعیة، فیا لها لیلة کانت فی الحسن بیضة العقر ، فهی عروس لیالی العمر، و بکر بنیّات الدهر، الی ان وصلنا فی الساعة المذکورة من الیوم المذکور، حرم اللّه العظیم و مبوّأ الخلیل ابراهیم، فألفینا الکعبة الحرام عروسا مجلوّة مزفوفة الی جنة الرضوان محفوفة بوفود الرحمن، فطفنا طواف القدوم، ثم صلینا بالمقام الکریم، و تعلّقنا بأستار الکعبة عند الملتزم، و هو بین الحجر الأسود و الباب، و هو موضع استجابة الدعوة، و دخلنا قبة زمزم و شربنا من مائها، و هو لما شرب له، کما قال، صلیّ اللّه علیه و سلم، ثم سعینا بین الصفا و المروة، ثم حلقنا و احللنا، فالحمد للّه الذی کرّمنا بالوفادة علیه و جعلنا ممن انتهت الدعوة الابراهیمیة الیه ، و هو حسبنا و نعم الوکیل .

شهر جمادی الاولی، عرّفنا اللّه برکته

استهل هلاله لیلة الاثنین الثانی و العشرین لأغشت، و قد کمل لنا بمکة، شرّفها اللّه تعالی، ثمانیة عشر یوما، فهلال هذا الشهر اسعد هلال اجتلته

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۰۹

ابصارنا فیما سلف من اعمارنا .

ذکر المسجد الحرام و البیت العتیق، کرمه اللّه و شرفه

و من آیات البیت العتیق انه قائم وسط الحرم کالبرج المشیّد و له التنزیه الأعلی، و حمام الحرم لا تحصی کثرة، و هی من الأمن بحیث یضرب بها المثل، و لا سبیل ان تنزل بسطحه الأعلی حمامة و لا تحل فیه بوجه و لا علی حال فتری الحمام یتجلی علی الحرم کله، فاذا قربت من البیت عرّجت عنه یمینا أو شمالا و الطیور سواها کذلک، و قرأت فی اخبار مکة انه لا ینزل علیه طائر الا عند مرض یصیبه فاما ان یموت لحینه او یبرأ فسبحان من أورثه التشریف و التکریم .

و من آیاته ان بابه الکریم یفتح فی الأیام المعلومة المذکورة، و الحرم قد غصّ بالخلق، فیدخله الجمیع و لا یضیق عنهم بقدرة اللّه، عز و جل، و لا یبقی فیه موضع الا و یصلی فیه کل احد؛ و یتلاقی الناس عند الخروج منه؛ فیسأل بعضهم بعضا: هل دخل البیت ذلک الیوم؟ فکلّ یقول:

دخلت و صلیت فی موضع کذا و موضع کذا حیث صلیّ الجمیع؛ و للّه الآیات البینات و البراهین المعجزات، سبحانه و تعالی.

و من عجائب اعتناء اللّه تبارک و تعالی به أنه لا یخلو من الطائفین ساعة من النهار و لا وقتا من اللیل؛ فلا تجد من یخبر انه رآه دون طائف به، فسبحان من کرّمه و عظّمه و خلّد له التشریف الی یوم القیامة.

و فى القبة العباسية ... خزانة تحتوى على تابوت مبسوط متسع و فيه

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۱۰

و بازاء الحرم الشريف ديار كثيرة لها أبواب على الحرم مصحف احد الخلفاء الأربعة اصحاب رسول اللّه (ص) و بخط يد زيد بن ثابت (ر ض) منتسخ سنة ثمانى عشرة من وفاة رسول اللّه (ص) و ينقص منه ورقات كثيرة، و هو بين دفتى عود مجلد بمغاليق من صفر، كبير الورقات و اسعها، عايناه و تبركنا بتقبيله و مسح الخدود فيه. نفع اللّه بالنية فى ذلك.

و اعلمنا صاحب القبة المتولى لعرضه علينا: ان اهل مكة متى أصابهم قحط او نالتهم شدة فى اسعارهم اخرجوا المصحف المذكور و فتحوا باب البيت الكريم و وضعوه فى العتبة المباركة مع المقام الكريم: مقام الخليل ابراهيم، صلى اللّه على نبينا و عليه، و اجتمع الناس كاشفين رؤوسهم داعين متضرعين، بالمصحف الكريم و المقام العظيم الى اللّه متوسلين، فلا ينفصلون عن مقامهم ذلك الا و رحمة اللّه عز و جل قد تداركتهم و اللّه لطيف بعباده، لا إله سواه.

و بازاء الحرم الشريف ديار كثيرة لها ابواب يخرج منها اليه. و ناهيك بهذا الجوار الكريم! كدار زبيدة و دار القاضى و دار تعرف بالعجلة و سواها من الديار، و حول الحرم ايضا ديار كثيرة تطيف بكلها مناظر و سطوح يخرج منها الى سطح الحرم فيبيت اهلها فيه و يبرّدون ماءهم فى اعالى شرفاته، فهم من النظر الى البيت العتيق دائما فى عبادة متصلة، و اللّه يهنئهم ما خصهم به من مجاورة بيته الحرام بمنه و كرمه.

و الفيت بخط الفقيه الزاهد الورع ابى جعفر الفنكى القرطبى: ان

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۱۱

ذرع المسجد الحرام فى الطول و العرض ما اثبّته اولا، و طول مسجد رسول اللّه (ص) ثلاثمائة ذراع، و عرضه مئتان، و عدد سواعديه ثلاثمائة، و مناراته ثلاث، فيكون تكسيره اربعة و عشرين مرجعا من المراجع المغربية، و هى خمسون ذراعا فى مثلها، و طول مسجد بيت المقدس، اعاده اللّه للاسلام، سبعمائة و ثمانون ذراعا، و عرضه اربعمائة و خمسون ذراعا و سواريه اربعمائة و اربع عشرة سارية، و قناديله خمسمائة و ابوابه خمسون بابا، فيكون تكسيره من المراجع المذكورة مائة مرجع و اربعين مرجعا و خمسى مرجع .

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۱۲

ذكر مكة شرفها اللّه تعالى و آثارها الكريمة، و أخبارها الشريفة

هى بلدة قد وضعها اللّه عز و جل بين جبال محدقة بها، و هى بطن واد مقدس، كبيرة مستطيلة، تسع من الخلائق ما لا يحصيه الا اللّه عز و جل.

و لها ثلاثة ابواب: اولها باب المعلى، و منه يخرج الى الجبّانة المباركة، و هى بالموضع الذى يعرف بالحجون، و عن يسار المار اليها جبل فى اعلاه ثنية عليها علم شبيه بالبرج، يخرج منها الى طريق العمرة، و تلك الثنية تعرف بكداء، و هى التى عنى حسّان بقوله فى شعره (من الوافر):

تثير النقع موعدها كداء فقال النبى (ص) يوم الفتح: ادخلوا من حيث قال حسان، فدخلوا من تلك الثنية، و هذا الموضع الذى يعرف بالحجون هو الذى عناه الحارث ابن مضاض الجرهمى بقوله (من الطويل):

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفاأنيس و لم يسمر بمكة سامر

بلى نحن كنا اهلها فأبادناصروف الليالى و الجدود العواثر

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۱۳

و بالجبّانة المذكورة مدفن جماعة من الصحابة و التابعين و الاولياء و الصالحين قد دثرت مشاهدهم المباركة و ذهبت عن اهل البلد

اسماؤهم و فيه الموضع الذى صلب فيه الحجاج بن يوسف، جازاه اللّه، جثة عبد اللّه ابن الزبير، رضى اللّه عنهما؛ و على الموضع بقية علم ظاهر الى اليوم، و كان عليه مبنى مرتفع، فهدمه أهل الطائف غيرة منهم على ما كان يجدّد من لعنة صاحبهم الحجاج المذكور؛ و عن يمينك اذا استقبلت الجبانة المذكورة مسجد فى مسيل بين جبلين، يقال انه المسجد الذى بايعت فيه الجن النبى صلى اللّه عليه و سلم و شرف و كرّم.

و على هذا الباب المذكور طريق الطائف، و طريق العراق و الصعود الى عرفات، جعلنا اللّه ممن يفوز بالموقف فيها، و هذا الباب المذكور بين الشرق و الشمال، و هى الى المشرق أميل.

ثم باب المسفل: و هو الى جهة الجنوب، و عليه طريق اليمن، و منه كان دخول خالد بن الوليد يوم الفتح.

ثم باب الزاهر و يعرف ايضا بباب العمرة، و هو غربى، و عليه طريق مدينة الرسول (ص) و طريق الشام و طريق جدّة، و منه يتوجّه الى التنعيم و هو اقرب ميقات المعتمرين، يخرج من الحرم اليه على باب العمرة، و لذلك ايضا يسمى هو بهذا الاسم.

و التنعيم من البلدة على فرسخ، و هو طريق حسن فسيح، فيه الآبار العذبة التى تسمى بالشبيكة.

و عندما تخرج من البلدة بنحو ميل تلقى مسجدا بازائه حجر موضوع على الطريق كالمصطبة يعلوه حجر آخر مسند فيه نقش دائر الرسم يقال انه الموضع الذى قعد فيه النبى (ص) مستريحا عند مجيئه من العمرة فيتبرك الناس بتقبيله و مسح الخدود فيه ... ثم بعد هذا الموضع بمقدار غلوة تلقى على قارعة الطريق من جهة اليسار للمتوجه الى العمرة قبرين قد علتهما

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۱۴

اكوام من الصخر عظام يقال انهما قبرا ابى لهب و امرأته، لعنهما اللّه، فما زال الناس فى القديم الى هلم جرا يتخذون سنة رجمهما بالحجارة حتى علاهما من ذلك جبلان عظيمان .

ثم تسير فيهما بمقدار ميل و تلقى الزاهر، و هو مبنى على جانبى الطريق، يحتوى على دار و بساتين، و الجميع ملك احد المكيين و فى الموضع بئر عذبة.

و عن جانبى الطريق فى هذا الموضع جبال اربعة: جبلان من هنا، و جبلان من هنا، عليها اعلام من الحجارة، و ذكر لنا انها الجبال المباركة التى جعل ابراهيم (ع) عليها اجزاء الطير ثم دعاهن حسبما حكى اللّه، عز و جل، سؤاله اياه جل و تعالى ان يريه كيف يحيى الموتى؛ و حول تلك الجبال الأربعة جبال غيرها، و قيل: ان التى جعل ابراهيم عليها الطير سبعة منها، و اللّه اعلم.

و عند اجازتك الزاهر المذكور تمر بالوادى المعروف بذى طوى الذى ذكر ان النبى (ص) نزل فيه عند دخوله مكة و حوله آبار تعرف بالشبيكة، و فيه مسجد يقال انه مسجد ابراهيم (ع) فتأمل بركة هذا الطريق و مجموع الآيات التى فيه و الآثار المقدسة التى اكتنفته.

و تجيز الوادى الى مضيق تخرج منه الى الاعلام التى وضعت حجزا بين الجبل و الحرام، فما داخلها الى مكة حرم و ما خارجها حل، و هى كالأبراج مصفوفة كبار و صغار واحد بازاء الآخر، و على مقربة منه تأخذ من اعلى الجبل الذى يعترض عن يمين الطريق فى التوجه الى العمرة، و تشق الطريق الى اعلى الجبل عن يساره، و منه ميقات المعتمرين و فيها مساجد مبنية بالحجارة يصلى المعتمرون فيها و يحرمون منها.

و من عجيب ما عرض علينا بباب بنى شيبة المذكور عتب من الحجارة

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۱۵

العظام طوال كأنها مصاطب صفت امام الابواب الثلاثة المنسوبة لبنى شيبة، ذكر لنا انها الأصنام التى كانت قريش تعبدها فى جاهليتها، و كبيرها هبل بينها، قد كبت على وجوهها، تطؤها الأقدام و تمتهنها بأنعلتها العوام؛ و لم تغن عن انفسها فضلا عن عابديها شيئا فسبحان المنفرد بالوحدانية لا اله سواه؛ و الصحيح فى امر تلك الحجارة ان النبى (ص) امر يوم فتح مكة بكسر الاصنام و احراقها، و

هذا الذى نقل الينا غير صحيح و انما تلك التى على الباب حجارة منقولة و عنى القوم بتشبيهها الى الاصنام لعظمها.

و من جبال مكة المشهورة، بعد جبل ابى قبيس، جبل حراء، و هو فى الشرق على مقدار فرسخ او نحوه مشرف على منى، و هو مرتفع فى الهواء عالى القنة، و هو جبل مبارك، كان النبى (ص) كثيرا ما ينتابه و يتعبد فيه، و اهتز تحته فقال له النبى (ص): «اسكن حراء، فما عليك الا نبىّ و صدّيق و شهيد» .... و اول آية نزلت من القرآن على النبى (ص) فى الجبل المذكور و هو آخذ من الغرب الى الشمال، و وراء طرفه الشمالى جبّانة الحجون ... و سور مكة انما كان من جهة المعلى و هو مدخل الى البلد، و من جهة المسفل و هو مدخل ايضا اليه؛ و من جهة باب العمرة و سائر الجوانب جبال لا يحتاج معها الى سور؛ و سورها اليوم منهدم إلا آثاره الباقية و ابوابه القائمة.

ذكر بعض مشاهدها المعظمة و آثارها المقدسة

مكة، شرفها اللّه، كلها مشهد كريم، كفاها شرفا ما خصها اللّه به من مثابة بيته العظيم و ما سبق لها من دعوة الخليل ابراهيم و انها حرم اللّه و امنه، و كفاها انها منشأ النبى (ص) الذى آثره اللّه بالتشريف و التكريم

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۱۶

و ابتعثه بالآيات و الذكر الحكيم، فهى مبدأ نزول الوحى و التنزيل و اول مهبط الروح الامين جبريل، و كانت مثابة انبياء اللّه و رسله الاكرمين، و هى ايضا مسقط رؤوس جماعة من الصحابة القرشيين المهاجرين الذين جعلهم اللّه مصابيح الذين و نجوما للمهتدين.

فمن مشاهدها التى عايناها قبّة الوحى، و هى فى دار خديجة ام المؤمنين (ر ض)، و بها كان ابتناء النبى (ص) بها، و قبة صغيرة ايضا فى الدار المذكورة فيها كان مولد فاطمة الزهراء (ع)، و فيها ايضا ولدت سيدى شباب اهل الجنة: الحسن و الحسين (ع) و هذه المواضع المقدسة المذكورة مغلقة مصونة قد بنيت بناء يليق بمثلها.

و من مشاهدها الكريمة ايضا مولد النبى (ص) و التربة الطاهرة التى هى اول تربة مست جسمه الطاهر، بنى عليها مسجد لم ير احفل بناء منه، اكثره ذهب منزّل به، و الموضع المقدس الذى سقط فيه، صلى اللّه عليه و سلم، ساعة الولادة السعيدة المباركة التى جعلها اللّه رحمة للأمة اجمعين، محفوف بالفضة؛ فيا لها تربة شرفها اللّه بأن جعلها مسقط اطهر الأجسام و مولد خير الانام، صلى اللّه عليه و على آله و اهله و اصحابه الكرام و سلّم تسليما؛ يفتح هذا الموضع المبارك فيدخله الناس كافة متبركين به فى شهر ربيع الأول و يوم الاثنين منه، لأنه كان شهر مولد النبى (ص) و فى اليوم المذكور ولد (ص)، و تفتح المواضع المقدسة المذكورة كلها و هو يوم مشهور بمكة دائما.

و من مشاهدها الكريمة ايضا دار الخيزران، و هى الدار التى كان النبى (ص) يعبد اللّه فيها سرا مع الطائفة الكريمة المبادرة للاسلام من اصحابه، رضى اللّه عنهم ...

و على مقربة من دار خديجة (رض) ... و فى الزقاق الذى الدار المكرمة

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۱۷

فيه مصطبة فيها متكأ يقصد الناس اليها و يصلون فيها و يتمسحون بأركانها، لان فى موضعها كان موضع قعود النبى (ص).

و من الجبال التى فيها اثر كريم و مشهد عظيم الجبل المعروف بأبى ثور، و هو فى الجهة اليمنية من مكة على مقدار فرسخ او ازيد و فيه الغار الذى اوى اليه النبى (ص) ... و قرأت فى كتاب «أخبار مكة» لأبى الوليد الأزرقى: ان الجبل نادى النبى (ص): «إلىّ يا محمد! إلىّ يا محمد! فقد آويت قبلك نبيا» ...

و اكثر الناس ينتابون هذا الغار المبارك و يتجنبون دخوله من الباب الذى احدث اللّه عز و جل فيه، و يرومون دخوله من الشق الذى دخل النبى (ص) منه تبركا به، فيمتد المحاول لذلك على الأرض و يبسط خده بازاء الشق و يولج يديه و رأسه اولّا ثم يعالج ادخال

سائر جسده فمنهم من يتأتى له ذلك بحسب قضافة بدنه، و منهم من يتوسط بدنه فم الغار فيعضّه فيروم الدخول او الخروج فلا يقدر فينشب و يلاقى مشقة و صعوبة، حتى يتناول بالجذب العنيف من ورائه.

فالعقلاء من الناس يجتنبونه لهذا السبب، و لا سيما و يتصل به سبب آخر مخجل فاضح، و ذلك ان عوامّ الناس يزعمون ان الذى لا يسع عليه و يمتسك فيه و لا يلجه ليس لرشدة . جرى هذا الخبر على ألسنتهم حتى عاد عندهم قطعا على صحته لا يشكّون؛ فبحسب المنتشب فيه المتعذر و لوجه عليه ما يكسوه هذا الظن الفاضح المخجل، زائدا الى ما يكابده بدنه من اللّز فى ذلك و المضيق إشرافه منه على المنية توجعا و انقطاع نفس و برح ألم، فالبعض من الناس يقولون فى مثل: «ليس يصعد جبل ابى ثور الا ثور».

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۱۸

و على مقربة من هذا الغار فى الجبل بعينه عمود منقطع من الجبل، قد قام شبه الذراع المرتفعة بمقدار شبه القامة، و انبسط فى اعلاه شبه الكف، خارجا عن الذراع، كانّه القبة المبسوطة، بقدرة اللّه عز و جل، يستظل تحتها نحو العشرين رجلا، و تسمى قبّة جبريل، صلىّ اللّه عليه و سلم ...

و ذكروا ان الامام ابا حامد الغزالى دعا اللّه عز و جل بدعوات، و هو فى حرمه الكريم، فى رغبات رفعها الى اللّه جلّ و تعالى، فأعطى بعضا و منع بعضا؛ و كان مما منع نزول المطر وقت مقامه بمكة، و كان تمنى ان يغتسل به تحت الميزاب و يدعو اللّه عز و جل عند بيته الكريم فى الساعة التى أبواب سمائه فيها مفتوحة فمنع ذلك و أجيب دعاؤه فى سائر ما سأله؛ فله الحمد و له الشكر على ما أنعم به علينا؛ و لعل عبدا من عباده الصالحين الوافدين على بيته الكريم خصه اللّه بهذه الكرامة ، فدخلنا جميع المذنبين، فى شفاعته، و اللّه ينفعنا بدعاء المخلصين من عباده و لا يجعلنا ممن شقى بدعائه؛ انه منعم كبير.

ذكر ما خص اللّه تعالى به مكة من الخيرات و البركات

هذه البلدة المباركة سبقت لها و لأهلها الدعوة الخليليّة الابراهيمية و ذلك ان اللّه عز و جل يقول حاكيا عن خليله (ص): «فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ، وَ ارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَراتِ، لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ» و قال عز و جل:

«أَ وَ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبى إِلَيْهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَيْءٍ» فبرها من ذلك فيها ظاهر متصل الى يوم القيامة، و ذلك ان افئدة الناس تهوى اليها من الأصقاع النائية و الاقطار الشاحطة فالطريق اليها ملتقى الصادر و الوارد

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۱۹

ممن بلغته الدعوة المباركة و الثمرات تجبى اليها من كل مكان، فهى اكثر البلاد نعما و فواكه و منافع و مرافق و متاجر.

و لم يكن لها من المتاجر الا اوان الموسم ففيه يجتمع اهل المشرق و المغرب، فيباع فيها فى يوم واحد، فضلا عمّا يتبعه، من الذخائر النفيسة كالجواهر، و الياقوت، و سائر الأحجار، من انواع الطيب: كالمسك و الكافور و العنبر و العود و العقاقير الهندية، الى غير ذلك من جلب الهند و الحبشة ، الى الأمتعة العراقية و اليمانية، الى غير ذلك من السلع الخراسانية، و البضائع المغربية، الى ما لا ينحصر و لا ينضبط، ما لو فرّق على البلاد كلها لا قام لها الاسواق النافقه و لعم جميعها بالمنفعة التجارية، كل ذلك فى ثمانية ايام بعد الموسم، حاشا ما يطرأ بها مع طول الايام من اليمن و سواها؛ فما على الأرض سلعة من السلع و لا ذخيرة من الذخائر الا و هى موجودة فيها مدة الموسم فهذه بركة لا خفاء بها و آية من آياتها التى خصّها اللّه بها.

و اما الارزاق و الفواكه و سائر الطيبات فكنا نظن ان الاندلس اختصت من ذلك بحظّ له المزية على سائر حظوظ البلاد حتى حللنا بهذه البلاد المباركة فألفيناها تغصّ بالنعم و الفواكه كالتين و العنب و الرمان و السفرجل و الخوخ و الأترج و الجوز و المقل و البطّيخ و القثاء و الخيار الى جميع البقول كلها كالباذنجان و اليقطين و السّلجم و الجزر و الكرنب الى سائرها، الى غير ذلك من الرياحين العبقة و المشمومات العطرة، و اكثر هذه البقول كالباذنجان و القثاء و البطّيخ لا يكاد ينقطع مع طول العام، و ذلك من عجيب ما

شاهدناه مما يطول تعداده و ذكره، و لكل نوع من هذه الأنواع فضيلة موجودة فى حاسة الذوق يفضل بها نوعها الموجود فى سائر البلاد، فالعجب من ذلك يطول.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۲۰

و من اعجب ما اختبرناه من فواكهها البطيخ و السفرجل، و كل فواكهها عجب، لكن للبطيخ فيها خاصة من الفضل عجيبة، و ذلك لأن رائحته من اعطر الروائح و أطيبها، يدخل به الداخل عليك فتجد رائحته العبقة قد سبقت اليك، فيكاد يشغلك الاستمتاع بطيب ريّاه عن اكلك اياه، حتى اذا ذقته خيّل اليك انه سثيب بسكر مذاب او بجنى النحل اللباب، و لعل متصفح هذه الاحرف يظن ان فى الوصف بعض الغلو، كلا لعمر اللّه! انه لاكثر مما وصفت و فوق ما قلت، و بها عسل اطيب من الماذىّ المضروب به المثل يعرف عندهم بالمسعودى.

و انواع اللبن بها فى نهاية الطيب، و كل ما يصنع منها من السّمن، فانه لا تكاد تميزه من العسل طيبا و لذاذة، و يجلب اليها قوم من اليمن يعرفون بالسّر و نوعا من الزبيب الاسود و الاحمر فى نهاية الطيب و يجلبون معه من اللوز كثيرا.

و بها قصب السكر ايضا كثير، يجلب من حيث تجلب البقول التى ذكرناها و السكر بها كثير مجلوب و سائر النعم و الطيبات من الرزق و الحمد للّه.

و اما الحلوى فيصنع منها انواع غريبة من العسل و السكر و المعقود على صفات شتى. انهم يصنعون بها حكايات جميع الفواكه الرطبة و اليابسة؛ و فى الاشهر الثلاثة: رجب و شعبان و رمضان يتصل منها اسمطة بين الصفا و المروة، و لم يشاهد احد اكمل منظرا منها لا بمصر و لا بسواها، قد صورت منها تصاوير انسانية و فاكهية و جليت فى منصّات كأنها العرائس و نضّدت بسائر انواعها المنضّدة الملونة، فتلوح كأنها الأزاهر حسنا، فتقيّد الابصار و تستنزل الدرهم و الدينار.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۲۱

و اما لحوم ضأنها فهناك العجب العجيب، قد وقع القطع من كل من تطوّف على الآفاق و ضرب نواحى الأقطار أنها أطيب لحم يؤكل فى الدنيا، و ما ذاك و اللّه اعلم الا لبركة مراعيها؛ هذا على افراط سمنه، و لو كان سواه من لحوم البلاد ينتهى ذلك المنتهى فى السمنة للفظته الأفواه زهما و لعافته و تجنّبته.

و الأمر فى هذا بالضد، كلما ازداد سمنا زادت النفوس فيه رغبة و النفس له قبولا فتجده هنيئا رخصا يذوب فى الفم قبل أن يلاك مضغا، و يسرع لخفته عن المعدة انهضاما؛ و ما ارى ذلك الا من الخواض الغريبة و بركة البلد الأمين قد تكفّلت بطيبه لا شك فيه؛ و الخبر عنه يضيق عن الخبر له، و اللّه يجعل فيه رزقا لمن تشوّق بلدته الحرام، و تمنّى هذه المشاهد العظام، و المناسك الكرام، بعزّته و قدرته.

و هذه الفواكه تجلب اليها من الطّائف، و هى على مسيرة ثلاثة ايام منها، على الرفق و التّؤدة، و من قرى حولها؛ و اقرب هذه المواضع يعرف بأدم، هو من مكة على مسيرة يوم أو ازيد قليلا و هو من بطن الطائف، و يحتوى على قرى كثيرة، و من بطن مرّ، و هو على مسيرة يوم او اقل؛ و من نخلة، و هى على مثل هذه المسافة، و من اوأية بقرب من البلد كعين سليمان و سواها، قد جلب اللّه اليها من المغاربة ذوى البصارة بالفلاحة و الزراعة فاحدثوا فيها بساتين و مزارع، فكانوا أحد الاسباب فى خصب هذه الجهات، و ذلك بفضل اللّه عز و جل، و كريم اعتنائه بحرمه الكريم، و بلده الأمين.

و من اغرب ما ألفيناه فاستمتعنا بأكله و اجرينا الحديث باستطابته و لا سيما لكوننا لم نعهده، الرّطب، و هو عندهم بمنزلة التين الأخضر فى شجرة

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۲۲

يجنى و يؤكل، و هو فى نهاية من الطيب و اللذاذة، لا يسأم التفكه به، و إبّانه عندهم عظيم، يخرج الناس اليه كخروجهم الى الضيعة او

كخروج اهل المغرب لقراهم ايام نضج التين و العنب، ثم بعد ذلك عند تناهى نضجه يبسط على الأرض قدر ما يجف قليلا ثم يركم بعضه على بعض فى السلال و الظّروف و يرفع.

و من صنع اللّه الجميل لنا و فضله العميم علينا أنّا وصلنا الى هذه البلدة المكرمة فألفينا كلّ من بها من الحجاج المجاورين ممّن قدم عهده فيها و طال مقامه بها يتحدث على جهة العجب بأمنها من الحرّابة المتلصّصين فيها على الحاج المختلسين ما بأيديهم و الذين كانوا آفة الحرم الشريف، لا يغفل أحد عن متاعه طرفة عين إلا اختلس من يديه او من وسطه بحيل عجيبة و لطافة غريبة، فما منهم إلا احذّ يد القميص، فكفى اللّه فى هذا العام شرهم إلا القليل، و أظهر أمير البلد التشديد عليهم فتوقف شرّهم، و بطيب هوائها فى هذا العام، و فتور حمارة قيظها المعهود فيها، و انكسار حدّة سمومها، و كنّا نبيت فى سطح الموضع الذى كنا نسكنه، فربما يصيبنا من برد هواء الليل ما نحتاج معه الى دثار يقينا منه. و ذلك مستغرب بمكة.

و كانوا ايضا يتحدثون بكثرة نعيمها فى هذا العام، ولين سعرها، و أنها خارقة للعوائد السالفة عندهم. كان سوم الحنطة اربعة اصواغ بدينار مؤمنىّ، و هى أوبتان من كيل مصر و جهاتها، و الأويتان قد حان و نصف قدح من الكيل المغربى. و هذا السعر فى بلد لا ضيعة فيه و لا قوام معيشة لاهله إلا بالميرة المجلوبة اليه سعر لا خفاء بيمنه و بركته على كثرة المجاورين فيها فى هذا العام و انجلاب الناس اليها و ترادفهم عليها. فحدّثنا غير واحد من المجاورين الذين لهم بها سنون طائلة انهم لم يروا هذا الجمع بها قط، و لا سمع بمثله فيها. و اللّه يجعله جمعا مرحوما معصوما بمنّه.

و ما زال الناس فيها يسلسلون أوصاف احوالها فى هذه السنة و تمييزها عما سلف من السنين، حتى لقد زعموا أنّ ماء زمزم المبارك زاد عذوبة

و لم يكن قبل بصادقها.

و هذا الماء المبارك فى امره عجب، و ذلك أنّك تشربه عند خروجه من قرارته، فتجده فى حاسة الذوق كاللبن عند خروجه من الضرع دفيئا، و تلك فيه من اللّه تعالى آية و عناية، و بركته اشهر من أن تحتاج لوصف و اصف و هو لما شرب له كما قال، صلى اللّه عليه و سلم، أروى اللّه منه كل ظامىء اليه، و بعزته و كرمه.

و من الأمور المجربة فى هذا الماء المبارك أن الانسان ربما وجد مسّ الاعياء، و فتور الاعضاء، إما من كثرة الطواف، او من عمرة يعتمرها على قدميه، او من غير ذلك من الأسباب المؤدية الى تعب البدن، فيصب من ذلك الماء على بدنه فيجد الراحة و النشاط لحينه و يذهب عنه ما كان أصابه.

شهر جمادى الآخرة

استهل هلال ليلة الاربعاء، و هو الحادى و العشرون من شهر ستنبر العجمى، (سبتمبر)، و نحن بالحرم المقدس، زاده اللّه تعظيما و تشريفا.

و فى صبيحة الليلة المذكورة وافى الأمير (مكثر) باتباعه و أشياعه، على العادة السالفة المذكورة فى الشهر الأول، و على ذلك الرسم بعينه، و الزمزمى المفرد بثنائه و الدعاء له فوق قبّة زمزم، يرفع عقيرته بالدعاء و الثناء عند كل شوط يطوفه الأمير، و القراء أمامه، الى أن فرغ من طوافه، و اخذ فى طريق انصرافه.

و لاهل هذه الجهات المشرقية كلها سيرة حسنة، عند مستهل كل شهر من شهور العام، يتصافحون و يهنىء بعضهم بعضا و يتغافرون و يدعو بعضهم لبعض، كفعلهم فى الأعياد؛ هكذا دائما. و تلك طريقة من الخير واقعة فى النفوس، تجدد الاخلاص و تستمد الرحمة من اللّه، عز و جل، بمصافحة المؤمنين بعضهم بعضا و بركة ما يتهادونه من الدعاء، و الجماعة رحمة، و دعاؤهم من اللّه بمكان.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۲۴

جمال الدين و آثاره السنية

و لهذه البلدة المباركة حمّامان: احدهما ينسب للفقيه الميّانشىّ، احد الأشياخ المحلّقين بالحرم المكرّم؛ و الثانى، و هو الأكبر، ينسب لجمال الدين، و كان هذا الرجل كصفته جمال الدين، له، رحمه اللّه، بمكة و المدينة، شرّفهما اللّه، من الآثار الكريمة و الصنائع الحميدة و المصانع المبنية فى ذات اللّه المشيدة ما لم يسبقه احد اليه فيما سلف من الزمان و لا أكابر الخلفاء فضلا عن الوزراء.

و كان رحمه اللّه، وزير صاحب الموصل، تمادى على هذه المقاصد السنية المشتملة على المنافع العامة للمسلمين فى حرم اللّه تعالى و حرم رسوله، صلى اللّه عليه و سلم، اكثر من خمس عشرة سنة، و لم يزل فيها باذلا أموالا لا تحصى فى بناء رباع بمكة مسبّلة فى طرق الخير و البر، مؤبّدة، محبّسة، و اختطاط صهاريج للماء، و وضع جباب فى الطرق يستقر فيها ماء المطر، الى تجديد آثار من البناء فى الحرمين الكريمين.

و كان من اشرف افعاله أن جلب الماء الى عرفات و قاطع عليه العرب بنى شعبه، سكان تلك النواحى المجلوب منها الماء، بوظيفة من المال كبيرة على ان لا يقطعوا الماء عن الحاج، فلما توفى الرجل، رحمة اللّه عليه، عادوا الى عادتهم الذميمة من قطعه.

و من مفاخره و مناقبه أيضا أنه جعل مدينة الرسول، صلى اللّه عليه و سلم، تحت سورين عتيقين أنفق فيهما أموالا لا تحصى كثرة. و من أعجب ما وفقه اللّه تعالى إليه أنه جدّد ابواب الحرم كلها. و جدّد باب الكعبة المقدسة و غشّاه فضة مذهبة و هو الذى فيه الآن حسبما تقدّم وصفه، و جلّل العتبة المباركة بلوح ذهب إبريز، و قد تقدّم ذكره ايضا. فأخذ الباب القديم و أمر بأن يصنع له منه تابوت يدفن فيه. فلما حانت وفاته أوصى بأن يوضع فى ذلك التابوت المبارك و يحجّ به ميّتا. فسيق الى عرفات

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۲۵

و وقف به على بعد و كشف عن التابوت، فلما أفاض الناس أفيض به و قضيت له المناسك كلها و طيف به طواف الأفاضة، و كان الرجل، رحمه اللّه، لم يحجّ فى حياته. ثم حمل إلى مدينة الرسول، صلى اللّه عليه و سلم، و فتح فيها موضع يلاحظ الروضة المقدسة، و أبيح له ذلك على شدة الضنانة بمثله لسابق أفعاله الكريمة و دفن فى تلك الروضة و أسعده اللّه بالجوار الكريم، و خصّه بالمواراة فى تربة التقديس و التعظيم، و اللّه لا يضيع أجر المحسنين، و سنذكر تاريخ وفاته إذا وقفنا عليه من التاريخ الثابت فى روضته، إن شاء اللّه عز و جل، و هو ولىّ التيسير، لا ربّ غيره.

و لهذا الرجل، رحمه اللّه، من الآثار السنية و المفاخر العلية التى لم يسبقه إليها الأكابر الأجواد، و سراة الأمجاد فيما سلف من الزمان ما يفوت الاحصاء و يستغرق الثناء، و يستصحب طول الأيام من الألسنة الدعاء، و حسبك أنّه اتسع اعتناؤه بإصلاح عامة طرق المسلمين بجهة المشرق من العراق إلى الشام إلى الحجاز، حسبما نذكره، و أستنبط المياه، و بنى الجباب، و اختطّ المنازل فى المفازات و أمر بعمارتها مأوى لأبناء السبيل و جميع المسافرين، و ابتنى بالمدن المتصلة من العراق إلى الشام فنادق عيّنها لنزول الفقراء أبناء السبيل الذين يضعف أحدهم عن تأدية الأكرية، و أجرى على قومه تلك الفنادق و المنازل ما يقوم بمعيشتهم، و عيّن لهم ذلك فى وجوه تأبّدت لهم، فبقيت تلك الرسوم الكريمة ثابتة على حالها إلى الآن. فسارت بجميل ذكر هذا الرجل الرفاق و ملئت ثناء عليه الآفاق.

و كان مدة حياته بالموصل، على ما أخبرنا به غير واحد من ثقات الحجاج التجار ممن شاهد ذلك، قد اتخذ دار كرامة واسعة الفناء فسيحة الأرجاء يدعو إليها كل يوم الجفلى من الغرباء فيعمهم شبعا و ريّا، و يرد الصادر

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۲۶

و الوارد من أبناء السبيل فى ظله عيشا هنيئا، لم يزل على ذلك مدة حياته، رحمه اللّه، فبقيت آثاره مخلدة، و أخباره بالسنة الذكر مجددة، و قضى حميدا سعيدا، و الذكر الجميل للسعداء حياة باقية، و مدة من العمر ثانية، و اللّه الكفيل بجزاء المحسنين إلى عباده،

فهو أكرم الكرماء، و أكفل الكفلاء.

الأمور المحظورة فى الحرم

من الأمور المحظورة فى الحرم الشريف، زاده اللّه تعظيما و تكريما، أن النفقة فيه ممنوعة، لا يجد المتأجّر من ذوى اليسار إليها سبيلا فى تجديد بناء أو اقامة حطيم أو غير ذلك مما يختص بالحرم المبارك.

و لو كان الأمر مباحا فى ذلك لجعل الراغبون فى نفقات البر من أهل الجدة حيطانه عسجدا و ترابه عنبرا، لكنهم لا يجدون السبيل إلى ذلك، فمتى ذهب أحد أرباب الدنيا إلى تجديد أثر من آثاره أو إقامة رسم من رسومه اخذ اذن الخليفة فى ذلك. فان كان مما ينقش عليه او يرسم فيه طرز باسم الخليفة و نفوذ امره بعمله و لم يذكر اسم المتولى لذلك. و لا بد مع ذلك من بذل حظ وافر من النفقة لأمير البلد ربما يوازى قدر المنفوق فيه، فتتضاعف المؤونة على صاحبه و حينئذ يصل الى غرضه من ذلك.

و من اغرب ما اتفق لأحد دهاة الأعاجم، ذوى الملك و الثراء، انه وصل الى الحرم الكريم، مدة جد هذا الأمير مكثر، فرأى تنور بئر زمزم و قبتها على صفة لم يرضها فاجتمع بالأمير و قال اريد ان اتأنق فى بناء تنور زمزم و طيه و تجديد قبته و ابلغ فى ذلك الغاية الممكنة و انفق عليه من صميم مالى، و لك على فى ذلك شرط ابلغ بالتزامه لك الغرض المقصود، و هو أن تجعل ثقة من قبلك يقيد مبلغ النفقة فى ذلك. فاذا استوفى البناء التمام،

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۲۷

و انتهت النفقة منتهاها. و تحصلت محصاه، بذلك لك مثلها جزاء على اباحتك لى ذلك.

فاهتز الأمير طمعا، و علم ان النفقة فى ذلك تنتهى الى آلاف من الدنانير، على الصفة التى وصفها له، فأباح له ذلك، و ألزمه مقيدا بحصى قليل الانفاق و كثيرة. و شرع الرجل فى بنائه و احتفل و استفرغ الوسع و تأنق و بذل المجهود، فعل من يقصد بفعله ذات اللّه عز و جل و يقرضه قرضا حسنا، و المقيد يسود طوامير بالتقييد. و الأمير يتطلع الى ما لديه، و يؤمل لقبض تلك النفقات الواسعة بسط يديه، الى أن فرغ البناء على الصفة التى تقدم ذكرها اولا عند ذكر بئر زمزم وقبته، فلما لم يبق الا ان يصبح صاحب النفقة بالحساب و يستقضى منه العدد المجتمع فيها، خلا منه المكان، و اصبح فى خبر كان، و ركب الليل جملا، و اصبح الأمير يقلب كفيه، و يضرب اصدريه، و لم يمكنه ان يحدث فى بناء وضع فى حرم اللّه تعالى حادثا يحيله او نقضا يزيله، و فاز الرجل بثوابه و تكفل اللّه به فى انقلابه و تحسين مآبه: «و ما انفقتم من شى فهو يخلفه و هو خير الرازقين» و بقى خبر هذا الرجل مع الأمير يتهادى غرابة و عجبا و يدعو له كل شارب من ذلك الماء المبارك.

شهر رجب الفرد

اشارة

استهل هلاله ليلة الخميس الموفى عشرين لشهر اكتوبر بشهادة خلق كثير من الحجاج المجاورين و الأشراف اهل مكة، ذكروا انهم رأوه بطريق العمرة و من جبل قعيقعان و جبل ابى قبيس، فثبتت شهادتهم بذلك عند الأمير و القاضى، و اما من المسجد الحرام فلم يبصره أحد. و هذا الشهر المبارك عند اهل مكة موسم من المواسم المعظمة و هو اكبر اعيادهم، و لم يزالوا على ذلك قديما و حديثا يتوارثه خلف عن سلف متصلا ميراث ذلك الى الجاهلية لأنهم كانوا يسمونه منصل الأسنة. و هو أحد الأشهر الحرم

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۲۸

و كانوا يحرمون القتال فيه و هو شهر اللّه الأصم، كما جاء فى الحديث عن رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم.

العمرة الرجبية

و العمرة الرجبية عندهم اخت الوقفة العرفية، لانهم يحتفلون لها الاحتفال الذى لم يسمع بمثله و يبادر اليها اهل الجهات المتصلة بها فيجتمع لها خلق عظيم لا يحصيهم الا اللّه عز و جل فمن لم يشاهدها بمكة لم يشاهد مرأى يستهدى ذكره غرابة و عجبا. شاهدنا من ذلك امرا يعجز الوصف عنه، و المقصود منه الليلة التى يستهل فيها الهلال مع صبيحتها. و يقع الاستعداد لها من قبل ذلك بأيام، فأبصرنا من ذلك ما نصف بعضه على جهة الاختصار.

و ذلك لأنّا عاينا شوارع مكة و ازقتها، من عصر الاربعاء. و هى العشية التى ارتقب فيها الهلال، قد امتلأت هوادج مشدودة على الابل مكسوة بأنواع كسا الحرير و غيرها من ثياب الكتان الرفيعة بحسب سعة احوال اربابها و وفرهم، كل يتأنق و يحتفل بقدر استطاعته، فأخذوا فى الخروج الى التنعيم ميقات المعتمرين فسالت تلك الهوادج فى اباطح مكة و شعابها، و الابل قد زينت تحتها بأنواع التزيين و اشعرت بغير هدى بقلائد رائقة المنظر من الحرير و غيره. و ربما فاضت الاستار التى على الهوادج حتى تسحب اذيالها على الأرض.

و من اغرب ما شاهدناه من ذلك هو هودج الشريفة جمانة بنت فليتة عمة الأمير مكثر، فان اذيال ستره كانت تنسحب على الأرض انسحابا و غيره من هوادج حرم الأمير و حرم قواده، الى غير ذلك من هوادج لم نستطع تقييد عدتها عجزا عن الاحصاء. فكانت تلوح على ظهور الابل كالقباب المضروبة فيخيل للناظر اليها أنها محلة قد ضربت ابنيتها من كل لون رائق.

و لم يبق ليلة الخميس المذكور بمكة الا من خرج للعمرة من اهلها و من

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۲۹

المجاورين، و كنا فى جملة من خرج ابتغاء بركة الليلة العظيمة فكدنا لا نتخلص الى مسجد عائشة من الزحام و انسداد ثنيات الطريق بالهوادج.

و النيران قد اشعلت بحافتى الطريق كله، و الشمع يتقد بين ايدى الابل التى عليها هوادج من يشار اليه من عقائل نساء مكة.

فلما قضينا العمرة و طفنا و جئنا للسعى بين الصفا و المروة، و قد مضى هدء من الليل، ابصرناه كله سرجا و نيرانا و قد غص بالساعين و الساعيات على هوادجهن، فكنا لا نتخلص الا بين هوادجهن و بين قوائم الابل لكثرة الزحام و اصطكاك الهوادج بعضها على بعض. فعاينا ليلة هى اغرب ليالى الدنيا، فمن لم يعاين ذلك لم يعاين عجبا يحدث به و لا عجبا يذكره مرأى الحشر يوم القيامة لكثرة الخلائق فيه، محرمين ملبين، داعين الى اللّه عز و جل ضارعين و الجبال المكرمة التى بحافتى الطريق تجيبهم بصداها، حتى سكّت المسامع، و سكبت من هول تلك المعاينة المدامع، و ذابت القلوب الخواشع.

و فى تلك الليلة ملىء المسجد الحرام كله سرجا فتلألأ نورا، و عند ثبوت رؤية الهلال عند الأمير امر بضرب الطبول و الدبادب و البوقات اشعارا بأنها ليلة الموسم.

و يوضح ابن جبير انه فى صبيحة ليلة الخميس خرج الى العمرة فى احتفال لم يسمع بمثله انحشد له اهل مكة على بكرة ابيهم فخرجوا على مراتبهم قبيلة قبيلة و حارة و حارة شاكّين فى الأسلحة فرسانا و رجّالة فاجتمع منهم عدد لا يحصى كثرة ... فكانوا يخرجون على ترتيب عجيب، فالفرسان منهم يخرجون بخيلهم و يلعبون بالاسلحة عليها ... فلما كان اليوم الثانى، و هو يوم الجمعة، كان طريق العمرة فى العمارة قريبا من أمسه، راكبين

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۳۰

و ماشين، رجالا و نساء، و النساء الماشيات المتأجّرات كثيرات يسابقن الرجال فى تلك السبيل المباركة، تقبّل اللّه من جميعهم بمنّه.

و فى اثناء ذلك يلاقى الرجال بعضهم بعضا فيتصافحون و يتهادون الدعاء و التغافر بينهم، و النساء كذلك. و الكل منهم قد لبس افخر ثيابه و احتفل إحتفال اهل البلاد للأعياد؛ و اما اهل البلد الأمين فهذا الموسم عيدهم، له يعبأون و له يحتفلون، و فى المباهاة فيه

يتنافسون و له يعظّمون، و فيه تنفق اسواقهم و صنائعهم، يقدّمون النظر فى ذلك و الاستعداد له بأشهر.

ثم يستطرد الرحالة ابن جبير للتحدث عن قبائل من اليمن تعرف بالسرو و هم اهل جبال حصينة باليمن تعرف بالسراة كانها مضافة لسراة الرجال ...

و تجمع ميرتهم بين الطعام و الإدام و الفاكهة ... و لو لا هذه الميرة لكان اهل مكة فى شظف من العيش؛ و من العجب فى امر هؤلاء المائرين انهم لا يبيعون من جميع ما ذكرناه بدينار و لا بدرهم، انما يبيعونه بالخرق و العباءات و الشّمل، فأهل مكة يعدّون لهم من ذلك مع الأقنعة و الملاحف المتان و ما اشبه ذلك مما يلبسه الاعراب.

و العمرة فى هذا الشهر كله متصلة ليلا و نهارا ... فاذا كان اليوم التاسع و العشرون منه أفرد للنساء خاصة، فيظهر للنساء بمكة فى ذلك اليوم احتفال عظيم فهو عندهم يوم زينتهم المشهور المستعدّ له.

عمرة الاكمة

و فى ليلة الثلاثاء السابع و العشرين منه، اعنى من رجب، ظهر لأهل مكة ايضا احتفال عظيم فى الخروج الى العمرة لم يقصر عن الاحتفال الأوّل ...

و هذه العمرة يسمونها عمرة الأكمة؛ و الأصل فى هذه العمرة الأكمية عندهم ان عبد اللّه بن الزبير لما فرغ من بناء الكعبة المقدسة خرج ماشيا حافيا معتمرا

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۳۱

و اهل مكة معه ... و جعل طريقه على ثنيّة الحجون المفضية الى المعلى التى كان دخول المسلمين يوم فتح مكّة منها ... فبقيت تلك العمرة سنة عند اهل مكة فى ذلك اليوم بعينه و كان يوم عبد اللّه، رضى اللّه عنه، مذكورا مشهورا لانه اهدى فيه كذا و كذا بدنة ... و لم يبق من اشراف مكة و ذوى الاستطاعة فيها الا من اهدى و اقام اهلها اياما يطعمون و يطعمون و يتنعّمون و ينعمون شكرا للّه عز و جل.

يوم طواف النساء.

و فى اليوم التاسع و العشرين منه و هو يوم الخميس افرد البيت للنساء خاصة ... و لم تبق امرأة بمكة الا حضرت المسجد الحرام ذلك اليوم ...

و ظهر من تزاحمهن ما ظهر من السّرو اليمنيين مدة مقامهم بمكة و صعودهم يوم فتح البيت المقدس .

زيادة ماء زمزم

و فى يوم الجمعة الثانى من ذلك اليوم اصبح بالحرم امر عجيب و ذلك انه لم يبق بمكة صبيّ إلّا و صبحه و اجتمعوا كلهم فى قبة زمزم، و ينادون بلسان واحد: هللوا و كبروا يا عباد اللّه فيهلل الناس و يكبرون ... و الناس و النساء يزدحمون على قبة البئر المباركة لأنهم يزعمون بل يقطعون قطعا جهليا لا قطعا عقليا، ان ماء زمزم يفيض ليلة النصف من شعبان ... و كان من الاتفاق ان اعتنينا بهذا الأمر لغلبة الاستفاضة التى سمعناها فى ذلك و استمرارها مع سوالف الأزمنة عند عوام أهل مكة؛ فتوجه منا ليلة الجمعة من أدلى دلوه فى البئر المباركة الى ان ضرب فى صفح الماء و انتهى الحبل الى حافة التنور و عقد فيه عقدا يصح عندنا القياس به فى ذلك، فلما كان فى

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۳۲

صبيحتها و تنادى الناس بالزيادة، الزيادة الظاهرة، خلص احدنا فى ذلك الزحام على صعوبة و معه من استصحب الدلو و ادلاه فوجد القياس على حاله لم ينقص و لم يزد، بل كان من العجب ان عاد للقياس ليلة السبت فالقاه قد نقص يسيرا لكثرة ما امتاح الناس منه ذلك اليوم .

و هذه الليلة المباركة، اعنى ليلة النصف من شعبان عند اهل مكة معظمة للاثر الكريم الوارد فيها، فهم يبادرون فيها الى اعمال البر من العمرة و الطواف و الصلاة افرادا و جماعة .

شهر رمضان

اشارة و يرى ابن جبير رمضان فى مكة و قد استهل هلاله ليلة الاثنين التاسع عشر لكانون الاول (ديسمبر)، و كان صيام اهل مكة له يوم الاحد بدعوى فى رؤية الهلال لم تصح.

و المؤذن الزمزمى يتولى التسحير فى الصومعة التى فى الركن الشرقى من المسجد بسبب قربها من دار الامير ... و فى ديار مكة كلها سطوح مرتفعة، فمن لم يسمع نداء التسحير ممن يبعد مسكنه من المسجد يبصر قنديلين يقدان فى اعلى الصومعة فاذا لم يصبر هما علم ان الوقت قد انقطع .

و يشير الى طواف الأمير «مكثر» ليلة الثلاثاء الثانى من الشهر مع العشى مودعا ... و المتحدّث به فى وجهته قصد اليمن لاختلاف وقع فيها وفتنة حدثت من امرائها، لكن وقع فى نفوس المكيين منه ايجاس خيفة و استشعار خشية؛ و فى ضحوة يوم الاربعاء الثالث من الشهر المبارك سمعت دبادب الامير مكثر و أصوات نساء مكة يولولن عليه ... و كان هذا اليوم بمكة من الايام الهائلة المنظر العجيبة المشهد الغريبة الشأن.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۳۳

تراويح رمضان

و هذا الشهر المبارك قد ذكرنا اجتهاد المجاورين للحرم الشريف فى قيامه و صلاة تراويحه و كثرة الائمة فيه، و كل وتر من الليالى العشر الأواخر يختم فيها القرآن، فاولها ليلة احدى و عشرين، ختم فيها احد ابناء أهل مكة و حضر الختمة القاضى و جماعة من الاشياخ فلما فرغوا منها قام الصبى فيهم خطيبا، ثم بعد ذلك ليلة ثلاث و عشرين و كان المختم فيها احد ابناء المكيين ذوى اليسار غلاما لم يبلغ سنّه الخمس عشرة سنة فاحتفل ابوه لهذه الليلة احتفالا بديعا .

و يذكر ابن جبير بعض احتفالات مكه و يوضّح كيف احدق بشرفات الحرم كلّها صبيان مكة، و قد وضعت بيد كل منهم كرة من الخرق المشبعة سليطا فوضعوها متقدة فى رؤوس الشرفات و اخذت كل طائفة منهم ناحية من نواحيها الاربع فجعلت كل طائفة تتبارى صاحبتها فى سرعة ايقادها، فيخيل للناظر ان النار تشب من شرفة الى شرفة لخفاء أشخاصهم وراء الضوء المرتمى الابصار.

و يصف لنا عيد الفطر فى مكة و مناسك الحج و انفصال الحاج الى مكة، و يبين وصوله الى مكة قريب الظهر، و يروى قصة صعوده الى جبل ثور لمعاينة الغار المبارك و ولوجه إياه من الموضع الذى يعسر الولوج منه على البعض من الناس تبركا بمس بشرة البدن بموضع مسه الجسم المبارك لان مدخل النبى (ص) كان منه، و كان الاعتقاد السائد ان الذى لا يستطيع و لوجه من هذا الموضع مولود لغير رشدة ... و هذا الجبل صعب المرتقى جدا يقطع الانفاس تقطيعا لا يكاد يبلغ منتهاه الا و قد القى بالايدى اعياء

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۳۴

و كلالا و هو من مكة على مقدار ثلاثة اميال، و على ذلك القدر هو جبل حراء منها .

و فى يوم الجمعة بعده كان وصول السرو اليمنيين فى عدد كثير مؤملين زيارة قبر الرسول (ص) و قد جلبوا ميرة الى مكة على عادتهم فاستبشر الناس بقدومهم استبشارا كثيرا. حتى أنهم اقاموه عوض نزول المطر

و يعرض لذكر مسجد مولد النبى، و دار خديجة الكبرى و فيها مولد فاطمة (ع) و هو بيت صغير مائل للطول، و فى البيت المذكور مولد الحسن و الحسين ابنيها (ع) و مسقط شلو الحسن لاصق بمسقط شلو الحسين و عليهما حجران مائلان الى السواد كأنهما علامتان للمولدين المباركين الكريمين.

و يستطرد ابن جبير ليذكر لنا مجيء السرويين اليمنيين و توجههم لزيارة التربة المباركة طيبة من عند رسول اللّه (ص) و وصولهم فى اسرع مدة اذ قطعوا الطريق من مكة الى المدينة فى يسير ايام، و وصول طوائف أخرى للحج خاصة لضيق الوقت عن الزيارة فاقاموا بمكة .

و يتحدث عن فساد ظهر فى اشرف بقاع الأرض فى زمانه فقد عزل زعيم الشيبنى عن منصبه و لم يلبث ان عاد اليه بخمسمائة دينار مكية استقرضها و دفعها لاولى الأمر.

و يعرج على الحديث عن دار الخيزران التى كان منها منشأ الاسلام و هى بازاء الصفا و يلاصقها بيت صغير عن يمين الداخل اليها كان مسكن بلال (رضى)

و فى أيام ابن جبير وصل الامير عثمان بن على صاحب عدن خرج منها فارا أمام سيف الاسلام ... و وصل مكة بعير موقرة متاعا و مالا دخلت

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۳۵

على اعين الناس الى داره التى ابتناها بها بعد ان قدّم نفيس ذخائره و مدخّر ماله و جملة رقيقه و خدمه ليلا.

و لما كان يوم الاربعاء السابع من ذى الحجة، وصل المبشّر و كانت نفوس اهل مكة قد اوجست خيفة لبطئه حذرا من حقد الخليفة على اميرهم مكثر لمذموم فعل صدر عنه، فكان وصول هذا البشير امانا و تسكينا للنفوس الشاردة فوصل مبشرا و مؤنسا و اعلم برؤية الهلال ليلة الخميس المذكور؛ فلما كان يوم الخميس بكّر الناس بالصعود الى منى و تمادوا منها الى عرفات ... و اتصل صعود الناس ذلك اليوم كله و الليلة كلها الى يوم الجمعة كله فاجتمع بعرفات من البشر جمع لا يحصى عدده الا اللّه عز و جل؛ و مزدلفة بين منى و عرفات، من منى اليها ما من مكة الى منى، و ذلك نحو خمسة أميال و منها الى عرفات مثل ذلك او اشف قليلا و تسمى المشعر الحرام ...

و يشير فى كلامه الى «جبل الرحمة» و الى وصول الأمير العراقى

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۳۶

و الامراء الأعاجم الخراسانيين ثم يرجع القول الى استيفاء حال النفر عشية الوقفة المذكورة بعرفات، و ذلك ان الناس نفروا منها بعد غروب الشمس فوصلوا مزدلفة مع العشاء الآخرة فجمعوا بها بين العشائين.

و لما كان اليوم الثالث يتعجل الناس فى الانحدار الى مكة بعد ان كان كمل لهم رمى تسع و اربعين جمرة- نفروا الى مكة فمنهم من صلى العصر بالأبطح، و منهم من صلّاها بالمسجد الحرام ... و قد كانت فى يوم الانحدار المذكور بين سودان اهل مكة و الاتراك العراقيين جولة و هوشة وقعت فيها جراحات و سلّت السيوف فوقى اللّه شر تلك الفتنة بتسكينها سريعا .

و يستطرد الرحالة الشهير فى حديثه الى «كسوة الامير العراقى للكعبة» ففى يوم السبت، يوم النحر، سيقت كسوة الكعبة المقدسة من محلة الامير العراقى الى مكة على اربعة جمال.

ثم يتكلم عن «يوم الاعاجم العراقيين» و «سوق المسجد الحرام» ...

لينتهى الى «يوم الرحيل» ففى عشى يوم الاحد و هو اول ابريل (نيسان) كان مسير ابن جبير و صحبه الى محلة الامير العراقى بالزاهر، و هو على نحو الميليين من البلد و قد كمل اكتراؤهم الى الموصل و هى على بعد عشرة ايام من بغداد ... فكانت مدة مقامهم بمكة من يوم وصولهم اليها و هو يوم الخميس الثالث عشر لربيع الآخر من سنة ۷۹ الى يوم اقلاعهم و هو يوم الخميس الثانى و العشرين لذى الحجة من السنة المذكورة ثمانية اشهر و ثلث أشهر.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۳۷

ابن بطوطه و مكة

و بعد نحو مائتى سنة من وفاة ابن جبير اى فى سنة ۷۲۵ ه على وجه الضبط قام الرحالة ابن بطوطة (۷۰۳ ه- ۷۷۹ ه) بالحج الى مكة و زيارة قبر الرسول (ص) و يبدو ان الحج عند المسلمين كان الدافع الاكبر لظهور فكرة السياحات فى مختلف اقطار العالم و وضع المؤلفات فيها؛ و قد ولد ابن بطوطه فى طنجه و خرج من بلده فى سن الثانية و العشرين ثم أخذ فى الرحلة فبدأ بالحرمين الشريفين فالشام فالعراق ففارس فآسيا الصغرى فجنوب روسيا فافغانستان الى دهلى و الصين و قد استهل ابن بطوطة كلامه فى مكة بقوله :

«و هى مدينة كبيرة متصلة البنيان مستطيلة فى بطن واد تحف به الجبال فلا يراها قاصدها حتى يصل اليها ، و تلك الجبال المطلة عليها ليست بمفرطة الشموخ، و (الاخشبان) من جبالها هما جبل أبى قبيس و هو

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۳۸

فى جهة الجنوب منها و جبل قيقعان و هو فى جهة منها و فى الشمال منها الجبل الاحمر و من جهة ابى قبيس اجياد الاكبر، و اجياد الاصغر، و هما شعبان و الحندمة و هى جبل (و المناسك كلها منى، و عرفه و المزدلفة) بشرقى مكة، و لمكة من الأبواب ثلاثة: باب المعلى باعلاها، و باب الشبيكة من اسفلها، و يعرف ايضا بباب العمرة و هو الى جهة المغرب و عليه طريق المدينة، و مصر، و الشام، و جده و منه يتوجه الى التنعيم و باب المسفل و هو من جهة الجنوب ...

و يمضى ابن بطوطه بهذا الاسلوب فى وصف جغرافية مكة و طوبو غرافيتها اى تخطيطها و ما يتوفر فيها من الفواكه و الحاصلات، و هو فى اكثر ما يذكر ينقل من رحلة ابن جبير اما مباشرة بالحرف الواحد أو باقتباس المعنى؛ و ابن بطوطه اكثر تفصيلا و متعة لكثرة ما يورد من حكايات و نوادر و حوادث و يلوح لنا انه اقل صدقا و دقة.

و بعد ان يذكر «المسجد الحرام» و موقعه ينتقل الى ذكر «الكعبة» و «الميزاب» و «الحجر الأسود» و «المقام الكريم » و «الحجر و المطاف» و «زمزم» فيذكر ان قبة بئر زمزم تقابل الحجر الأسود و بينهما اربع و عشرون خطوة و المقام الشريف عن يمين القبة و من ركنها اليه عشر خطى- و داخل القبة مفروش بالرخام الابيض، و تنور البئر المباركة فى وسط القبة مائلا الى الجدار المقابل للكعبة الشريفة و هو من الرخام البديع الالصاق مفروغ بالرصاص ... و عمق البئر احدى عشرة قامة، و هم يذكرون ان ماءها يتزايد فى كل ليلة جمعة . موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۳۹

ثم ينتقل الرحالة الى ذكر «أبواب المسجد الحرام و ما دار به من المشاهد و «الصفا و المروة» و ذكر «الجبّانة المباركة» خارج باب المعلى و يعرف ذلك الموضع بالحجون و اياه عنى الحارث بن مضاض الجرهى بقوله (من الطويل): كان لم يكن بين الحجون الى الصفا .. الخ و بهذه الجبانة مدفن الجم الغفير من الصحابة و التابعين، و العلماء، و الصالحين و الاولياء، الا ان مشاهدهم دثرت و ذهب عن أهل مكة علمها فلا يعرف منها الا القليل فمن المعروف منها قبر خديجة بنت خويلد، و بمقربة منه قبر ابى جعفر المنصور، و فيها الموضع الذى صلب فيه عبد اللّه بن الزبير.

و يستطرد ابن بطوطه فيلم «ببعض المشاهد خارج مكة» فمنها (الحجون) الذى ألمعنا اليه و منها (المحصب) و هو ايضا الابطح و هو يلى الجبانة المذكورة و فيه خيف بنى كنانة الذى نزل به رسول اللّه (ص) و منها ذو طوى و هو واد يهبط على قبور المهاجرين التى

بالحصحاص دون ثنية كداء.

و يعرّج على ذكر «الجبال المطيفة بمكة» و يأتى على خبر الغار المبارك و كيف ان بعضهم لا يدخله خوف الفضيحة التى ذكرها ابن جبير فيكتفى بالصلاة امامه و لكن ابن بطوطه يكشف سر استطاعة او عدم استطاعة الولوج الى الغار و ذلك ان من دخل من ذلك الشق منبطحا على وجهه وصل رأسه الى ذلك الحجر فلم يمكنه التولج و لا يمكنه ان ينطوى الى العلو و وجهه و صدره يليان الارض فذلك هو الذى ينشب و لا يخلص الا بعد الجهد و الجذب الى خارج و من دخل مستلقيا على ظهره امكنه لأنّه اذا وصل رأسه الى الحجر المعترض رفع رأسه و استوى قاعدا فكان ظهره

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۴۰

مستندا الى الحجر المعترض و اوسطه فى الشق و رجلاه من خارج الغار ثم ينهض قائما بداخل الغار.

و لا ينسى ابن بطوطه سرد «فضائل اهل مكه» من ايثارهم الضعفاء و المنقطعين و حسن الجوار، و العفة، و الظرف، و النظافة؛ ثم يذكر «المجاورين بمكة»

و يعرج على «ذكر عادة اهل مكة فى صلواتهم و مواضع ائمتهم»، و عادتهم فى الخطبة و صلاة الجمعة، و فى استهلال الشهور، و فى شهر رجب، و عمرة رجب و «احرام الكعبة»، ثم يسرد شعائر الحج و اعماله و يتحدث عن «كسوة الكعبة»، مختتما الحديث بانفصاله عن مكة المكرمة بصحبته امير ركب العراق البهلوان محمد الحويح الموصلى .

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۴۱

مكة فى رحلة ناصر خسرو الموسومة ب (سفر نامى)

رحلة ناصر خسرو علوى، من الرحلات المشهورة التى دونت بالفارسية و قام بترجمتها الدكتور يحى الخشاب ، و هى رحلة شاعر فارسى تقع حوادثها بين سنة ۴۳۷ و ۴۴۴ ه فتكون بذلك قد سبقت رحلة ابن جبير بما ينوف على المائة عام، و هى بدون شك تقف فى مصاف رحلة ابن فضلان رسول المقتدر باللّه العباسى الى بلاد البلغار القديمة، و رحلة ابن جبير فى القرن السادس للهجرة و رحلة ابى الحسن الهروى الموصلى فى القرن ذاته و رحلة البلوى المغربى و ابن بطوطة المغربى فى القرن الثامن للهجرة.

بلغ ناصر خسرو مكه فى يوم الأحد السادس من ذى الحجة و نزل

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۴۲

عند باب الصفا، و كان بمكة قحط ، فكانت الاربعة امنان من الخبز بدينار نيسابورى، و قد هاجر منها المجاورون و لم يفد عليها حاج من اى بلد، و قد ادى فريضة الحج يوم الاربعاء فى عرفات، و لبث بمكة يومين؛ و خرج من الحجاز خلق كثير مما أصابهم من الجوع و الفقر، و تفرقوا فى البلاد؛ ثم توجه ناصر خسرو ناحية مصر و قد هاجر اليها من الحجاز فى ذلك العام خمسة و ثلاثون الف آدمى.

و فى شهر رجب سنة اربعين و اربعمائة (ديسمبر سنة ۱۰۴۸) قرأوا على الناس مرة اخرى مثالا للسلطان بان فى الحجاز قحطا، و ليس من الخير ان يسافر الحجاج، فلم يسافروا ، و لكن السلطان لم يقصر البتة فى ارسال ما كان يرسله كل سنة من الكسوة و اجور الخدم و الحاشية، و امراء مكة و المدينة وصلة امير مكة و قد كانت ثلاثة آلاف دينار فى الشهر، و كانت ترسل اليه الخيول و الخلع مرتين فى السنة و عهد بهذا فى هذه السنة الى رجل اسمه القاضى عبد اللّه، من قضاة الشام و قد ذهب ناصر خسرو معه عن طريق القلزم و هذه هى رحلته الثانية، الى مكة، و كان موعد الحج قد قرب كثيرا و كان الجمل يؤجر بخمسة دنانير فسار مسرعا ...

فبلغها فى الثامن من ذى الحجة وادى فريضة الحج و قد حدث ان قافلة عظيمة اتت للحج من بلاد المغرب، و فى اثناء عودة حجاجها، عند باب المدينة المنورة، طلب العرب «الخفارة» منهم، فقامت الحرب بينهم، و قتل من المغاربة اكثر من الفى رجل، و لم يعد كثير منهم الى المغرب.

و من طريف ما يذكره ناصر خسرو ان جماعة من أهل خراسان قاموا عن طريق الشام و مصر فبلغوا المدينة فى سفينة، و قد بقى عليهم ان يقطعوا مائة فرسخ و اربعة حتى عرفات و هم فى السادس من ذى الحجة،

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۴۳

فقالوا: ان كلا منا يدفع اربعين دينارا لمن يرحلنا الى مكة فى هذه الأيام الثلاثة الباقية لنلحق الحج، فجاء الاعراب و اوصلوهم الى عرفات فى يومين و نصف يوم، و اخذوا اجورهم ذهبا، و كانوا قد شدوهم الى جمال سريعة، و اتوا بهم من المدينة الى عرفات؛ و قد هلك اثنان منهم، و كانوا موثقين على الجمال، و كان اربعة منهم نصف أموات، و قد بلغوا عرفات ... ساعة صلاة العصر، و كانوا لا يستطيعون الوقوف او الكلام. قالوا: «انا توسلنا كثيرا فى الطريق ان يأخذ هؤلاء الاعراب الذهب الذى اشترطنا و ان يتركونا، فانه لا طاقة لنا على مواصلة السفر، ولكنهم لم يسمعوا لنا و ساقونا على هذا النحو»، و مهما يكن، فقد حج هؤلاء الأربعة و عادوا عن طريق الشام.

و قد وصف ناصر خسرو، على نحو ما فعل بعده ابن جبير و ابن بطوطه «المسجد الحرام و الكعبة» و «باب الكعبة» ثم وصف «الكعبة من الداخل» ، و «بئر زمزم» و جاء على وصف «فتح باب الكعبة» («و عمدة الجعرانة») و هى مكان على اربعة فراسخ من شمال مكة كان به النبى (ص) مع جيشه فى السادس عشر من ذى القعدة فاحرم منه و جاء الى مكة و اعتمر.

و قد ذكر ناصر خسرو ان الكعبة تقوم وسط المسجد الحرام و ان المسجد الحرام يقوم وسط مكة، و المسجد ممتد طولا من الشرق الى الغرب و عرضا من الشمال الى الجنوب، و سوره ليس قائم الزوايا، بل اركانه مقوسة، تميل الى الاستدارة، و ذلك حتى تكون وجوه جميع المصلين شطر الكعبة فى اى جهة كانوا يصلون بالمسجد.

و لم نجد فى سائر اوصافه للكعبة المشرفة و ما يتصل بها اكثر مما مر بنا فى رحلتى ابن جبير و ابن بطوطه.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۴۴

(رحلات) عبد الوهاب عزّام

اما فى عصرنا الحديث، فقد ظهرت «رحلات» الدكتور عبد الوهاب عزام و قد كتب الفصل الخاص بمكة باسلوب شعرى خيالى لطيف ، فيقول:

«الليل مهوّد و سنان، ترى العين سكونه، و يحسّ القلب سكينته؛ ... و تبدو فى سكون الليل و نور القمر قمم الجبال: خندمة و ابى قبيس و اجياد .

هذا هو المسجد الحرام! فهل تقع العين الا على مصل خاشع، و طائف بالكعبة واله، و قارىء تنطق بضراعته الآيات، وداع يرسل قلبه فى كلمات؟

أنظر فلا اجد فى هذا البناء تمثالا و لا صنما و لا وثنا و لا صورة و لا نقشا. انما هو التوحيد فى خلوصه، و العقيدة فى يسرها، و الاسلام فى فطرته؛ بيت لعبادة اللّه يؤمه عباد اللّه.»

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۴۵

و بهذا الاسلوب يستمر ليقول تحت عنوان: «فى خيف منى»:

هذا ثانى ايام التشريق و منى غاصة بمضاربها قد اجتمع اليها الحجيج من أرجاء الارض ... و قد ادينا بحمد اللّه المناسك و لم يبق الا رمى الجمار لبثنا قليلا ثم هبطنا الى فجوة بين الصخور تسمى غار المرسلات؛ يقال ان السورة الكريمة «وَ الْمُرْسَلاتِ عُرْفاً» او حيت الى صاحب الرسالة صلوات اللّه عليه هناك.

و ما زال الاستاذ عزام يصعد حتى بلغ مسجد الخيف و هو مسجد برّى عطل من الزينة، فراشه الحصباء، و رأى عن شماله المحصّب حيث العقبات الثلاث التى ترمى فيها الجمرات؛ و الى اليمين يمتد وادى منى بنى سطرين من الجبال الشاهقة يساير فيها الطرف اسراب

الحمام الى ان يكلّ.

و اما الجبل الشامخ الذى يمتد على جانب الوادى الايسر فهو ثبير و كم ردد التاريخ و الشعر ذكر ثبير!

و تغلب على رحلة الدكتور عزّام مسحة من تاريخ الادب الجاهلى و صدر الاسلام و يشير الى الفاظ من نحو «بشام» و «سلم» و «ريع» ترد فى حديث أعرابى معه فيقول الدكتور الرحالة: «لو اتسع الوقت لاخذنا كثيرا من اللغة من هذا الاعرابى، فمن كان يظن ان هذه الفاظ ميتة فى المعاجم فليعلم انها لا تزال حية فى أفواه كثير من العرب!»

ثم ينتقل الى الحديث عن غار حراء» و كله اسلوب خطاب و ذكريات

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۴۶

و خيال صوفىّ يختمه بقوله: «أيها الغار، يا مولد الحق، و مطلع النبوة و مأوى محمد! لو لا أن محمدا الكريم نهانا لقبّلت احجارك و اكتحلت بترابك!

ايها الغار! من لى فيك بخلوة، من لى بخلوة فيك!»

و قد خصص القسم الرابع للحديث عن الحج و الخامس للمدينة المنورة .

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۴۷

مكة فى رحلة السائح الهروى

يقول السائح الهروى فى حديثه عن مكة ان «بها الكعبة المعظمة» و قيل سميت كعبة لان ابراهيم «عم» لما بناها جعل طولها فى السماء تسع أذرع، و جعل من الركن الاسود الى الركن الشمالى مما يلى بابها اثنتين و ثلاثين ذراعا، و من الجانب الغربى احدى و ثلاثين ذراعا، و من الركن الذى فيه الحجر الاسود الى الركن الذى تجاهه من جهة الجنوب اثنتين و عشرين ذراعا و من الجانب الشمالى تجاهه عشرين ذراعا، و دورها مائة و خمس أذرع و لم تزل كذلك الى ان هدمتها قريش و عمرتها قريش فى عهد رسول اللّه «صلعم» و صغروها عما كانت عليه اولا، و بقى منها فى الحجر ست اذرع و نصف و زادوا فى ارتفاعها تسع اذرع فصار ارتفاعها ثمان و عشرة ذراعا .

و يقول انه «كان بها صور الملائكة و الأنبياء (عم) و الشجرة و صورة

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۴۸

ابراهيم (عم) و الازلام بيده و صورة عيسى بن مريم و امه (عم) فلما كان عام الفتح امر رسول اللّه (صلعم) فطمست جميع الصور ما عدا صورة المسيح و امه و كان بها قرنا الكبش الذى ذبحه ابراهيم (عم) معلقة داخل الكعبة و بقيت كذلك الى عهد ابن الزبير فاحترقت و لما بناها ابن الزبير ادخل الحجر فيها فبقيت عريضة قصيرة فزاد فى ارتفاعها تسع اذرع فطولها فى السماء سبع و عشرون ذراعا و هى سبعة و عشرون سافا من الحجارة ... فلما قتله الحجاج خرّب ما عمره ابن الزبير فى الحجر ... و سدّ باب الكعبة الغربىّ» .

و يقول مؤلف الكتاب: رأيت الباب الذى فتحه ابن الزبير غربى الكعبة و سدّه الحجاج، و عتبته على حالها و عددت حجارتها المسدود بها و ذرعت دائر مدينة مكة و مدينة يثرب- حرسهما اللّه تعالى- و ذرعت طول الآبار المشهورة بمكة فلما غرقت كتبى عجزت عن اثبات ذلك.

ثم يعدد المشاهد و المقابر و اضرحة الصحابة و الاولياء الصالحين و يبين مواضعها من مكة و يكاد يفوق سائر السيّاح بالارقام و القياسات التى اجراها هو بالفرات ، و لكن تعوزه حيوية ابن بطوطة و ابن جبير فى كتابيهما، فلا يوجد فى هذه الرحلة ما هو ملموس من رونق و جمال اسلوب أدبى ناصع فى الرحلتين آنفتى الذكر.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۴۹

منازل مكة

اشارة

كتبه الدكتور حسين على محفوظ دكتوراه الدولة من جامعة طهران و المفتش الاختصاصى بوزارة التربية سابقا و الاستاذ بكلية الآداب فى جامعة بغداد اليوم

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۵۱

منازل مكة

منازل مكة فى مصطلح الجغرافيا- الطرق اليها. و قد تعرضت أكثر كتب الجغرافيا و المسالك لها.

أما المقدسى؛ فقد ذكر مملكة الإسلام فى كتابه «أحسن التقاسيم».

و حرّر طرقها المعروفة، و قسمها أربعة عشر اقليما؛ هى:

(أ) أقاليم العرب:

۱- جزيرة العرب. ۲- العراق. ۳- اقور. ۴- الشام. ۵- مصر.

۶- المغرب.

(ب) أقاليم العجم:

۱- المشرق. ۲- الديلم. ۳- الرحاب. ۴- الجبال. ۵- خوزستان.

۶- فارس. ۷- كرمان. ۸- السند.

و الطرق إلى مكة منها، أربعة؛ هى:

۱- طريق العراق من الكوفة الى المدينة، و هو طريق أقاليم العجم-

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۵۲

أيضا. ۲- طريق الشام. ۳- طريق مصر، و هو طريق المغرب- أيضا. ۴- طريق الجزيرة.

و أما ابن رستمة؛ فقد ذكر فى «الأعلاق النفيسة»:

أ- الطريق من مدينة السلام الى إقصى خراسان و غيرها.

۱- المسافة من مدينة السلام إلى الرىّ. ۲- الطريق من الرىّ إلى نيسابور.

۳- الطريق من نيسابور إلى طوس. ۴- الطريق من نيسابور إلى هراة.

۵- الطريق من هراة إلى كرمان. ۶- الطريق من هراة إلى سجستان.

ب- الطريق من بغداد إلى مكة: ج- الطريق من المدينة إلى مكة.

د- الطريق من الكوفة إلى البصرة. ه- الطريق من البصرة إلى مكة.

و- الطريق من البحرين إلى مكة. ز- الطريق من مصر إلى مكة:

۱- على ساحل البحر على طريق سوان. ۲- من فسطاط مصر إلى المدينة.

ح- الطريق من دمشق إلى المدينة. ط- الطريق من مكة إلى الطائف.

ى- الطريق من البصرة إلى اليمامة. ك- الطريق من بغداد إلى البصرة.

ل- الطريق من واسط إلى سوق الأهواز.

۱- من سوق الأهواز إلى فارس. ۲- من سوق الأهواز إلى ازم إلى فارس. ۳- من سوق الأهواز إلى رامهرمز إلى فارس. ۴- من باذ بين (على خمسة فراسخ من واسط) إلى ارّجان.

م- الطريق من الاهواز إلى فارس. ن- الطريق من الاهواز إلى شيراز. س- الطريق من ارجان إلى شيراز. ع- الطريق من اصبهان إلى الرى.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۵۳

و اما اليعقوبى؛ فقد ذكر فى «البلدان» مسافة ما بين كل بلد و بلد، و مصر. و ابتدأ بالعراق، و ذكر بغداد، و سر من رأى. ثم ذكر سائر البلدان. و قسم الأقطار على أربعة اقسام:

أ- الربع الأول؛ ربع المشرق:

۱- الجبل. ۲- اذربيجان. ۳- قزوين. ۴- زنجان. ۵- قم.

۶- اصبهان. ۷- الرى. ۸- طبرستان. ۹- جرجان. ۱۰- ستجستان.

۱۱- خراسان. ۱۲- ما اتصل بخراسان؛ من التبت، و تركستان.

ب- الربع الثانى؛ الربع القبلى:

۱- الحجاز. ۲- المدينة. ۳- مكة. ۴- الطائف.

ج- الربع الثالث؛ ربع الشمال:

۱- المدائن. ۲- واسط. ۳- البصرة. ۴- الأبلة. ۵- اليمامة ۶- البحرين. ۷- عمان. ۸- السند. ۹- الهند.

د- الربع الرابع؛ (ربع الغرب).

و اما ابو الفرج قدامة بن جعفر؛ فقد تعرّض فى كتاب «الخراج» لعلم الطرق. و عدد اسماء المواضع، و ذكر المنازل، و عدد الأميال و الفراسخ. و بدأ بالطريق المأخوذ من:

۱- مدينة السلام (إلى الكوفة ثم إلى المدينة ثم) إلى مكة. ۲- من المدينة إلى مكة. ۳- من مصر إلى مكة. ۴- من دمشق إلى مكة. ۵- من اليمامة إلى مكة. ۶- من صنعاء إلى مكة. ۷- من مخلاف خولان إلى مكة. ۸- من عمان إلى مكة: أ- طريق الساحل. ب- طريق الجادة. ۹- الطريق إلى نواحى المشرق: أ- الأهواز. ب- فارس.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۵۴

ج- اصبهان. د- كرمان. ه- سجستان. و- ما والاها إلى نواحى الشمال، و المغرب.

و اما ابن حوقل فقد فصل بلاد الاسلام فى «صورة الأرض» اقليما اقليما، و صقعا صقعا، و رسم جميع ما تشتمل عليه من الطرق، و السبل، و المسالك، و المسافات و المراحل. و البلاد التى عددها هى:

۱- ديار العرب. ۲- بحر فارس. ۳- المغرب. ۴- الاندلس.

۵- صقلية. ۶- مصر. ۷- الشام. ۸- بحر الروم. ۹- الجزيرة.

۱۰- العراق. ۱۱- خوزستان. ۱۲- فارس. ۱۳- كرمان.

۱۴- السند. ۱۵- أرمينية و الران و اذربيجان. ۱۶- الجبال. ۱۷- الديلم، و طبرستان. ۱۸- بحر الخزر. ۱۹- مفازة خراسان و فارس.

۲۰- سجستان. ۲۱- خراسان. ۲۲- ما وراء النهر.

و اما ابن خرداذبة؛ فقد اوضح فى كتاب «المسالك و الممالك».

مسالك الارض، و ممالكها، و المسير بين ذلك منها، و رسوم طرقها.

و ذكر قبلة اهل كل بلد، و ابتدأ بالسواد، ثم المشرق ... و ذكر:

۱- الطريق من مدينة السلام إلى إقاصى خراسان. ۲- طريق الشاش و الترک. ۳- الطريق إلى الكور الجبلية و واسط و الأهواز و فارس.

۴- الطريق من شيراز إلى كرمان ثم إلى سجستان. ۵- الطريق من شيراز إلى نيسابور. ۶- الطريق من شيراز إلى درابجرد. ۷- الطريق من الفهرج إلى السند. ۸- الطريق من الاهواز إلى اصبهان. ۹- الطريق من اصبهان إلى الرى. ۱۰- الطريق من بغداد إلى البصرة. ۱۱- الطريق من البصرة إلى عمان على الساحل. ۱۲- الطريق من البصرة إلى المشرق.

۱۳- الطريق إلى الصين. ۱۴- الطريق من مدينة السلام إلى المغرب.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۵۵

۱۵- الطريق من الفسطاط إلى المغرب. ۱۶- الطريق من بغداد إلى الرقة.

۱۷- الطريق من نصيبين إلى أرزن. ۱۸- الطريق من الجزيرة إلى الساحل.

۱۹- الطريق من الكوفة إلى دمشق. ۲۰- الطريق من مدينة السلام إلى مكة. ۲۱- الطريق من مكة إلى اليمن. ۲۲- الطريق من البصرة إلى مكة.

۲۳- الطريق من اليمامة إلى مكة. ۲۴- الطريق من عمان إلى مكة.

۲۵- الطريق من مصر إلى مكة. ۲۶- الطريق من دمشق إلى مكة.

غير عشرات الطرق الأخرى التى ذكرها فى أثناء ذلك.

و خصّ حمد اللّه المستوفى القزوينى الطرق و كمية مسافتها بفصل مطوّل ممتع فى كتاب «نزهة القلوب» الذى ألفه سنة ۷۴۰ ه؛ فقسم الطرق إلى:

أ- الطريق الجنوبية؛ و هى القبلية:

۱- من السلطانية إلى النجف.- من السلطانية إلى همدان.- من همدان إلى قصر شيرين.- من قصر شيرين إلى بغداد.- من بغداد إلى النجف.

۲- من النجف إلى مكة. ۳- من مكة إلى المدينة.- بطريق الجادة.

بطريق بدر.

من المدينة إلى النجف. ۵- من واسط إلى الثعلبية ثم إلى مكة.

۶- من بغداد إلى سائر البلاد؛ ثم إلى البصرة ۷- من البصرة إلى البحرين.

۸- من البصرة إلى قيس. ۹- من بغداد إلى اصفهان. ۱۰- من بغداد إلى رحبة الشام. ۱۱- من بغداد إلى الموصل.

ب- الطريق الشرقية:

۱- من السلطانية إلى جيحون:- من السلطانية إلى الرى و ورامين.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۵۶

- من ورامين إلى رباط مهمان دوست.- من مهمان دوست؛ بطريق جاجرم إلى نيسابور.- من نيسابور إلى سرخس.- من سرخس؛ بطريق بلخ إلى جيحون.

۲- من بسطام إلى خوارزم، بطريق جرجان و دهستان ۳- من نيسابور إلى هرات. ۴- من نيسابور إلى ترشيز و قهستان. ۵- من هرات إلى سيستان. ۶- من هرات إلى مرو. ۷- من مرو إلى بلخ. ۸- من مرو إلى خوارزم.

ج- الطريق الشمالية؛ من السلطانية إلى باب الأبواب:

من السلطانية إلى اردبيل.- إلى قراباغ أرّان.- من قراباغ إلى تبريز بطريق اهر.

د- الطريق الغربية، من السلطانية إلى قونية:

- من السلطانية إلى تبريز.- من تبريز إلى ارزن الروم.- من ارزن الروم إلى ارزنجان و من الرزنجان إلى سيواس.

ه- الطريق ما بين الشرق و الجنوب؛ و من السلطانية إلى قيش:

- من السلطانية إلى ساوة.- من ساوة إلى كاشان.- من كاشان إلى اصفهان.- من اصفهان إلى يزدخواست.- من يزدخواست بالطريق الصيفية إلى شيراز.- من شيراز إلى قيش.- من قيش إلى سرنديب.

- من شيراز إلى كازرون.- من شيراز إلى هرموز.- من شيراز إلى شبانكاره.- من شيراز إلى ابرقوه.- من ابرقوه إلى يزد.- من شيراز إلى نوبنجان.- ثم إلى تستر

و- الطريق ما بين الغرب و الجنوب؛ من السلطانية إلى قلعة بيرة.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۵۷

هذا- و عمدة الطرق إلى مكة:

۱- طريق الكوفة. ۲- طريق البصرة. ۳- طريق الشام. ۴- طريق مصر. ۵- طريق اليمن. ۶- طريق جدة. ۷- طريق المدينة.

أما طريق الكوفة؛ و هو طريق جميع أهل المشرق:

فمن الكوفة إلى القادسية ۱۵ ميلا

ثم إلى العذيب ۶ أميال

ثم إلى المغيثة ۲۴ ميلا.

و المتعشى وادى السباع على ۱۵ ميلا.

ثم إلى القرعاء ۳۲ ميلا.

و المتعشى مسجد سعد على ۱۴ ميلا.

ثم إلى واقصة ۲۴ ميلا.

و المتعشى بالطرف على ۱۴ ميلا.

ثم إلى العقبة ۲۹ ميلا.

و المتعشى القبيبات على ۱۴ ميلا.

ثم إلى القاع ۲۴ ميلا.

و المتعشى بالجلحاء على ۱۳ ميلا.

ثم إلى زبالة ۲۴ ميلا.

و المتعشى بالجريسى على ۱۴ ميلا.

ثم إلى الشقوق ۲۱ ميلا.

و المتعشى التنانير على ۱۴ ميلا.

ثم إلى البطان- و هى قبر العبادى- ۲۹ ميلا.

و المتعشى بردين على ۱۴ ميلا.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۵۸

ثم إلى الثعلبية- و هى ثلث الطريق- ۲۹ ميلا.

و المتعشى بالمهلبية على ۱۴ ميلا.

ثم إلى الخزيمية ۳۲ ميلا.

و المتعشى الغميس على ۱۴ ميلا.

ثم إلى الأجفر ۲۴ ميلا.

و المتعشى بطن الأعز على ۱۵ ميلا.

ثم إلى فيد- و هى نصف الطريق- ۳۶ ميلا.

و المتعشى القرائن على ۲۰ ميلا.

ثم إلى توز ۳۱ ميلا.

و المتعشى بالقرنتين على ۱۷ ميلا.

ثم إلى سميراء ۲۰ ميلا.

و المتعشى بالفحيمة على ۱۳ ميلا.

ثم إلى الحاجر ۳۳ ميلا.

و المتعشى العباسية على ۱۵ ميلا.

ثم إلى معدن القرشى- و العامة تسميه معدن النقرة» ۳۴ ميلا.

و المتعشى تروری على ۱۷ ميلا.

الطريق الى المدينة

من المعدن إلى العسيلة ۴۶ ميلا.

ثم إلى بطن نخل ۳۶ ميلا.

ثم إلى الطرف ۲۲ ميلا.

ثم إلى المدينة- و هى طيبة- ۳۵ ميلا.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۵۹

طريق الجادة من المدينة الى مكة

من المدينة إلى الشجرة- و هى ميقات اهل المدينة- ۶ أميال.

ثم إلى ملل ۱۲ ميلا.

ثم إلى السيالة ۱۹ ميلا.

ثم إلى الرويثة ۳۴ ميلا.

ثم إلى السقيا ۳۶ ميلا.

ثم إلى الأبواء ۲۹ ميلا.

ثم إلى الجحفة- و هى ميقات اهل الشام- ۲۷ ميلا.

ثم إلى قديد ۲۷ ميلا.

ثم إلى عسفان ۲۴ ميلا.

ثم إلى بطن مرّ ۳۳ ميلا.

ثم إلى مكة ۱۶ ميلا.

طريق الجادة من معدن النقرة الى مكة

منها إلى مغيثة الماوان ۳۳ ميلا.

و المتعشى السمط على ۱۶ ميلا.

ثم إلى الربذة ۲۴ ميلا.

و المتعشى أريمة على ۱۴ ميلا.

ثم إلى معدن بنى سليم ۲۴ ميلا.

و المتعشى شرورى على ۱۲ ميلا.

ثم إلى السليلة ۲۶ ميلا.

و المتعشى بالكنابين على ۱۳ ميلا.

ثم إلى العميق ۲۱ ميلا.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۶۰

و المتعشى السنجة على ۱۲ ميلا.

ثم إلى الافيعية ۳۲ ميلا.

و المتعشى الكراع على ۱۵ ميلا.

ثم إلى المسلح- و هى ميقات اهل العراق- ۳۴ ميلا.

و المتعشى الكبرانة على ۱۴ ميلا.

ثم إلى الغمرة ۱۸ ميلا.

و المتعشى القصر على ۸ أميال.

ثم إلى ذات عرق ۲۶ ميلا.

و المتعشى أوطاس على ۱۲ ميلا.

ثم إلى بستان بنى عامر ۲۲ ميلا.

و المتعشى غمر ذى كندة على ۱۱ ميلا.

ثم إلى مكة ۲۴ ميلا.

و المتعشى مشاش على ۱۱ ميلا.

و الطريق من مدينة السلام- بغداد- إلى الكوفة:

من بغداد إلى جسر كوثى ۷ فراسخ.

ثم إلى قصر ابن هبيرة ۵ فراسخ.

ثم إلى سوق اسد ۷ فراسخ.

ثم إلى شاهى ۷ فراسخ.

ثم إلى الكوفة ۵ فراسخ.

فذلك ۳۱ فرسخا. فمن بغداد إلى مكة ۲۷۵ فرسخا و ثلثا فرسخ.

تكون أميالا ۸۲۷ ميلا.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۶۱

و اما الطريق من البصرة إلى مكة

من البصرة إلى المنجشانية، ثم إلى الحفير، ثم إلى الرحيل، ثم إلى الشجى، ثم إلى الخرجاء، ثم إلى الحفر، ثم إلى ماوية، ثم إلى ذات العشر، ثم إلى الينسوعة، ثم إلى السمينة، ثم إلى النباح، ثم إلى العوسجة، ثم إلى القريتين، ثم إلى رامة، ثم إلى إمرة، ثم إلى طخفة، ثم إلى ضرية، ثم إلى جديلة، ثم إلى فلجة، ثم إلى الدفينة، ثم إلى قبا، ثم إلى مران، ثم إلى وجرة، ثم إلى اوطاس، ثم إلى ذات عرق، ثم إلى بستان بنى عامر، ثم إلى مكة.

و اما الطريق من مصر إلى مكة

من الفسطاط إلى الجب، ثم إلى البويب، ثم إلى منزل ابن بندقة، ثم إلى عجرود، ثم إلى الذنبة، ثم إلى الكرسى، ثم إلى الحفر، ثم إلى منزل، ثم إلى أيلة، ثم إلى حقل، ثم إلى مدين، ثم إلى الأغراء، ثم إلى منزل، ثم إلى الكلابة، ثم إلى شغب، ثم إلى بدا، ثم إلى السرحتين، ثم إلى البيضاء، ثم إلى وادى القرى، ثم إلى الرحيبة، ثم إلى ذى المروة، ثم إلى المرّ، ثم إلى السويداء، ثم إلى ذى خشب، ثم إلى المدينة، ثم إلى المنازل التى قد مرّ ذكرها إلى مكة.

و اما الطريق من دمشق الى مكة

من دمشق إلى منزل، ثم إلى منزل، ثم إلى ذات المنازل، ثم إلى سرغ، ثم إلى تبوك، ثم إلى المحدثة، ثم إلى الأقرع، ثم إلى الجنينة، ثم إلى الحجر، ثم إلى وادى القرى، ثم إلى الرحيبة، ثم إلى ذى المروة، ثم إلى المرّ، ثم إلى السويداء، ثم إلى ذى خشب، ثم إلى المدينة، ثم إلى المنازل التى قد مرّ ذكرها إلى مكة.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۶۲

و اما الطريق من اليمن الى مكة

من صنعاء إلى اثافث، ثم إلى خيوان، ثم إلى الأعمشية، ثم إلى صعدة، ثم إلى عرقة، ثم إلى المهجرة، ثم إلى سروم راح، ثم إلى الثجة، ثم إلى كتنة، ثم إلى يبمبم، ثم إلى بنات حرب، ثم إلى جسداء، ثم إلى بيشة، ثم إلى تبالة، ثم إلى رنية، ثم إلى كرى، ثم إلى تربة، ثم إلى صفن، ثم إلى الفتق، ثم إلى قرن المنازل، ثم إلى بئر ابن المرتفع، ثم إلى مكة.

أما المنازل؛ التى سلكتها ام جعفر «زبيدة» سنة حجها؛ و قد نزلها أحمد بن عمرو؛ فهى: نهر عيسى. الفرات. نهر سورا. نهر أبا.

الفرات الأسفل. الكوفة. القادسية. المغيثة. القرعاء. واقصة. العقبة.

القاع. زبالة. الشقوق. بطان. الثعلبية. الخزيمية، من زرود. الأجفر.

فيد. توز. سميرا. الحاجر. النقرة. مغيثة الماوان. الربذة. السليلة.

العمق. المعدن. افيعية. المسلح. الغمرة ذات عرق. البستان. المشاش.

مكة- منى- عرفات- المزدلفة- المشعر. بطن مر. عسفان. فديد.

الجحفة. الأبواء. السقيا. الروحاء. السيالة. ملل. المدينة. الطرف.

بطن نخل. العسيلة. المحدث. ثم الطريق الأول نحو العراق.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۶۳

مكة فى الشعر

اشارة

جمعه و نسقه حسب الحروف الهجائية فؤاد عباس من خريجى الجامعة الاميركية ببيروت و المفتش الاختصاصى فى وزارة التربية العراقية

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۶۵

ابو العلاء المعرى

استغفر اللّه فى أمنى و اوجالىمن غفلتى و توالى سوء اعمالى

قالوا هرمت و لم تطرق (تهامة) فىمشاة و فد و لا ركبان أجمال

فقلت: إنّى ضرير و الذين لهمرأى رأوا غير فرض حجّ امثالى

ما حجّ جدّى و لم يحجج أبى و أخىو لا ابن عمّى و لم يعرف (منى) خالى

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۶۶ و حجّ عنهم قضاء بعد ما ارتحلواقوم سيقضون عنّى بعد ترحالى

فان يفوزوا بغفران أفز معهمأو لا فانّى بنار مثلهم صال

و لا أروم نعيما لا يكون لهمفيه نصيب و هم رهطى و اشكالى

***

سيسأل ناس ما قريش و مكةكما قال ناس ما جديس و ما طسم

أرى الوقت يفنى أنفسا بفنائهو يمحو فيما يبقى الحديث و لا الرسم

***

مكة أقوت من بنى الدردبيسفما لجنىّ بها من حسيس

احمد بن ابراهيم

الخازن بالزهراء (يمدح الخليفة الحكم المستنصر):

ليهنئك أن لم يبق فى الأرض ناكثو لا مشرك إلّا أتاك بلا عهد

و لم يبق إلّا أن يحلّ بمكّةفيطرد عنها المستحقّين للطرد

احمد شوقى

تجلّى مولد الهادى و عمّتبشائره البوادى و القصابا

و أسدت للبريّة بنت وهبيدا بيضاء طوّقت الرقابا

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۶۷ فقام على سماء البيت نورايضىء جبال (مكة) و الشعابا

***

ما للشباب و للماضى يمرّ بهمفيه على الجيف الأحزاب و الشيع

شريف مكة حرّ فى ممالكهفهل ترى القوم بالحرّية انتفعوا؟

*** و قال يخاطب الاستانة حين نقل الكماليون العاصمة الى انقرة و يشير الى فتوى شيخ الاسلام بقتالهم:

هدروا دماء الذائدين عن الحمىبلسان مفتى النار لا مفتيك

شربوا على سرّ العدوّ و غرّدواكالبوم خلف جدارك المدكوك

لو كنت (مكة) عندهم لرأيتهم كمحمد) و (رفيقه) هجروك

*** و قال فى قصيدته التى يعارض بها قصيدة البوصيرى:

سائل حراء و روح القدس هل علمامصون سرّ عن الادراك منكتم

كم جيئة و ذهاب شرّفت بهمابطحاء مكة فى الاصباح و القمم

هناك أذّن للرحمن فامتلأتاسماع (مكة) من قدسيّة النغم

اميّة بن ابى الصلت

كان عبد اللّه بن جدعان من مطعمى قريش كهاشم بن عبد مناف، و هو اول من عمل الفالوذج للاضياف، فقال فيه اميّة بن ابى الصلت يمدحه:

له داع بمكّة مشمعلّو آخر فوق دارته ينادى

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۶۸ إلى ردح من الشيزى ملاءلباب البرّ يلبك بالشهاد

جرهمى شاعر

يا عمرو لا تظلمبمكّة إنّها بلد حرام

سائل بعاد اين هم؟و كذلك تخترم الانام

و بنى العماليق الذين لهم بها كان السوام

الحارث بن خالد

من كان ذا شجن بالشام يحبسهفان فى غيره أمسى لى الشجن

و ان ذا القصر حقّا ما به وطنىلكن بمكّة امسى الاهل و الوطن

من ذا يسائل عنا اين منزلنا(فالاقحوانة) منا منزل قمن

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۶۹

ابن حجر العقسلانى

(شهاب الدين احمد بن على) يمدح النبى (ص):

و بفتح مكة قد عفا عمّن هفافأتوه بالترغيب و الترهيب

لم يحتموا من ميم طعنات و لاألفات ضربات و لام حروب

***

الا ليت شعرى هل ابيتن ليلةبمكة أشفى ذا الفؤاد المفنّدا؟

و هل اردن ماء النعيم بزمزمو هل لى ان اروى و اسعى و اسعدا؟

حسان بن ثابت

و قال فى قوم من بنى كعب من خزاعة كان النبى (ص) ادخلهم فى حلفه يوم الحديبية فغدرت بهم قريش:

عنانى و لم اشهد ببطحاء مكّةرعاة بنى كعب تحزّ رقابها

و لو شهد البطحاء منا عصابةلهان علينا يوم ذاك ضرابها

الحصرى القيروانى

(ابو الحسن على بن عبد الغنى) الضرير ابن اخت صاحب كتاب زهرة الآداب.

يا حرفة الشعراء إنك منهمحيث ابتغوا رزقا لبالمرصاد

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۷۰ لو حلّ بالوادى المقدّس ركبهملشفاء غلّتهم لجفّ الوادى

و لو ابتغوا حلق الرؤوس بمكةحضر (الرشيد) بها و غاب (الهادى) *** عسى من يوفّى النذور

حجّا و يقضى النفثيزدنى دعوة بمكّة

إذ لا رفث؟يغيث بها باكيا

فأىّ الثرى لم يغث؟؟

السيد رشيد الهاشمى

قامت بقيامكم العربو زهت بفعالكم الكتب

غنّت بكم الاقلام و قدرقصت لأغانيها القضب

اوصال الملك مقطعةو قلوب بنيه تضطرب

ابن الزبعرى السهمى

كانت قريش بيضة فتفلّقتفالمح خالصها لعبد مناف

(عمرو العلا) هشم الثريد لمعشر كانوا بمكة مسنتين عجاف

الشيخ صالح التميمى

قال- رحمه اللّه- دخلت بعد قتل محمد بك و عبد العزيز آل الشاوى

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۷۱

على دارهم و هى موحشة منهم، و قد نزل فارس الجرباء، و خواصّهم بين غاد و رايح، فقلت:

باللّه يا دار المكارم ما الذىاضنى ربوعك يا شفاء الانفس

عجبا لقوم يهرعون لمجلسو نسوا بربعك طيب ذاك المجلس

قد قلت لمّا أن رأيت حجيجهمشتان (مكّتنا) و (بيت المقدس)

شاعر

و أيۀ ارض انت فيها ابن معمر كمكّۀ لم يطرق بشرّ حمامها

شاعر

ليال تمنّى ان تكون حمامۀبمكۀ يؤويک الستار المحرّم

شاعر

كأنى لم أقطن بمكۀ ساعۀو لم يلهنى فيها ربيب منعم
و لم اجلس الحوضين شرقىّ زمزمو هيهات أنّى منک لا أين زمزم

عبد الباقى العمرى

يمدح الامام على (ع)
انت العلىّ الذى فوق العلى رفعابطن مكۀ وسط البيت اذ وضعا
موسوعۀ العتبات المقدسۀ، ج۲، ص: ۱۷۲

عبد الحسين الحويزى

و الهدى يوم فتح (مكۀ) نادىبعلو التكبير و التهليل
و صناديدها غدت طلقاءمن يديه جيلا ترى بعد جيل
الشيخ عبد الحسين الحويزى

عبد اللّه بن ثور الخفاجى

فأصبح بطن مكۀ مقشعرّاكأن الأرض ليس بها هشام

عبد اللّه بن حسن بن حسن

أنس حرائر ما هممن بريبۀكظباء مكۀ صيدهنّ حرام
يحسبن من لين الكلام زوانياو يصدّهن عن الخنا الاسلام

عبد اللّه بن محمد بن السيد البطليوسى

أمكۀ تفديک النفوس الكرائمو لا برحت تنهلّ فيک الغمائم
عليک سلام اللّه ما طاف طائفبكعبتک العليا و ما قام قائم
موسوعۀ العتبات المقدسۀ، ج۲، ص: ۱۷۳

الشيخ عبد المحسن الكاظمى

يا اهل مكة و الورىما تنقضى حجّاتها

فى كل عام عندكم‌تقضى الفروض قضاتها

و بكلّ يوم عندناحجج تضلّ هداتها

الجسر (مكّتنا) و كثبان النقا (عرفاتها)

و (منى) جزيرتنا التىقطع الحشا حصياتها

الشيخ عبد المحسن الكاظمى

الشيخ محمد على كمونة

آثرنا أن نجتزىء من هذه القصيدة العامرة فى رثاء الحسين (ع) ما يتعلّق بذكر كيفيّة الحجّ و ذكر مناسكه فى زمنه السفر على ظهور الابل.

نرى ظعنا يبغى (منى) فا (لمحصبّا)فادنى اليه اليعملات و قرّبا

و قوّض من بعد الاقامة راحلايلفّ الربى بالبيد و البيد بالربى

و جشمها شرق البلاد و غربهااذ جاز منها سبسبا امّ سبسبا

ليقضى عليها من (منى) غاية المنىفقد شاقه من (شعبه) ما تشعبّا

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۷۴ و قد جنحت (للخيف) حتى كأنماقوائمها نيطت بأجنحة الصّبا

و ارسلها و خدا الى ذلك الحمىو منه الجناب الرحب حيّا و رحبا

و عرّس كيما يستريح ركابهباعطانها مما عراها و أتعبا

و لما حدا الحادى و هاج اهاجهارواقص للادلاج هجن تطرّبا

و وجّه تلقاء (المعرّف) وجههليقضى به فرض (الوقوف) تقرّبا

و لما قضى (التعريف) و الشمس آذنت و قد ازف الترحال- ان تتحجّبا

و حيث (أفاض) الناس أرخى ركابهو ألوى به (للمشعرين) و نكّبا

و قد رقصت عند (المحسّر) من (منىبه و على اكوارها ماس مطربا

و ضجّ فضجّ الناس كلّ مؤدّيامن (الذكر) ما نصّ الاله و اوجبا

و ما لى الى جمع (الجمار) و (رميها)و لما رماها ساق (هديا) و قرّبا

و طاف (ببيت اللّه) سبعا إنابةاليه و صلىّ فى (المقام) و عقّبا

و قد اوسع (الاركان) عند (استلامها)دموعا فخيل السيل قد بلغ الزبى

و اكثر عند (المستجار) تنصّلاالى ربّه مما أساء و أذنبا

و ساغ اليه الورد من ماء (زمزم)و أعذب بماء ورده ساغ مشربا

و (للسعى) بين (المروتين) مهرولاسعى و بجلباب الخضوع تجلببا

و سارع (للتقصير) غير مقصّرو شرّق (للتشريق) ينحو (المحصّبا)

و لما قضى نسكا (مناسك) حجّهنحا (يثربا) لا ابعد اللّه يثربا

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۷۵

عبد المطلب بن هاشم

نحن اهل اللّه فی (بلدته)لم یزل ذاک علی عهد (ابرهم)

نعبد اللّه و فینا شیمةضلّة القربی و ایفاء الذمم

ان للبیت لربّا مانعامن یرده بأثام یصطلم

*** أمّ الغوث بن أخزم حین نذرت إن ولدت غلاما لتجعلنّه عبدا للکعبة یخدمها فولدت الغوث و وفت بنذرها.

انّی جعلت ربّ من بیّنهربیطة بمکّة العلیّه

فبارکنّ لی به إلیّهو اجعله لی من صالح البریّه

قصی بن ربیعة

انا ابن العاصمین بنی لؤیّبمکة مولدی و بها ربیت

و لی البطحاء قد علمت معدّو مروتها رضیت بها رضیت

کعب بن زهیر

من لامیته المشهورة: بانت سعاد

ان الرسول لنور یستضاء بهمهنّد من سیوف اللّه مسلول

فی عصبة من قریش قال قائلهم‌ببطن (مکة) لما اسلموا: زولوا

زالوا فما زال أنکاس و لا کشف‌عند اللقاء و لا میل معازیل

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۷۶

السید محمد سعید الحبوبی

قال راثیا (بعض الکبراء) و قدتوفی بطریق مکّة المشرّفة

سری و حداء الرکب حمد أیادیهو آب و ما حاد لهم غیر ناعیه

أحین غشی بطحاء مکة شیخهافکانت تغنی بالنسیب مغانیه

فکان کابراهیم زار (مقامه)و فی (حجر) اسماعیل کان کبانیه

کأنی به فی مکة او مدینةیلاقیه اهلوها فیدهش لاقیه

فمن مرتج منه و من مغرم بهو من آخذ عنه و من واثق فیه

السید محمد سعید الحبوبی

مضاض بن عمرو الجرهمی (جاهلی)

کأن لم یکن بین الحجون الی الصفاانیس و لم یسمر بمکة سامر

و لم یتربع واسطا فجنوبهالی المنحنی من ذی الاراکة حاضر

بلی نحن کنّا اهلها فأبادناصروف اللیالی و الجدود العواثر

فسحّت دموع العين تبكى لبلدةبها حرم و فيها المشاعر

ابن ام مكتوم

قال و هو آخذ بخطام ناقة رسول اللّه (ص) و هو يطوف:

حبّذا مكة من وادىبها ارضى و عوّادى

بها ترسخ اوتادىبها امشى بلا هادى

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۷۷

مكة فى المراجع الغربية

اشارة

كتبه و ترجمه من مختلف المصادر جعفر الخياط الحائز على درجة استاذ علومC. S. M من جامعة كليفورنيا و مدير التعليم الثانوى، و المفتش الاختصاصى بوزارة التربية سابقا و مدير التعليم المهنى حالا

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۷۹

مكة فى المراجع الغربية

مقدمة

تعتبر مكة المكرمة اول بلد مقدس فى الاسلام، ففيها أول الحرمين و ثانى القبلتين، و هى مهبط الوحى و التنزيل و محط أنظار المسلمين، يتوجهون شطرها فى صلواتهم و يحجون اليها من كل حدب و صوب.

و لذلك فليس من العجيب ان تهفو لها قلوب المسلمين و المؤمنين فى مشارق الأرض و مغاربها، و تخشع لها نفوسهم، فيتمنون على اللّه مخلصين ان يمنحهم التوفيق من عنده لزيارتها و يكتب لهم حج البيت فيها قبل ان يتوفاهم اللّه اليه، و يفارقوا هذه الحياة الدنيا.

و كيف لا تكون لهذا البلد الامين مثل هذه القدسية و هذا التبجيل عند

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۸۰

المسلمين، و هو عنوان مجدهم و ينبوع هدايتهم و عقيدتهم. و كيف لا ترنو اليه الابصار، و تهفو له الأفئدة، و هو الذى تمتزج ذكرياته الحافلة بتاريخهم العريق و تشتبك أحاسيسه بمجدهم التليد.

فقد كان لظهور الاسلام، الذى تفجرت ينابيعه من بطاح مكة و وهادها القاحلة، و للمعجزة الخالدة التى حققها محمد و المهتدون بهديه فى نشر الأسلام بمثل تلك السرعة الخاطفة فى الخافقين، صدى ما زال يرن فى الغرب و يدوّى فى أرجائه. فراح علماؤه و مستشرقوه يبحثون فى كل ما له علاقة بهذه الدعوة، التى اهتدى المسلمون بهديها و استضاؤا بنورها، فأخذ العالم يدرس أحوال مكة التى انبثق منها ذلك النور، و يمحص المؤرخون جميع ما يمت اليها بصلة. و قد بلغ من اهتمام الغربيين بمكة أن دخل اسمها فى لغتهم و اصبح كلمة خاصة تدرج فى القواميس لتدل على الجهة التى يتوجه اليها الناس أو يقصدونها بصفة دائمة.

و لم يكتفوا بذلك فقط، و انما شد لها الرحالون الغربيون رحالهم أيضا و قصدها السياح و المسافرون منهم فجازفوا بأنفسهم و أرواحهم ليدخلوا فيها و يحجوا اليها متنكرين. و قد حالف التوفيق عددا منهم، و فشل كثيرون غير هؤلاء، فتكونت مما كتبوه و دونوه عن تلك الدراسات و المجازفات ثروة علمية يصعب على الباحث ان يحيط بها كلها، لا سيما و ان ما كتب لم يكن فى لغة واحدة من

اللغات الغربية الحية و انما كتب بلغات عدة أخصها الانكليزية و الألمانية و الفرنسية.

و لا ـ يخفى ان الدوافع التى تدفع الغربيين الى الاهتمام بمكة و ما يتصل بها من شؤون، او الكتابة عنها، هى دوافع معروفة أهمها: الأغراض التبشيرية، او البحث العلمى، او المجازفة و التطويح او التجسس و الأغراض السياسية فى الغالب. على اننا سنحاول فى هذا البحث ان نورد نماذج مفيدة عن أهم ما كتب عن مكة باللغة الانكليزية على الأخص، مع

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۸۱

التنبيه الى ان شيئا غير يسير مما كتب فى هذه اللغة يعتبر بعضه مترجما عن الألمانية او الفرنسية او الأيطالية او الهولندية، فضلا عن استناد الكثير منه على المصادر العربية.

و الملاحظ أن أهم المراجع الغربية التى تتطرق الى ذكر الكثير عن مكة المكرمة و شؤونها (دائرة المعارف الأسلامية) الموسعة و المختصرة، التى يشرف على تحريرها المستشرقان المعروفان غيب و كريموز. فقد وجدت فيها خلاصة شاملة تتناول تاريخ مكة فى مختلف ادوارها، و شؤون الحج فيها و ما يتصل به من المناسك و الطقوس و ما أشبه. و سنورد هنا أهم ما جاء فى هذه الخلاصة التى كتب معظمها المستشرق الفرنسى لامانس بالاشتراك مع الاستاذ فنسنك .

مكة قبل الهجرة

اشارة

يبدأ هذان الاستاذان بحثهما بالقول ان مكة المكرمة قد خرجت من بين اشباح الماضى السحيق و فرضت نفسها على المؤرخين بولادة النبى محمد فيها ما بين سنتى ۵۷۰ و ۵۸۰ ميلادية. و يبدو ان الجغرافى اليونانى بطليموس كان يعرفها باسم «ماكورابا» لكنها كانت معروفة قبل زمانه بمدة طويلة.

فقد كانت على ما يحتمل محطة من المحطات الواقعة فى «طريق البخور» الذى كانت تسلكه القوافل المحملة بالمنتجات الشرقية المصدرة الى عالم البحر الابيض المتوسط، و لا سيما العطور الثمينة منها. و تعزى الأهمية التى كانت تتمتع بها مكة الى كونها كانت واقعة فى ملتقى الطرق التجارية الكبرى فى تلك العصور الغابرة. فقد كانت هذه المدينة، التى نشأت حول بئر

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۸۲

زمزم و الكعبة المقدسة، تقع فى موقع تنتهى فيه أطراف آسية التى تسكنها الأقوام البيضاء من جهة و أفريقية السوداء من جهة أخرى، على مقربة من إحدى الفتحات التى تتخلل جبل الصراة، و فى جوار ملتقى للطرق كان يؤدى من بابل و سورية الى مرتفعات اليمن و سواحل البحر الأحمر و المحيط الهندى. و بطريق البحر كانت تتصل بالقارة الأفريقية المجهولة.

و مما يذكر عن علاقات مكة الخارجية فى تاريخها القديم ان سكانها كثيرا ما كانوا يدخلون فى مفاوضات مع الدول المجاورة. و كانوا يحصلون منها على حسن المعاملة و حرية المرور لقوافلهم، و هو ما كان يطلق عليه مؤرخو العرب «ضمانة كسرى و قيصر». و كانوا يعقدون اتفاقيات كذلك مع النجاشى فى الحبشة، و شيوخ نجد الكبار، و أقيال اليمن، و ملوك الحيرة و الغساسنة. على أنهم لم يكن بوسعهم الحصول على معاملة «الباب المفتوح» فى مفاوضاتهم مع الايرانيين و الأغريق، و لذلك كان التبادل التجارى يجرى مع هؤلاء فى الثغور الواقعة على الحدود او المدن التى تعين لهذا الغرض: و من هذه المدن فى فلسطين كانت غزة و أيلة و ربما القدس أيضا، اما فى سورية فقد كانت بصرى منفذهم الرئيس و سوقهم الكبرى.

و هناك فى هذا المبحث أشارة الى ما جاء فى الآية الكريمة عن «رحلة الشتاء و الصيف»، و الى ان النسابة العرب يذكرون أسماء

رؤساء قريش الذين توفقوا فى الحصول على الرخص المطلوبة للمتاجرة بطريق المفاوضات.

و كان البلد الذى يحصلون على رخصة للمتاجرة فيه يسمى عندهم «وجه» او «متجر»، كما كان هناك ما لا يحصى من القيود التى تحدد امتياز هذه المتاجرة. فلم تكن الدول الشرقية مثلا تسمح لأهل مكة بالتجارة الحرة و كانت بيزنطة أكثر شكا و ارتيابا بالأجانب، و لا سيما البدو منهم.

و لذلك كان العرب يحصلون على حق المتاجرة لقاء تضحيات كبيرة و تكاليف غير يسيرة، مثل دفع الضرائب الباهظة أو رسوم خاصة للكمارك و العبور أو وضع الرهائن.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۸۳

و تقول دائرة المعارف الأسلامية فى هذا الشأن ان مكة كانت تعوض ما تخسره فى هذه المعاملات عن طريق فرض تكاليف و رسوم عديدة على التجار الأجانب الذين كانوا يفدون عليها، مثل رسوم العشور و الأقامة و المتاجرة و التجوال و غير ذلك. فقد كان على التاجر الأجنبى ان يدفع رسما خاصا قبل الدخول الى مكة مثلا، و كان هناك، كما كان فى تدمر أيضا، رسم آخر على الخروج و على تصدير البضائع.

سكان مكة

و تقول دائرة المعارف هذه ان سكان مكة فى وقت الهجرة كانوا يدعون بتحدرهم كلهم من جد واحد يسمونه قريشا أو فهرا، و كان قريش يلقب بالنظير أيضا. و قد كانت أصول قريش متواضعة، لا يعرف الا القليل عنها. لكن المعروف انهم كانوا يؤلفون فرعا من الفروع غير الثرية التى تتصل بكنانة، الأرومة الأصلية. و كانوا فى أول أمرهم يعيشون عيشة تاعسة فى الجبال الوعرة التى تحيط بمنطقة مكة المقدسة. و المقول ان رئيسا يتحلى بالكثير من المزايا الحربية، اسمه قصى، جاء من شمال الحجاز فأنزلهم بقوة السلاح فى مكة بعد ان انتزعها من سيطرة خزاعة.

و يمكن تمييز عشر بطون من قريش، على ما يذكر هذا المبحث، و هى:

هاشم، و أمية، و نوفل، و زهدة، و أسد، و تيم، و مخزوم، و عدى، و جمح و سهم. و كان هؤلاء يشغلون فى الدرجة الأولى مركز المدينة أو بطن الوادى، أى البطحاء، حيث يتجمع ماء زمزم، و حول القعر الذى كانت تقوم فيه الكعبة. و لذلك صار يسمى أحدهم الأبطحى، او البطاحى، و صارت قريش تسمى «قريش البطاح». و قد كانت المحلة الوسطى من مكة تعتبر محلة خاصة بالطبقة الارستقراطية من الناس، أو محلة الأسر الكبيرة من قريش. و هناك بطون من هذه البطون العشر كانت خاملة الذكر و لم تشتهر الا بظهور الأسلام، مثل تيم و عدى اللتين نبه ذكرهما بالخليفتين الراشدين

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۸۴

أبى بكر و عمر. اما البطون الأخرى، التى يكتنف ارتباطها بالجد الأعلى شىء من الغموض فقد كانت تنتحى ارباض مكة على سفوح الشعب الواطئة من الجبال المطلقة على البلدة، و لذلك كان يطلق عليهم «قريش الظواهر». على ان هؤلاء كانوا، مع تمتعهم باعتبار أقل مما كانت تتمتع به العشائر الأخرى من الأباطحة، يتميزون عنهم بالشجاعة و البسالة فى الحروب. و لهذا كانوا يقدمون للمجتمع القرشى أحسن الجنود و أشجعهم، و لم يتخاوا عن ذلك الى سكان مكة الوسطى.

الحكومة و الادارة

ليس من السهل، على ما يقول كاتبا هذا البحث فى دائرة المعارف، الاهتداء الى دلائل واضحة تدل على وجود حكومة معينة فى مكة يومذاك.

على انه لا من ان يكون قد وجد نظام بسيط للسجلات او الوثائق (أرشيف) تحفظ فيه اتفاقيات التحالف و المتاجرة، و مؤسسة خاصة تقوم بجباية الرسوم و الضرائب من التجار الاجانب. و هناك ما يستدل منه على ان البعض من سكان مكة كانوا يشغلون وظائف شرفية بحتة من دون تمتع بسلطة قضائية، غير انه لا يمكن التأكد من عددهم و لا من نوعية الوظائف التى كانوا يشغلونها.

و يقول لامانس ان حكومة مكة يومذاك يمكن ان تسمى «جمهورية التجار»، و ان أبا سفيان اذا كان يمكن ان يسمى فيها «شيخ قريش أو رئيسها» فأن عددا آخر من معاصريه كان يمكن ان يمنحوا ألقابا لا تقل عن هذا اللقب فى المنزلة. كما يقول ان الطريقة التى دونت فيها حوادث السنين الثمان الأولى بعد الهجرة تثبت بطلان الانطباع الخاطىء بأنه كان يمسك زمام القوة فى مكة بيديه. على ان الحقيقة هى انه كان اقدر رجال قريش الذين يمثلون بطونها الاصلية، و أكثرهم ذكاء. فهل كان هؤلاء الوجوه يكونون مجلسا أو هيئة رسمية منتظمة يا ترى؟ ان هناك ما يدل على ان هذا

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۸۵

كان شيئا حقيقيا، حتى ان مكة كان فيها، على ما يقال، نوع من «مجلس شيوخ» أو «مجلس كبير» يسمى «دار الندوة». و لم يكن هذا يعقد الا فى الظروف الاستثنائية او الطارئة. على ان الشؤون التى كانت تنطبع بالطابع العام و الأهمية الشاملة كان يبتّ فيها عادة فى المجالس الخاصة، أو مجالس الأسر، او النادى اى «نادى القوم» الذى كان يطل على فناء الكعبة بورصة البلدة أو سوقها العام على ما يقول لامانس.

و يقول لامانس، علاوة على ذلك، أن القرآن لا يمكن ان يتصور وجود شىء من السلطة من دون وجود مجلس للوجوه او الأشراف معها، أى الملأ. و تدل كثرة ورود هذا الاسم فى القرآن الكريم على ان النبى الأعظم لا بد من ان يكون قد شاهد بنفسه هذا «الملأ» و هو يعمل أو يحكم.

و لذلك يمكن أن نقول ان مكة كانت تحكمها أقلية الملأ. و كانت هذه القلة، الأوليغاركية بالتعبير الحديث، عبارة عن مجلس خاص يتألف من رؤساء اكبر الأسر و أكثرها ثراء و نفوذا فيها. و هذا هو سبب ذكر أمية و مخزوم عند ذكر هذا المجلس و تشكيله. و لا يمكن لأى أحد ان يحصل على العضوية فيه بالانتخاب و لا بالولادة، و انما يحصل عليها بالخدمات التى يقدمها للمجموع و النفوذ الذى يحصل عليه بالثروة و القابلية الخاصة. و على هذه الشاكلة كان هذا المجلس قد رحب بانضمام ابن جدعان الثرى جدا اليه، برغم انتمائه الى تيم غير المتنفذة.

موقع مكة و مناخها

كانت مكة فى وقت الهجرة تبدو بشكل هلال متطاول ينحنى طرفاه نحو جناحى جبل قعيقعان، و كانت و هى بهذا الشكل تنحصر ما بين سلسلة مزدوجة من الجبال الجرداء شديدة الانحدار. و كان مركز هذا الأخدود الذى لا يتحرك فيه الهواء بسهولة يتطابق تطابقا ملائما مع منخفض موجود فى قعر الوادى اما مكة القديمة فقد كانت تشغل قعر هذا المنخفض الذى

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۸۶

الذى يسمى «الوادى» او «بطن مكة»، كما كان وسط هذا المنخفض يسمى «البطحاء». و قد كانت بعض الابنية القائمة فى هذه المحلة قريبة من الكعبة بحيث كانت ظلالها تختلط فى الصباح و المساء بظلال المبنى المقدس.

و فيما بين هذه البيوت و الكعبة نفسها كان يمتد فضاء ضيق ينخفض فى مستواه عن مستوى الارض المحيطة به. و كانت هذه البقعة

المفتوحة تكون «المسجد» البدائى او المعبد المفتوح الى السماء الذى لم تكن بطحاء الجاهلية تعرف معبدا سواه، كما كانت نهايات الأزقة الصغيرة المتصلة بهذا الفضاء تسمى «أبواب الحرم او المسجد». و قد سميت باسماء البطون او القبائل النازلة حول الكعبة، فكان يقال مثلا «باب بنى جمح» او غير ذلك. و كانت جدران البيوت العائدة لتلك القبائل تعين حدود المسجد نفسه من جميع الجهات. و يقول لامانس ان مجلس الأسر الرئيسية لقريش، او النادى الذى كان يؤلف «الملأ» كان يعقد عادة فى الطوابق الارضية من الأبنية المواجهة للكعبة.

اما فى «الظواهر» و الشعاب، من بعد ذلك، فقد كانت تنتشر بيوت الفقراء و أكواخهم الحقيرة بصورة تدل على الكثير من الفوضوية و الانحطاط. و كانت مشكلة اولئك السكان الدائمة قلة الماء و ندرة وجوده، فان السكان كلهم كانوا يعتمدون على مقدار الماء المتغير، الموجود فى بئر زمزم. و كان هناك علاوة على ذلك عدد من الآبار الأخرى الموجودة فى خارج البلد معظمها، لكنها كلها كانت لا تكاد تكفى السكان فى مواسم الحج على الأخص.

يضاف الى ذلك ان الامطار فى منطقة مكة كانت و ما زالت شحيحة، و لا تسقط الا فى فترات متباعدة. و لذلك فان فترات الجفاف التام كثيرا ما تمتد الى أربع سنوات متتالية، غير ان بعض مواسم الشتاء تغزر فيها الأمطار فتصبح سيولا مدمرة تصل الى حد لم يسمع بمثله من العنف و التخريب.

إذ يقوم فى شرق مكة جدار جبلى شديد الانحدار، متألف من سلسلة من

الطبقات الصخرية و القمم التى تندمج فى النهاية بجبل الصراة. و تقوم هذه القمم الوعرة و شعابها المختلفة بجمع مياه الأمطار الموسمية الغزيرة، التى تأتى بالخصب و الخير الى منطقة اليمن. و على طول هذه المنحدرات الخالية من الشجيرات و الأعشاب تتكون عند سقوط الأمطار سيول غزيرة و شلالات متدفقة فتهبط فى مجاريها المختلفة بسرعة و تنقض على الباطن الذى تقع الكعبة المشرفة فى قعره. ثم تشق طريقها من «أبواب المسجد» فتغمر البقعة المحيطة بأماكن العبادة، و ترتفع بعد ذلك فتهاجم الكعبة نفسها. و يبدو أن قريشا لم تكن تعبأ كثيرا بهذا الوضع قبل الهجرة، أو أنهم كانوا عاجزين عن الحيلولة دون وقوع الضرر منه. و لم تؤد الجهود التى بذلها الخلفاء بعد ذلك الى نتائج مرضية. و الظاهر ان هذه الحالة ما تزال مستعصية حتى يومنا هذا فقد لاحظنا فى أحد مؤلفات فيلبى و هو كتاب (اليوبيل العربى) .

وجود أشارة الى غرق المسجد الحرام و الكعبة فى شهر تموز ۱۹۵۰. و هناك فى غير هذا الكتاب علاوة على ذلك، صورة معبرة تمام التعبير لمياه السيول التى اكتسحت المسجد الحرام و ما يحيط بالكعبة المشرفة فى ذلك الشهر فغمرتها الى عمق سبعة أقدام بالمياه. حتى تسنى للناس ان يسبحوا فيها.

مالية مكة و حياتها الاقتصادية

و قد جاء فى (دائرة المعارف الأسلامية) عن هذا الموضوع ان تمحيص الأدبيات الغزيرة التى كتبت عن السيرة النبوية العطرة ينم عن انطباع عام يدل على ان نشاطا تجاريا فعالا كان يتفجر من وادى مكة العقيم [المسجد الحرام و قد غمره سيل الامطار حتى استحال الى بحيرة يسبحون فيها

الضيق. و ان الأشارات التى ترد فى القرآن الكريم عن هذا الموضوع تؤكد على الانطباع نفسه و تؤيده. و قد احتفظ الرسول الأعظم طوال أيام حياته بما تعلمه من هذه الثقافة القرشية و تدرب عليه، و هو لا يخرج فى الأساس عن طابعه التجارى المتكشف فى كل

فرصة أو مناسبة.

و لـذلك فان المرء ليأخـذه العجب حينما يطلع على ما كان للكتابـة و الحساب من أهميـة فى حياة مكـة الاقتصاديـة قبل الهجرة. فألى جنب «دفتر الحساب» كان الشـيء البارز فى كل دكان من دكاكينها وجود الميزان، الـذى لم يكن يسـتعمل لوزن السـلع بقـدر ما كان يسـتعمل للتأكد من الدفعيات التى تدفع لهم بجميع الأشـكال بما فيها النقد. فلم يكن يوجد النقد بكثرة فى أسواق مكة، و لذلك كان التعاطى يتم بالأضافـة الى النقد بالمعادن الثمينة و سـبائك الذهب و الفضة، و بالتبر او تراب الذهب. و هذا كله لا يمكن التأكد منه الا بواسطة الميزان، اما فى الحالات التى كانت تستدعى المزيد من الدقة فكان يستعان بخدمات الوزان الممتهن.

و الملاحظ ان رأس المال كان على جانب كبير جدا من التداول فى ذلك المجتمع المكى الخاص. فلم يكن ينشـغل التاجر فى اكتناز الثروة و ادخارها فى صـناديقه المقفلة فقط، و انما كانت له أيضا عقيدة عمياء باسـتغلال رأس المال غير المتناهى، عن طريق الأقراض. و لـذلك كان الـدلالون و الوكلاء و أكثرية السـكان يعيشون على الأقراض و الأئتمان. و كانت المضاربة تسـتأثر برغبة الجميع فيها، لا سيما مضاربة «الأسـهام بالنصف». و على هذه الشاكلة كان يمكن استثمار أبسط المبالغ و أقلها و توظيفها للربح الى حد الدينار الذهب الواحد، و حتى الى حد «النش» أو نصف الدينار.

و قـد كانت العملات التى ترد الى مكـة من أنواع مختلفـة بجـد الاختلاف، من دينار الذهب البيزنطى (ديناريوس أوريوس) الى درهم الفضة الساسانى و الحميرى. و كثيرا ما كانت هذه العملة تسوف و تستهلك فيقل و زنها، او

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۸۹

تشوه معالمهـا، بعـد ان تكون قـد ضـربت فى مختلف دور الضـرب. و لـذلك لم يكن غير الصـراف المختص قـادرا على التعرف على مختلف انواعهـا و تعيين مقـاييس و أقيـام الموجود منهـا فى التـداول بدقـة و أحكـام. و كـانت هنـاك بالأضافـة الى ذلـك تعقيـدات الاختلاف فى معايير العملة و تذبذب أقيامها و أثمانها.

فقـد كانت البلاد الخاضـعة للحكم البيزنطى مثل سوريـة و مصـر تعتبر من «أهل الـذهب» اى من البلاد التى تعتمد على التعاطى بمعيار الـذهب فى العملـة، بينمـا كـانت بابـل من «أهل الورق» أى من البلاد التى تعتمـد على معيار الفضـة الساسانى. و لـذلك كانت تنشـط الحركة فى أسواق مكة عشية رحيل القافلة الى الشام فيرتفع سعر الدينار، لأن التاجر المكى كان من رجال المال الذين لا يختلفون فى كل وقت و مكان. فهو حينما تسـنح الفرصـة يبادر الى اسـتثمار رأس ماله فى المتاجرة و تنظيم القوافل و يسـلفها الى رؤساء القافلـة أو التجار أو غيرهم.

و لما كانت مكـة مدينـة تكثر فيها الحركـة التجارية و يوجد فيها الصـرافون و المصارف فى الدرجة الأولى فقد كان فيها مؤسـسات و أعراف تصـلح لمثـل هـذا النوع من المعاملات. و كان من جملـة هـذه الربا أو الربـح بأبشع أنواعه، عن طريق إقراض الـدينار بـدينار و الدرهم بدرهم أى الأقراض بنسبة مئة بالمئة. و لذلك احتجت قريش حينما حرم القرآن الربا بقولها انها لا ترى فيه سوى نوع من انواع البيع و الشـراء، أو تأجير رأس المال. و كانت تشـيع المضاربـة كـذلك، المضاربـة على أسـعار التحويل و أحمال القوافل و حاصـلات الحقول و قطعان الأغنام، و على تزويد المدينة بالأزودة المطلوبة أيضا.

و كانت تؤلف جمعيات و همـية و تعقد صـفقات للبيع تقترض من أجلها ما تحتاجه من المبالغ. و لذلك يقول المؤرخ سترابو «ان كل عربى لاـ بـد ان يكون تـاجرا أو دلالاـ». و حينمـا كان مواطنو مكـة يساقون فى حملات حربيـة كانوا يحملون معهم على الـدوام بعض البضائع و السلع، و هذا ما فعلوه حينما توجهت قوة من مكة لا سعاف قافلة بدر. و يقول كاتب البحت

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۹۰

فى دائرة المعارف الأسلامية ان أول ما فعله المهاجرون عند وصولهم الى المدينة انهم سألو عن موقع السوق، و أن النساء كن يشاركن الرجال فى هذه الغرائز التجارية كذلك. فأن ام أبى جهل كانت تدير محلا لبيع العطور، و ان هندا زوجة أبى سـفيان كانت تبيع السـلع

على الكلبيين فى سورية. و قد كانت لنساء مكة أيضا مصالح فى القوافل الخارجة منها و الداخلة فيها.

فكن يجتمعن حول أبى سفيان عند رجوع القوافل من الخارج ليطلعن على مقدار الربح الذى يصيب الواحدة منهن لقاء ما وظفته من مال.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۹۱

قوافل مكة

لقد كان تنظيم شؤون القوافل التجارية و تسييرها من المواضيع التى كانت تتناولها المناقشات غير المنتهية فى «النادى» حول الكعبة. و كان رحيل القافلة و عودتها من الحوادث التى يهتم بها الجميع على سواء، لأن سكان مكة كلهم كانوا مرتبطين بها بشكل من الأشكال. و كانت القافلة فى أثناء سيرها الى الشام و غيرها تبقى على اتصال دائم بأم القرى عن طريق البدو الذين يصادفونها فى الطريق، أو بواسطة رسل خاصين يرسلون لهذا الغرض. فقد انفذ ابو سفيان مثلا رسولا خاصا من هؤلاء ليصف الى سكان مكة حراجة موقف القافلة حينما تصدى لها المسلمون فى بدر، فكلفه ذلك عشرين دينارا و هو مبلغ جسيم بالنسبة لمقاييس تلك الأيام لكنه كان يتناسب مع جسامة المبلغ الذى كانت توظفه مكة فى قافلتها التى كانت تقدر بخمسين ألف دينار.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۹۲

و كانت قوافل مكة ذات حجم غير يسير فى العادة. فلم تكن تستخدم فيها الخيول و لا البغال، و انما كانت تقتصر على الأبل التى كان يرتفع عددها أحيانا حتى يصل الى (۲۵۰۰). اما عدد الرجال، من تجار و حراس و أدلاء، فقد كان يتراوح بين مئة و ثلاث مئة، و قد كانت تشدد الحراسة على القافلة حينما تصل الى الأماكن التى كانت تكثر فيها عصابات «الصعاليك»، و كانت القوافل المكية تستجلب من اليمن منتجات الهند و حرير الصين و المنسوجات العدنية. و فيما عدا التبر، أو تراب الذهب، كانت صادرات أفريقية الرئيسية الى مكة العبيد و العاج. فأن مكة كانت تستجلب من أفريقية عمالها و جنودها المرتزقة من الاحابيش. اما فى مصر و سورية فقد كان تجار قريش يتسوقون سلع المترفين من منتجات بلاد البحر الأبيض المتوسط الصناعية، و على الأخص الأقمشة القطنية و الكتانية و الحريرية، و الأقمشة الملونة باللون الأرجوانى البراق. و كان يؤتى من بصرى و الشراة (فى سورية) بالأسلحة و الحبوب و الزيت، مما كان يرغب فيه البدو جد الرغبة.

و قد كان سير القافلة بطيئا فى العادة، لكن السلع التى كانت تحملها مثل الجلود و المعادن و الخشب العطرى لم يكن يخشى عليها من العطب و لا التأخر و كانت النفقات تقتصر على أجور الحيوانات و الحراسة و رسوم العبرية و الهدايا التى كانت تقدم الى رؤساء القبائل. و لذلك كانت نسبة الربح تصل الى مئة بالمئة فى مثل هذه التجارة. و هذا ما كان ينطبق تمام الانطباق على قافلة بدر التى جاء كل دينار وظف فيها بدينار من الربح، على ما يقول كاتب هذا البحث فى دائرة المعارف الأسلامية.

ثروات مكة

و بالنظر للوضع التجارى الذى كانت تعرف به مكة المكرمة. على ما مر ذكره، كان لا بد من ان يتجمع فيها شىء غير يسير من الثروة و المال

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۹۳

فى صناديق متموليها الذين كانوا يعرفون بميلهم الخاص الى الادخار و التوفير و هنا تشير دائرة المعارف الأسلامية الى ان قوافل مكة

لم تكن تحمل سوى بضائع غالية الثمن، و ان أصحابها كانوا من أبناء البيوتات الثرية من مثل أسرة أبى أحيحة الأموية التى كانت توظف فى قافلة بدر و حدها مبلغ ثلاثين ألف دينار. و يشير هذا المرجع أيضا الى أن بعض أسر مخزوم فى مكة لم تكن أقل من أسر منافسيها الأمويين ثراء و مالا، و ان عبد اللّه بن جدعان التيمى كان حتما من «مليونيرية» مكة فى تلك الأيام بالنسبة لما يروى و يذكر عنه. و يذكر مرجعنا هذا كذلك ان المشرفين على قافلة بدر من المتمولين لم يضعوا ثروتهم المذكورة كلها فى هذه القافلة بطبيعة الحال، لانهم كانوا يستفيدون مما تبقى من ثرواتهم فى أوجه استثمارية أخرى أيضا مثل الاقراض بالربح الفاحش و المضاربة و غير ذلك. و كان من بين المليونيرية الآخرين فى مكة الثريان المخزوميان الوليد بن المغيرة، و عبد اللّه والد عمر بن أبى ربيعة الشاعر المعروف فى صدر الأسلام.

و تأتى بعد هؤلاء فى الثراء بعض الشخصيات المكية المشهورة مثل عبد الرحمن بن عوف الذى كان رأس ماله يبلغ ثمانية ألاف دينار، و الحارث بن عامر، و أمية بن خلف. و كان الأول قد وظف ألف دينار فى قافلة بدر المعروفة، بينما كان الثانى قد وظف فيها ألفى دينار. و أخيرا فقد كان هناك فى مكة جمهور التجار الصغار و الدلالين و أصحاب الحوانيت، الذين كانوا يؤلفون البورجوازية الصغيرة فى مكة على ما يقول مرجعنا.

و كان البعض من المتمولين يضيف الى أشغاله بالتجارة اشرافه على بعض الأعمال الصناعية كذلك مثل صناعة الحديد و النجارة و ما أشبه. و يقول كاتب البحث فى هذا المرجع ان الذى يصح ان يتخذ نموذجا لهذه الطبقة الخليفة أبو بكر الصديق الذى كان بزازا فى الجاهلية برأس مال قدره أربعون ألف درهم على ما يبدو. و مما يذكر بين الصرافين المتمولين كذلك العباس

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۹۴

بن عبد المطلب عم النبى، غير أنه لا تتوفر تفصيلات كافية عنه فى هذا الشأن.

و يقول مرجعنا أيضا ان رجال مكة الذين دفعوا مبالغ جسيمة لتفدية أقاربهم الذين وقعوا أسرى عند المسلمين فى موقعة بدر الكبرى لا بد من أنهم كانوا على درجة غير يسيرة من الثراء و الغنى. فقد كلفهم ذلك مبلغا لا يقل عن مئتى ألف درهم، و تنازل رؤساء مكة عن حصصهم الأصلية فى مشروع قافلة بدر البالغة حوالى خمسة و عشرين ألف دينار من أجل التهيؤ للانتقام من المسلمين فى غزوة مقبلة. و قد فعلوا ذلك عن طيبة خاطر، و بروحية المتمول الموسر الذى لا يبالى بالمجازفة و المضاربة بمقياس واسع من أجل الربح، فى الوقت الذى أبوا فيه أن يمسوا حصص المساهمين الصغار فى القافلة.

هذا و لم تكن مكة قبل الهجرة تملك أية سفينة أو ميناء. على ان بعض السفن الأجنبية كانت تلقى مراسيها فى أحوال استثنائية فى خليج الشعيبة الصغير على ساحل البادية. و كان هذا هو المكان الذى غرقت فيه ذات يوم إحدى السفن البيزنطية، فجىء بخشبها الى مكة و جدد تشييد الكعبة به.

و الى هذا المكان توجه أيضا المسلمون الأوائل الذين هاجروا الى الحبشة هاربين من قريش، بعد ان سمعوا ان سفينتين كانتا قد ألقتا بمراسيهما فيه.

و نادرا ما كانت السفن تقلع من ساحل جدة المقفر الذى كان أقرب من الشعيبة الى مكة. غير ان جدة أخذت مكان الشعيبة على عهد الخليفة عثمان بن عفان و أصبحت ميناء لعاصمة القرشيين. و حينما استقر النبى الكريم فى يثرب و قطع على قريش اتصالها بسورية لم يفكر رجال مكة مطلقا بالتوجه الى البحر و ركوب متنه، بل اتخذوا طريق نجد الطويل اليها مسيرا بدلا من طريقهم الأول.

بعد الهجرة

اشارة

ان الحوادث التى وقعت خلال السنين الثمان التى أعقبت الهجرة يمكن تلخيصها، على ما يقول مرجعنا، بكفاح النبى محمد ضد خصومه. و قد

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۹۵

كان كفاحه هذا، و استسلام مكة له بعد ذلك، ضربة قاضية للازدهار الاقتصادى الذى كان يتمتع بخيراته أعيان مكة و سراتها. فقد أخذت الأسر الكبيرة تهاجر واحدة بعد أخرى الى المدينة، التى أصبحت عاصمة الأسلام العتيدة. ثم ازداد هذا الاتجاه فى عهد الخلفاء الراشدين الثلاثة الأوائل، الذين أبقوا مقرهم العام ما بين الأنصار. اما على فقد غادر الجزيرة العربية نهائيا و استقر فى الكوفة. و حينما تولى رجال قريش مقاليد الحكم بأيديهم، و اصبحوا قادة للجيوش و حكاما للمقاطعات و البلاد، تخلوا عن اهتمامهم بالتجارة و لم يعد يسمع شىء عن القوافل و الاسواق المعروفة فى الحجاز.

فخلت مكة و لم تعد ترغش بالحياة من جديد إلا- فى موسم الحج التى كان يأتى فيها الخلفاء اليها على رأس الحجاج القادمين من بلادهم. و قد كان الاستيلاء على العراق آخر ضربة توجه للحياة الاقتصادية فى غربى الجزيرة العربية فتقضى عليها نهائيا، لأن التجارة الهندية استأنفت السير فى طريقها القديم المار بالخليج العربى و وادى الرافدين و عاد اتصالها المباشر بأسواق الشرق الأوسط عن طريق البر.

مكة فى العهد الاموى

غير ان الوضع فى مكة قد تحسن فى عهد الأمويين، على ما يقول مرجعنا فى دائرة المعارف الأسلامية. فقد أبدى معاوية اهتماما فعالا بمدينته و مسقط رأسه، فشيد فيها الأبنية و أصلح الزراعة فيما حولها بحفر الآبار و أنشاء السدود لخزن المياه. و أصبحت مكة على عهد من جاء بعده من الأمويين، و لا سيما بنى مروان، مدينة للهو و الراحة و ملتقى للشعراء و الموسيقيين الذين كان يجتذبهم اليه المجتمع الباهر المزدهى بأبناء الصحابة. إذ كان الكثيرون من الناس قد عادوا الى السكنى فيها بعد ان حصلوا على الثروة عند اشتغالهم فى حكومات البلاد المستولى عليها. و لا يخفى ان اتصالهم بالمدنيات الأجنبية كان قد هذب طباعهم و جعلهم شديدى التأنق. فتعودوا على الاستحمام

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۹۶

الذى يتطلب توفر الماء الكافى له، و لذلك كان لا بد من سحب المياه الى مكة من جبل الصراة. و يقرن اسم خالد القسرى بهذا العمل الكبير الذى بدل وجه المدينة على ما تقول دائرة المعارف. فقد عمد الخليفتان عمر و عثمان من قبل الى الاستعانة بالمهندسين الأجانب لحل مشكلة السيول و الفيضان، فشيدوا الخزانات و القناطر فى الاماكن العالية و حافظوا على المناطق المحيطة بالكعبة بالسدود، و أكمل الأمويون هذه الأعمال و هذبوها. فحفروا مجرى جديدا للسيل، و حاولوا التخفيف من حدته و عنفه بالحواجز التى اقيمت فى مستويات مختلفة. و قد كان همهم الأكبر فى ذلك حماية منخفض البطحاء الذى تقوم الكعبة فى وسطه. غير ان مهارة المهندسين فى تلك الايام لم تكن كافية للتغلب على المشاكل الطوبوغرافية فى المنطقة، او تجنب التخريبات التى كانت تسببها امطار الشتاء التى تنزلها العواصف الرعدية الخاصة بالمنطقة.

فقد احبطت الجهود المبذولة فى هذا الشأن شدة انحدار الأرض الذى كان يعقده شكل البطحاء القابل لتصريف المياه.

و الى جانب هذه الاصلاحات، و الاحتياطات المتخذة ضد السيول بذلت الجهود لتوسيع الفناء الضيق المحيط بالكعبة، لان توسع شأن الاسلام و انتشاره كان يتطلب وجود مكان للعبادة يتناسب و ادعاءاته الطويلة العريضة (كذا). فقد أدت الاستملاكات التى بدأ بها عمر، و انتهت فى أيام الوليد الأول، الى إنشاء الأواوين. و لذلك يمكن ان يقال ان تخطيط المسجد الحرام و وجود الفناء الواسع حول

الكعبة كان من صنع الخليفة الأموى الذى استعان بالمهندسين المستقدمين من سورية و مصر. و كانت حاكمية الحجاز بمدنه الثلاث، مكة و المدينة و الطائف، لا تناط الا بفرد من أفراد الأسرة المالكة بالنظر لأهميتها. و كان من بين من تولاها من هؤلاء سعيد بن العاص و أثنان ممن اصبحوا خلفاء بعد ذلك، و هما مروان بن الحكم و عمر بن عبد العزيز. و فى الظروف التى لا يمكن تعيين أحد من أفراد الأسرة المالكة لها كان يعين الحكام الذين ثبتت أهايتهم بالتجربة مثل الحجاج و خالد القسرى.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۹۷

و مع ذلك فقد بقيت المدينة المنورة مركزا للحكومة فغطت على مكة فى عهد الأمويين نظرا لأهميتها السياسية، و لأنها كانت موطنا للطبقة الارستقراطية المسلمة الجديدة.

و قد أدت ثورة عبد اللّه بن الزبير على عهد يزيد الى سوق الجيوش السورية الى مكة، و كان الثائر هذا قد جعل مقره فى فناء المسجد الحرام و كان يحمى الكعبة يومذاك عريش من الخشب فأدى اهمال أحد الجنود المكيين الى ان تشب النار فيها، و لذلك اضطر ابن الزبير الى ان يعيد تشييد المبنى من جديد بعد ان أضاف الحجر اليه. و حينما قمع الحجاج ثورة ابن الزبير أعاد الكعبة الى أبعادها الأصلية، فبقيت على تلك الحالة حتى يومنا هذا. و فى سنة ۷۴۷ للميلاد (۱۲۹ ه) استولى على مكة ثائر يمانى ينتمى الى الخوارج من دون أن يلاقى مقاومة تذكر. على أنه سرعان ما دحرته جيوش مروان الثانى و ذبح فيها. و فى سنة ۷۵۰ (۱۳۲ ه) انتقلت مكة مع سائر بلاد الخلافة الاسلامية الى عهدة الحكم العباسى.

مكة فى عهد بنى العباس و ما بعده الى حد تولى الشرفاء (۷۵۰- ۹۶۱)

لم تكن الأحوال فى مكة فى بداية الحكم العباسى تختلف كثيرا عما كانت عليه فى أيام الأمويين، برغم انتقال مركز الثقل فى الاسلام من دمشق الشام الى بغداد. فقد كان الحرمان يعين لهما فى العادة أمراء من بنى العباس أو اشخاص لهم اتصال و ثيق بهم . و كانت مكة و الطائف فى بعض الأحيان يحكمهما حاكم واحد، يكون فى الوقت نفسه أميرا للحج، بينما كان يعين للمدينة حاكم على حدة.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۹۸

على ان بلاد الجزيرة العربية كان يعيش فيها منذ القرن الأول للهجرة عدد غير يسير من العلويين، فظل بعض البارزين من هؤلاء يتحينون الفرص للثورة على السلطات الحاكمة و انتزاع الحكم منها. و لذلك نجد ان المنصور (۷۵۴- ۷۷۴) قد حدثت له مشاكل من هذا القبيل فى غرب الجزيرة العربية، كما نجد فى أواخر أيام الخليفة المهدى (۷۷۴- ۷۸۵) ان رجلا من الحسنيين يدعى الحسين بن على ثار بالقرب من المدينة المنورة فشن هجوما قويا عليها. غير أنه قتل فى فخ الكائنة على مقربة من مكة بعد أن جردت عليه الحكومة جيشا كان يقوده أمير الحج العباسى نفسه، فدفن فى مكان يسمى اليوم «الشهداء» و أصبح يدعى بشهيد فخ.

و قد كان من عادة هارون الرشيد خلال الحجات التسع التى حجها فى أيام خلافته، ان يوزع الهبات و يصرف الأموال الطائلة فى مكة. على أنه لم يكن العباسى الوحيد الذى كان يوزع الأموال فى البلاد المقدسة، و حينما استمر التوزيع مدة من الزمن أصبح له تأثير سيء فى أخلاق المكيين. فلم يبق من أبناء الأسر القديمة أحد فيها تقريبا، و أصبح السكّان الموجودون فيها متعودين على الاتكال على غيرهم فى المعيشة بحيث كانوا على استعداد دائم للاستثارة فى أى وقت كان. و كثيرا ما كان موقف المكيين هذا يستغل للأغراض السياسية المعروفة.

و فى عهد المأمون (۸۱۳- ۸۳۳) ثار العلويون من جديد بقيادة حسين الأفطس و ابراهيم بن موسى، فسيطروا على المدينة و مكة و اليمن و استولوا على خزائن الكعبة (كذا). و مما يدل على مقدار ما وصل اليه نفوذ العلويين و سطوتهم فى تلك الأيام ان المأمون اضطر الى تعيين اثنين من العلويين لحاكمية مكة. و حينما أخذت الخلافة العباسية بالانحطاط و التدهور بعد وفاة المأمون بدأت تسود

البلاد الاسلامية المقدسة فترة من الفوضوية التى كثيرا ما كانت تكون مصحوبة بالقحط أو المجاعة. و أصبح من عادة عدد من الحكام المسلمين ان يكونوا ممثلين فى مواكب الحج كل سنة، و ان ترفرف أعلامهم

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۱۹۹

فى سهل عرفات، و لذلك فنادرا ما كانت المدينة المقدسة نفسها قادرة على تجنب الاشتباك و الاصطدام فى كل فرصة أو مناسبة. و قد تأثرت حالة الأمن و سلامة القوافل الآتية بالحجاج تأثرا غير يسير، و أصبح الحجاج غير آمنين على أنفسهم فى الطرق.

و هنا يلاحظ ان مرجعنا يتحامل من دون مبرر علمى على العلويين فى كل مناسبة، و يعزو اليهم سبب الثورات و الغزوات و اختلال الأمن.

و يخرج من ذلك الى القول بأن الدعوة العلوية قد قوى شأنها فى العالم الاسلامى حينما تأسست أسرة حسنية مالكة فى طبرستان. و كان تأثير هذا الحادث فى مكة ان ثار اثنان من الحسنيين هما اسماعيل بن يوسف و أخوه محمد، و هاجما المدينة وجدة فأحدثا تخريبات غير يسيرة فيهما (۸۶۵).

و قد جلب ظهور القرامطة بعد ذلك مزيدا من البؤس و التعاسة الى هذه البلاد خلال خمسين السنة الأخيرة من الفترة التى انتهت بظهور الشرفاء فيها. و كان الخلفاء، و هم يعانون كثيرا من المضايقة فى عواصمهم، غير قادرين بالمرة تقريبا حتى على التفكير فى مد يد المساعدة للبلاد المقدّسة او المبادرة لانجادها لأن ممثليهم فيها لم تكن توجد قوة كافية تحت تصرفهم.

فقد قطع القرامطة الطريق على الحجاج من سنة ۹۱۶ (۳۰۴ ه) فصاعدا، و فى سنة ۹۳۰ غزا (۱۵۰۰) قرمطى مكة نفسها و ذبحوا من سكّانها بالألوف، ثم نهبوا الحجر الأسود من الكعبة و نقلوه الى البحرين. و لم تخفت حماستهم، أو تقل حدتهم، إلا عندما أدركوا ان هذه الأعمال الشائنة لم تكن تقربهم من هدفهم الأصلى و هو القضاء على الحكومات الاسلامية فأعادوا الحجر الأسود الى مكانه فى مكة سنة ۹۵۰ (۳۳۸ ه). و بذلك تخلصت مكة من خطر جسيم كان يهددها على الدوام. و قد شهدت السنة التالية تزايد نفوذ العلويين فى القسم الغربى من الجزيرة العربية، و لا سيما بعد ان تقدم شأن الحكم الفاطمى فيها و تعاظم نفوذ البويهيين فى بغداد. و منذ هذا الوقت

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۰۰

فصاعدا صار العلويون فى مكة يلقبون بالشرفاء، و احتفظ كل منهم بلقب «الشريف» حتى اليوم.

الموسويون الشرفاء

يبدأ حكم الشرفاء الموسويين فى مكة بجعفر الذى تولى الحكم فى احدى سنوات الفترة المنحصرة بين ۹۵۱ و ۹۶۸، على ما يقول مرجعنا، لكن المعروف ان العلويين كانوا يسيطرون على الأراضى المقدسة قبل ذلك، و ان سلالة الشرفاء الحسنية تبدأ به فى مكة بينما كان اسم الشرفاء فى المدينة يطلق على الأسرة الحسينية الحاكمة فيها أيضا.

و يدل تولى الشرفاء الحكم و استمرارهم فيه على الاستقلال النسبى الذى كانت تتمتع به الجهات الغربية من الجزيرة العربية بالنسبة لسائر أجزاء العالم الاسلامى، من الناحيتين السياسية و الدينية. و قد استعادت مكة بهذا رجحان كفتها على المدينة منذ ذلك اليوم. و مما يدل على مقدار القوة التى أبداها الشرفاء فى المحافظة على استقلالهم تجاه القوى الخارجية ان مكة رفضت تقديم الولاء و الطاعة للخليفة الفاطمى فى مصر سنة ۹۷۶. لكن هذا الخليفة سرعان ما أمر بمحاصرة مكة و منع استيراد المواد المطلوبة لها من مصر حتى اضطر المكيون الى الرضوخ لمشيئته، لأن الحجاز كان يعتمد على مصر فى أقواته. اما الحادثة الثانية التى كانت تدل على شعور الشرفاء بالاستقلال فهى إقدام ابى الفتوح (۹۹۴- ۱۰۳۹) على اعلان الخلافة لنفسه فى سنة ۱۰۱۱. و قد يكون الدافع لذلك ما بدر من

الخليفة الحاكم بأمر اللّه فى مصر من امارات الزندقة و الالحاد على ما يقول مرجعنا فى دائرة المعارف الاسلامية. لكن الخليفة الفاطمى اضطر أبا الفتوح الى الرضوخ فى هذه المدة كذلك، لأن شريفا آخر من الشرفاء اغتصب الحكم لنفسه و لم يقطع أبو الفتوح استرداده منه الا بمؤازرة الحاكم بأمر اللّه نفسه. و قد انتهى عهد الموسويين الحسينيين هؤلاء بابنه شكر (۱۰۳۹- ۱۰۶۱) بعد أن مات

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۰۱

من دون عقب. و الموسويون هم أبناء موسى بن عبد اللّه بن موسى بن عبد اللّه ابن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب. و قد كانت وفاة شكر من دون عقب سببا فى حصول الفوضى و الاضطراب، و وقوع نزاع بين أفراد الأسرة الحسنية، فعاد ذلك بأوخم العواقب على مكة. فقد ذهب بنو شيبة خلال ذلك الى حد أنهم أخذوا لأنفسهم جميع ما كان فى بيت اللّه الحرام من معادن كريمة و أعلاق نفيسة على ما يقول كاتب البحث فى دائرة المعارف الاسلامية. و لذلك اضطر الصليحى حاكم اليمن الى التدخل فى الأمر، و أعاد الأمن و النظام الى نصابهما فى المدينة المقدسة. فبدا هذا التدخل التدخل الخارجى فى نظر الحسنيين شيئا غير محتمل، و طلبوا الى الصليحى أن يقوم هو بتعيين واحد منهم للشرافة و يغادر مكة. فقبل بذلك و عين ابا هاشم محمدا (۱۰۶۳- ۱۰۹۴) شريفا أكبر فيها، و بذلك تبدأ سلالة الهواشم من الشرفاء.

الشرفاء الهواشم

ينسب هذا الاسم الى أبى هاشم محمد، شقيق الشريف الأول جعفر.

و كان الأخوان هذان يتحدران من الجيل الرابع من أبناء موسى الثانى جد الشرفاء الموسويين. و قد ترتب على أبى هاشم هذا ان يدخل خلال السنين الأولى من سنى حكمه فى كفاح مستمر مع الدوحة السليمانية من الشرفاء الذين شعروا بالاهانة عند تعيينه فى منصبه. و كان السليمانيون يتحدرون من نسل سليمان أحد أخوة موسى الثانى المار ذكره.

و لقد عرفت فترة الحكم التى تولى الحكم فيها أبو هاشم بالطريقة المعيبة التى عرض فيها التابعية على أعلى المتزايدين، أى التابعية اما الى الخليفة الفاطمى فى مصر أو الى السلجوقيين الذين كانوا يسيرون الخلافة فى بغداد.

و كان تأثير ما ترتب على ذلك من تدابير سيئا على المكيين بطبيعة الحال، لأن استيراد الأطعمة و الأقوات من مصر قد توقف حالما توقف المسؤولون

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۰۲

فى مكة عن ذكر الخليفة الفاطمى فى الخطبة و استعاضوا عنه بذكر اسم الخليفة العباسى فى بغداد. و قد تكرر ذلك مرات عديدة حتى مل السلاجقة من المهزلة، فساقوا جنودا من التركمان الى مكة. و قد أدت الكراهية المتبادلة ما بين الشريف و السلطان الى الاساءة الى الحجاج القادمين الى مكة من العراق، فنظرا الى ان أمارة قوافل الحج قد نقلت بالتدريج من العلويين الى عهدة الجنود أو الموظفين الأتراك فان أبا هاشم لم يكن يتردد فى بعض السنين عن مهاجمة الحجاج و نهبهم فى الطريق.

اما خلف أبى هاشم فقد عرفت مدة حكمه كذلك بالكثير من حوادث السلب و الجشع. فان الرحالة المغربى ابن جبير يذكر أمثلة تقشعر لها الأبدان عن ذلك حينما حج الى مكة فى سنتى ۱۱۸۳ و ۱۱۸۵ . على أن الهواشم لم يكونوا حتى فى تلك الأيام مستقلين تمام الاستقلال فى حكمهم، لأن الأيوبيين كانوا قبل ذلك بعشر سنوات قد استطاعوا ان يخلفوا الفاطميين فى مصر، و أخذوا يحالون السيطرة على البلاد الآسيوية القريبة منهم، و حينما مر أخو صلاح الدين بمكة المكرمة فى طريقه الى جنوبى الجزيرة العربية تخلى عن فكرته فى الغاء شرافتها، غير ان أمارة الحج الشرفية بقيت للأيوبيين و ظلت أسماؤهم تذكر فى الخطبة بعد اسمى الخليفة العباسى و الشريف.

و قد عمد الأمير الأيوبى نفسه فى ۱۱۶۶ الى الغاء الطريقة الشيعية فى الأذان (كان الشرفاء يومذاك من الزيدية)، و سك النقود باسم صلاح الدين، ثم ألقى الرعب فى قلوب أفراد الحرس الشريفى، الذين كانوا ما فتئوا يرتكبون جرائم القتل و السرقة حتى ذلك الوقت، بانزال العقوبات الصارمة فيمن يسىء منهم. و كان من نتائج التابعية الأيوبية أيضا رجحان كفة المذهب الشافعى و انتشاره فى البلاد المقدسة.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۰۳

حكم قتاده و نسله

و فى الوقت الذى كانت تحدث فيه الأحداث المار ذكرها كان قتادة، و هو رجل من نسل موسى الثانى جد الموسوية و الهواشم، ينبه ذكره و يتعاظم شأنه فى ينبع بالحجاز، و امتد نفوذه بعد ذلك الى مكة فكثر اتباعه فيها.

و تقول بعض المراجع ان ابنه حنظلة كان يعد العدة من جميع الوجوه لا نزال ضربة حاسمة بالمدينة المقدسة و المسيطرين فيها. لكن مراجع أخرى تقول ان قتادة استولى على مكة فى يوم ۲۷ رجب حينما كان معظم سكانها منشغلين فى تأدية العمرة بمناسبة ذكرى انتهاء عبد اللّه بن الزبير من تشييد الكعبة المشرفة، التى جعل الاحتفال بها مطابقا ليوم المعراج.

و قد كان استيلاء قتادة على مكة فاتحة عهد تولى فيه حكم البلاد المقدسة رجل عالى الهمة قوى الارادة، تحدر الشرفاء المتتالون جميعهم من نسله.

فقد أخذ يثبت أقدامه فى البلاد و يحقق مطامعه فيجعل قطره مستقلا من جميع الوجوه. لكنه لم يكتب له التوفيق التام فى ذلك نظرا لأن الحجاز عاد فأصبح من جديد مسرحا للأطماع و المطامح السياسية المتضاربة.

و قد بدأ قتادة على ما يقول مرجعنا فى دائرة المعارف، بتفويت الفرص على نفسه مع الدول المعظمة. فأساء معاملة ابن الملك العادل الأيوبى بطريقة فظة، و أثار حفيظة الخليفة فى بغداد بالموقف الذى وقفه تجاه الحجاج القادمين من العراق. على انه استطاع ترضية الخليفة بعد ذلك فعاد الوفد الذى أوفده للمثول بين يدى الخليفة محملا بهداياه. و قد دعاه الخليفة لزيارة بغداد كذلك، و يقول بعض المؤرخين انه استجاب للطلب و توجه الى بغداد، لكنه غيّر رأيه قبل الوصول اليها فعاد أدراجه. و المقول أنه عبر عن رأيه بالعزلة التامة و الحياة شعرا و نثرا، على ما يذكر المستشرق الهولاندى سنوك هورغرونيه فى كتابه عن مكة.

و يقال من جهة أخرى ان قتادة ساعد بكل قوته أحد الأئمة الحسنية

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۰۴

على تأسيس مملكة فى اليمن. و بعد ان استولى حفيد من احفاد الملك العادل على هذه المنطقة مرة ثانية صار أيوبيو مصر و سورية و الجنوب العربى يذكر اسمهم فى خطبة مكة مع ذكر اسمى الخليفة و الشريف. و قد انتهت حياة قتادة أخيرا فى مذبحة أقدم ابنه الحسن عليها ليتخلص بها من منافسيه فى الأسرة. على ان الأمير مسعودا الأيوبى وضع حدا لأطماعه و جعل حكم مكة فى أيدى قواده. و ما ان توفى مسعود حتى عاد الحكم الى أيدى الشرفاء الذين سمح حكام اليمن لمنطقتهم بالاستقلال لدرجة ما بقصد اتخاذها درعا حصينا ضد مصر.

و فى حوالى منتصف القرن الثالث عشر للميلاد اتخذ العالم الاسلامى شكلا جديدا بنتيجة وقوع حوادث خطيرة، و ظهور أشخاص جدد.

فقد أزال هولاكو الطاغية الخلافة من بغداد فى ۱۲۵۸ و استولى عليها، و لم تعد لموكب الحج القادم من بغداد أية أهمية سياسية. و انتقلت السلطة فى مصر من الأيوبيين الى المماليك فأصبح السلطان بيبرس (۱۲۶۰ - ۱۲۷۷) فى الحال أقوى شخصية فى العالم

الاسلامی. و قد تسنی له ان یترک حکومة مکة فی عهدة الشریف أبی نمی لأنه کان رجلا نشطا استطاع ان یحکم بلاده بشدة و حزم خلال النصف الثانی من القرن الثالث عشر (۱۲۵۴- ۱۳۰۱)، فأدی حکمه الطویل هذا الی تثبیت سلالة قتادة فی دست الحکم.

علی ان نصف القرن الذی أعقب وفاة أبی نمی کان حافلا بالمنازعات علی الشرافة ما بین المدعین بها. و کانت المدة التی حکم فیها الشریف عجلان (۱۳۴۶- ۱۳۷۵) مفعمة کذلک بالاضطراب السیاسی الذی استطال أمده حتی اضطر السلطان المملوک فی مصر ان یقسم ذات یوم علی إبادة الشرفاء جمیعهم. و لأجل ان یحول الشریف عجلان دون الاختلاف و النزاع بین الشرفاء بعد وفاته ابتدع طریقة تعیین ابنه أحمد مقدما لیخلفه فی الحکم.

و مما یذکر عما فعله الشریف عجلان کذلک انه أخذ یعامل امام الزیدیة فی مکة و مؤذنهم معاملة قاسیة، فکان ذلک یدل علی ان شرفاء تلک الفترة

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۰۵

کانوا قد تخلوا عن العقیدة الزیدیة التی کان یعتنقها آباؤهم و اعتنقوا المذهب الشافعی الذی کان یروج أمره.

و من أبناء عجلان و أخلافه الذین یجب ان یذکر شیء عنهم یجب أن نشیر هنا الی الحسن (۱۳۹۶- ۱۴۲۶) لأنه حاول ان یمد رواق سیطرته علی الحجاز بأجمعه لیضمن مصالحه المالیة بعنایة و دقة، و لیکون فی الوقت نفسه قادرا علی عدم إفساح المجال للمصریین بالتدخل فی شؤونه. و قد اختار السلطان من أبناء الحسن الثلاثة، الذین کانوا یتنازعون علی المنصب فی حیاة أبیهم، برکات الأول لیکون وصیا فی عهد أبیه، و بعد عشرین سنة خلف أباه فی الحکم و استطاع ان یحافظ علی المنصب الی ان توفی سنة ۱۴۵۵.

و قد اضطر الی ان یخضع لمشیئة السلطان و یقبل بوجود حامیة ترکیة فی مکة قوامها خمسون خیالا ترکیا. و یمکن اعتبار هذا الأمیر طلیعة الحکام الآخرین فی مکة، الذین حصلوا علی نفوذ غیر یسیر أحیانا من تحت التابعیة الترکیة.

و لقد تسنی لمکة أن تتمتع بفترة من الازدهار و الرخاء فی عهد محمد ابن برکات (۱۴۵۵- ۱۴۹۷) الذی تولی فی الوقت الذی تولی الحکم فی مصر قائد بک، و کان هذا قد خلد اسمه فی مکة بانشاء عدة أبنیة فیها. و فی عهد برکات الثانی بن محمد (۱۴۹۷- ۱۵۲۵) تغیرت الحالة السیاسیة فی العالم الاسلامی تغیرا أساسیا باستیلاء السلطان سلیم العثمانی علی مصر فی ۱۵۱۷.

و مع ان استانبول قد أصبحت منذ ذلک الحین فصاعدا تحل فی المحل الذی کانت تتمتع به بغداد فی یوم من الأیام بالنسبة لمکة، و برغم عدم وجود التفاهم التام ما بین الأتراک و العرب یومذاک، فقد تمتعت مکة فی بادیء الأمر بفترة من السلم و الهدوء فی عهد الشریفین محمد أبی نمی (۱۵۲۵ ۱۵۶۶) و الحسن (۱۵۶۶- ۱۶۰۱). و امتدت ممتلکات الشرفاء تحت الحمایة العثمانیة من خیبر فی الشمال الی حایل فی الجنوب، و الی داخل نجد فی الجهة الشرقیة. علی ان الاعتماد علی مصر بقی موجودا فی الوقت نفسه،

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۰۶

لکنه کان یضعف عند ما تکون الحکومة قویة فی استانبول و العکس بالعکس.

و لم یکن هذا الاعتماد سیاسیا فقط و انما کانت له صفة مادیة و دینیة أیضا.

فان الحجاز کان یعتمد فی التزود بالأطعمة و استیراد الحبوب علی مصر، و وجدت المؤسسات التی کانت لها صبغة دینیة او تعلیمیة فی السلاطین الأتراک حماة لها.

علی ان الجهة المعتمة فی تابعیة مکة للعثمانیین کانت تنطوی فی تدخلهم فی ادارة الأمور القضائیة و الشرعیة. فبالنظر لاعتناق الشرفاء للمذهب الشافعی کان قاضی الشافعیة فی مکة یعد رئیسا لسائر القضاة. و کان هذا المنصب قد بقی لمدة قرون عدیدة منحصرا فی أسرة واحدة، لکن العثمانیین حینما تولوا حمایة الحرمین أخذوا ینتدبون أعلی المتزایدین فی استانبول لسد هذا المنصب فی مکة، فکان لا بد للمکیین من أن یدفعوا ثمن هذا التدخل مع الربح بطبیعة الحال.

و بوفاة الشریف حسن حلت فی مکة فترة جدیدة حافلة بالفوضی و الحرب الأهلیة. و یقول المؤرخون ان وجود کلمة «ذوو» فی اسماء

الشرفاء و جماعاتهم كان يدل على الاختلاف الحاد الموجود بينهم. فقد تركز النزاع على السلطة، الذى كانت تتخلله مشاجرات مع موظفى الدولة المسيطرة خلال القرن السابع عشر فى العبادلة و ذوو زيد و ذوى بركات.

و كان زيد (۱۶۳۱- ۱۶۶۶) رجلا جم النشاط و الفعالية، يتحمل جميع ما يفعله الموظفون الأتراك، لكنه لم يستطع معارضة الأتراك بنجاح حينما أمروه باضطهاد الحجاج الايرانيين، على قول مرجعنا فى دائرة المعارف الاسلامية. فقد أدت الخصومة التى كانت موجودة يومذاك بين الأتراك و الايرانيين الى ان يمتد تأثيرها حتى الى مكة بنتيجة الأمر الذى أصدره السلطان مراد الرابع بطرد الايرانيين من المدينة المقدسة و عدم السماح لهم بالحج فى المستقبل. و لم يكن هذا الأمر يرضى الشرفاء و لا الطبقات العليا

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۰۷

من المجتمع فى مكة، و انما كان يطمئن رغبات الرعاع فقط ليتخذ وسيلة لسلب الايرانيين الميسرين. و حالما أمر الحاكم التركى فى مكة بطرد الايرانيين سمح الشرفاء للشيعة باجراء مراسيم الحج و البقاء فى البلدة. و كان الشرفاء يحابون على الشاكلة نفسها الزيدية الذين كثيرا ما كان الأتراك يحولون دون دخولهم الى مكة.

اما تأريخ مكة فى الفترة الباقية التى تمتد الى وقت استيلاء الوهابيين فيكاد يكون عبارة عن نزاع ممل بين الأسر الشريفية المختلفة (ذوو زيد و ذوو بركات و ذوو مسعود)، او بينهم و بين الموظفين العثمانيين فى مكة نفسها أو جدة.

الشرفاء فى أيام الاحتلال الوهابى

كان الشريف غالب (۱۷۸۸- ۱۸۱۳) أول من شهد حركة الوهابيين تتقدم تقدما كاسحا بشكل يشبه السيل نخو ممتلكاته، لكنه لم يدخر وسعا فى مقاومة خطرهم. فقد ساق جيوشه الى الشمال و الشرق و الجنوب، و سار اخوانه و أنسباؤه الى ساحات الحرب، ثم طلبت النجدة من أمراء الحج السوريين و المصريين فى كل موسم من مواسم الحج المتتالية، و لكن من دون جدوى. و فى ۱۷۹۹ عقد الشريف غالب اتفاقية مع أمير الدرعية جددت بموجبها الحدود بين الطرفين مع الاشتراط بأن يسمح للوهابيين بالدخول الى البلاد المقدسة. على ان سوء التفاهم كان لا بد من أن يحصل فى يوم فى يوم من الأيام، و فى ۱۸۰۳ وصل جيش الأمير سعود الى المدينة المقدسة.

و بعد ان انسحب الشريف غالب الى جدة دخل سعود الى مكة التى أعلن سكانها اعتناقهم الوهابية فى الحال، فهدمت القباب كلها و أحرق جميع الموجود من التبغ و الآلات الموسيقية، ثم حذف من الآذان، جمل الثناء على النبى كما يقول مرجعنا فى دائرة المعارف الاسلامية.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۰۸

غير ان (غالبا) عاد فى تموز الى مكة، لكنه أصبح سجينا فى داخلها بالتدريج لكثرة ما كان يحيط به من الأعداء. ثم بدأ الحصار الفعلى فى آب فحلت محله فترة مؤلمة من المجاعة و تفشى الطاعون: فترتب على غالب فى شباط السنة التالية ان يخضع للتابعية الوهابية و يحتفظ بمنصبه. و لم يحرك الباب العالى ساكنا خلال هذه الحوادث كلها، و لم يفعل شيئا حتى أعاد الوهابيون فى ۱۸۰۷ قوافل الحجاج القادمة من مصر و سورية مع المحملين، و عند ذلك صدرت التعليمات الى الخديوى محمد على بأن يعالج مشكلة الحجاز بعد ان يكون قد انتهى من مهمته فى مصر. و لم يستطع هذا استرجاع مكة من الوهابيين الا فى ۱۸۱۳، و هناك التقى بالشريف غالب الذى قدم له نصائح ملؤها الحذر. على ان غالبا سرعان ما وقع فى الفخ الذى نصبه له محمد على و ابنه طوسون، فنفى الى سلانيك التى عاش فيها الى أن قضى نحبه ۱۸۱۶.

و كان محمد على فى الوقت نفسه قد نصب فى مكانه يحيى بن أخيه سرو (۱۸۱۳- ۱۸۲۷)، و بذلك انتهت أول فترة استولى فيها

الوهابيون على مكة، فأصبح الحجاز مرة أخرى تابعا لمصر. و قد ظل محمد على يتمتع بسمعة مشرفة فى مكة مدة من الزمن لأنه أعاد تعمير المؤسسات الدينية التى خربها الوهابيون، و أعاد استجلاب القمح من الخارج ثم عين الرواتب للذين كانوا يتميزون فى الشؤون الدينية عن غيرهم.

و فى ۱۸۲۷ اضطر محمد على الى التدخل فى شؤون الشرفاء الداخلية من جديد. فقد كان الشريف يحيى قد جعل من منصبه شيئا غير محتمل بانتقامه من أحد أقربائه، و لذلك عمد الوالى الى عزله، و هو من ذوى زيد و تعيين شريف من العبادلة فى مكانه يدعى محمد بن عون (۱۸۲۷- ۱۸۵۰).

فكان عليه قبل كل شىء ان يدخل فى النزاع التقليدى مع أقاربه، و أدى حدوث نزاع بينه و بين وكيل محمد على الى تنحية الاثنين و أخذهما الى القاهرة فى ۱۸۲۶.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۰۹

و لقد بقى الشريف فى القاهرة الى ۱۸۴۰ حينما تقرر فى المعاهدة التى عقدت بين محمد على و الباب العالى ان يرتبط الحجاز بها من جديد، فعاد محمد بن عون الى وطنه و منصبه، على ان تابعية مكة للعثمانيين قد أدمجت فى هذه المرة بوظيفة و الى جدة، فكان الاحتكاك و التصادم بينه و بين محمد ابن عون شيئا لا مناص منه. لكن صداقة الشريف لمحمد على قد ثبتت فائدتها له فى هذه المرة، فحصل على استحسان الترك و ثنائهم عليه للحملات التى جردها ضد الأمير فيصل الوهابى فى الرياض، و ضد العشائر الثائرة فى العسير. كما مهدت غزواته فى اليمن الطريق لسيطرة العثمانيين عليها.

و كان كبير أسرة ذوى زيد الشريف عبد المطلب (۱۸۵۱- ۱۸۵۶) قد استغل صداقته للصدر الأعظم فى الوقت نفسه استغلالا تاما أدى به الى أبعاد العبادلة لصالح ذوى زيد. على ان عبد المطلب لم ينجح فى المحافظة على علاقاته الطيبة مع أحد (الباشيين) الذين تحتم عليه التعامل معهما واحدا بعد آخر. فتقرر سنة ۱۸۵۵ فى استانبول إلغاء أمر تعيينه و استدعاء محمد بن عون ليحل فى مكانه. فرفض عبد المطلب بادىء ذى بدء الاعتراف بصحة صدور الأمر، و أيده فى ذلك من كان يكره الأتراك فى مكة لتحريمهم المتاجرة بالرقيق. على أنه تحتم عليه ان يتخلى عن منصبه فى النهاية الى محمد بن عون، الذى تولى الشرافة فى ۱۸۵۶ للمرة الثانية، و لم تطل مدة بقائه فيها هذه المرة أكثر من سنتين. و قد حدث خلال الفترة المتقضية بين وفاته فى مارث و وصول خلفه عبد اللّه الى مكة فى تشرين الثانى أن قتل المسيحيون فى جدة (۱۵ تموز) و دفعت فديتهم.

و قد عرف حكم عبد اللّه (۱۸۵۸- ۱۸۷۷) الذى كان محبوبا من رعاياه بانتشار السلم فى الحجاز، و بوقوع حوادث بالغة الأهمية فى الخارج.

فقد كان فتح قناة السويس (۱۸۶۹) يعنى تحرر الحجاز من سيطرة مصر من جهة و اتصاله باستانبول مباشرة من جهة أخرى. كما كانت لتأسيس

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۱۰

الاتصالات التلغرافية بين الحجاز و سائر أنحاء العالم أهمية مماثلة. أما إعادة استيلاء الأتراك على اليمن فقد كان يقصد به تقوية الانطباع بأن الجزيرة العربية خاضعة للأتراك كلها الى الأبد.

و لقد انتهت المدة القصيرة التى تولى الحكم فيها حسين أخو عبد اللّه الأكبر (۱۸۷۷- ۱۸۸۰) بقتله على يد رجل من الأفغان. فجىء بعده للشرافة من استانبول بالشريف عبد المطلب المتقدم فى السن من جديد.

و مع ان الرأى العام فى الحجاز كان يعتبره بمنزلة القديسين فان حكمه سرعان ما ظهر تعسفه و بانت شدته فطالب وجوه البلد و أعيانه بعزله. فكانت النتيجة ان انتدب فى ۱۸۸۱ القائد النشط عثمان نورى باشا مع ثلة من الجيش الى الحجاز ليكون قائدا للحامية فيه، على ان تكون مهمته تمهيد الطريق لأعادة العبادلة الى الشرافة الكبرى. فخدع عبد المطلب و ألقى القبض عليه، ثم سجن فى بيته فى مكة

الى أن مات فى ۱۸۸۶.

و كـان بود عثمـان نورى باشا،- الـذى تعين واليا فى تموز ۱۸۸۲-، ان يرى صـديقه عبـد اللّه، أحد العبادلة، ينصب فى دست الشـرافة الكبرى بجـانبه. على ان عون الرفيق (۱۸۸۲- ۱۹۰۵) هو الـذى عين فى هـذا المنصب. و لما كان الوالى على جانب كبير من النشاط و الفعالية، و بالنظر لأن الشـريف عون كانت له أهميته و منزلته برغم ميله الى العزلة، فان حصول تصادم بينهما كان شـيئا لا مناص منه لا سيما و ان لكل منهما كانت نفس الصـلاحية فى امور كثيرة مثل إدارة الشؤون القضائيـة و السـهر على سـلامة طرق الحجاج و أمنها. و بعد شـيء غير يسير من الاحتكاك عزل عثمان نورى فى ۱۸۸۶. فأعقبه جمال باشا لمدة قصـيرة، ثم جاء بعده صفوة باشا. و لم يستطع البقاء فى دست الولايـة إلى جنب عون الرفيق سوى أحمـد راتب الذى كان يغمض عينيه عن كثير من الأشـياء و يكتفى ببعض المنافع الماديـة. و بعد أن توفى عون اختير عبد الاله خلفا له. على أنه مات قبل ان يبدأ برحلته من اسـتانبول الى مكة. و لذلك فقد كان خلف عون الحقيقى ابن أخيه على

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۱۱

(۱۹۰۵- ۱۹۰۸)، و فى ۱۹۰۸ أضاع كل من على و أحمد راتب منصبه بوقوع الثورة التركية.

و بتولى الحسين (۱۹۰۸- ۱۹۱۶- ۱۹۲۴)، الـذى هو من أبنـاء أخوة عون أيضا، يكون آخر شـريف قـد تولى الحكم فى مكـة. و لو لا وقوع الحرب العالمية الأولى لسارت شرافته فى طريقها المعتاد على وجه الاحتمال.

و كان هذا قد اغتنم فرصة انشغال الدولة التركية انشغالا تاما بالحرب فأعلن استقلاله فى ۱۹۱۶. ثم حاول ان يمد سيطرته الى أبعد حد ممكن كمنقذ للعرب أولا، و بصـفة ملك (۲۲ حزيران ۱۹۱۶) فى الحجاز أو بلاد العرب كلها، و أخيرا بصـفة كونه خليفة للمسـلمين. على انه سـرعان مـا اتضـح ان سـلطان نجـد، عبـد العزيز السـعود، قـد كتب له كما كتب لأجـداده الوهابيين من قبل ان يكون له القول الفصل فى مستقبل الجزيرة العربية و شؤونها.

ففى أيلول ۱۹۲۴ اسـتولت قواته على الطائف، ثم اسـتولت على مكـة فى تشـرين الأول. ففر الملك حسـين الى العقبة أولا، و أخذ من هناك الى قبرص فى أيار ۱۹۲۵. غير ان عليا ابنه تراجع الى جدة، فعمد ابن سـعود الى محاصرتها و محاصرة المدينة مدة تقارب السنة تجنبا لاراقـة الدماء و التعقيدات مع الدول الأوروبية. فاستسـلمت المدينتان فى كانون الأول ۱۹۲۵ فأصـبح ابن سعود منذ كانون الثانى ۱۹۲۶ ملكا فى الحجاز، و أصبح عنوان مملكته «مملكة الحجاز و نجد، و توابعهما»، أما اليوم فهى المملكة العربية السعودية.

و بـذلك تكونت وحـدة سياسـية جديـدة عاصـمتها مكـة، تضم مساحة أكبر من أية مساحة كان يسـيطر عليها الشـرفاء فى أى يوم من الأيام، و تملك قوة داخلية أعظم من أية قوة نشأت فى الجزيرة العربية منذ ان انتهى حكم العباسيين فيها حتى يومنا هذا.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۱۲

مكة فى يومها هذا

و يقول مرجعنـا فى دائرة المعـارف الاسـلامية ان الحيـاة الدينيـة و الاقتصاديـة فى مكـة كانت تتركز منـذ القـدم فى حركـة الحجاج و المسـجد الحرام. و تنعكس وصـفية مكة، بصفتها عاصمة الاسلام الدينية فى تنوع قوميات سكانها الحاليين تنّوعا غير يسير. فالى جانب أهل مكـة الأصـليين توجـد فيها عناصـر عربية أخرى كثيرة، يبرز من بينها على الأخص عنصـر الحضارمة المعروف بنشاطه و فعاليته. و هناك عدد كبير من الجاليات المسلمة التى جاءت من أنحاء العالم الإسلامى كافة لتستقر فى المدينة المقدسة مدفوعة بأسباب دينيه و دنيويـة مختلفـة. و من بين هؤلاء يجب ان يـذكر بصـفة خاصـة القـادمون من الملايـو، الـذين يعرفون عموما باسم جاوة، لأنهم جاءوا يقيمون فى مكة إقامة دائمة لأسباب دينية بحتة.

و حتى فى يومنا هذا يكوّن (العبيد)، لا سـيما الأفريقيين، عنصـرا مهما فى مجتمع مكة. و قد كانت البنات الحبشيات من الأرقاء يقدرن

بثمن غال على الدوام لأنهن يؤخذن جوارى و محظيات. على ان سوق النخاسة لم تعد له تلك الأهمية التى كانت له من قبل. و تنتشر أكواخ العبيد المعتقين فى الضواحى المحيطة بالبلد المقدس.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۱۳

و تزدهر فى مكة مهنة المطوفين الذين تعيش طبقتهم على حركة الحجاج فى كل سنة، و هؤلاء يعينون لهم و كلاء فى جدة كذلك. غير ان هذا ينطبق على سكان مكة كلهم تقريبا، لأنهم يرتبون أمورهم بحيث يؤجرون بيوتهم الى الحجاج خلال مدة غير يسيرة من السنة. فما يحل الشهر الثامن من السنة الهجرية حتى يصل الى البلدة عشرات الألوف من الحجاج، و يزداد هذا العدد باطراد حينما يحل الشهر الثانى عشر. و بحلول محرم الحرام يعود المنظر فى مكة الى سالف عهده من الهدوء الاعتيادى.

و لقد توسع الناس فى الحجاز خلال مئتى السنة الأخيرة فى تقديس الأموات و زيارة القبور باستمرار، ففى البلاد أماكن عديدة لها اتصال بالذكريات المقدسة التى تختص بالنبى محمد و آل بيته، و بالبارزين من المهاجرين و القديسين المتأخرين. و قد شيدت فوقها قباب عديدة صار الناس يزورونها و يترددون عليها بكثرة. غير ان الوهابيين قضوا على الكثير من هذه العادات و الطقوس منذ أن تمّ استيلاؤهم على البلاد.

و مكة اليوم هى مركز الحكومة و مقرها، مع ان إقامة الملك تكون فى الرياض عادة. و تصدر «أم القرى» جريدة الحكومة الرسمية مرة فى الاسبوع، و هناك كذلك مطابع عديدة تقوم بطبع المؤلفات الوهابية و الحنبلية فى الغالب.

مكة فى مراجع اجنبية اخرى

و هكذا تنتهى الخلاصة التاريخية التى توردها دائرة المعارف الاسلامية و من أهم الكتب الغربية الأخرى التى تبحث فى كثير من شؤون مكة و تاريخها بالتفصيل كتاب الكولونيل جيرالد ديغورى الموسوم (حكام مكة). و يتطرق هذا المؤلف الانكليزى الى جميع ما جاء فى الخلاصة التاريخية المار

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۱۴

ذكرها بشىء أكثر من التفصيل، و لا سيما عن تاريخ بعض الشرفاء الكبار من مثل الأمير قتادة، و محمد أبى نمى، و بركات الأول، و بركات الثانى، و زيد بن محسن، و عبد اللّه بن سعيد، و سرور و أخيه الشريف غالب، و محمد بن عون، و عون الرفيق.

و من جملة ما يأتى عليه ديغورى بالتفصيل موضوع تأسيس مكة و نشوئها.

فهو بعد أن يصف طبيعة موقعها و أحوالها الجوية القاسية يروى ما يطلق عليه «الأسطورة المسلمة» حول قدسية مكة، فيقول ان قافلة من قوافل بنى جرهم لاحظت خلال سيرها نحو الجنوب فى تلك الجهات أن عينا من الماء كان يتدفق ماؤها فى مكان مقفر لم يعهدوا وجود ماء فيه من قبل.

فوقفت القافلة، ثم انتدبت رجلين من رجالها للوقوف على جلية الأمر.

و حينما ذهب الرجلان ألفيا قرب العين امرأة مع طفل ذكر بجنبها، و قد فهما من كلامها ان اسمها هاجر و ان العين تعود لها و لطفلها. و بترخيص من عندها خيمت جرهم حول العين، و صارت تستعملها و تحافظ عليها حتى سميت باسم «زمزم» بعد ذلك. و يقول ديغورى، نقلا عن السر ليونارد و ولى الآثارى الانكليزى المشهور، أن ذلك يصادف حوالى سنة (۲۰۰۰) قبل الميلاد على وجه الاحتمال.

و قد نشأ اسماعيل بن هاجر عند بنى جرهم، و هى من قبائل الجنوب العربى، ثم تزوج منهم و صار يعيش على الصيد و القنص . ثم يقول ديغورى ان ابراهيم قد عاد للمرة الثالثة و اشار على ابنه بأن يبنى فى تلك البقعة بيتا.

و انتخبوا نشزا من الأرض و فعلوا ذلك. ثم جاء تبع الحميرى، ملك اليمن، و صنع بابا للبيت مجهزا بالأقفال، و جاء الملك جبرائيل

بالحجر الأسود

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۱۵

و وضعه فيه. و كان هذا الحجر يلتمع فوق جبل أبى قبيس المطل على مكة، و لم يكتسب لونه الأسود الا بعد نشوب نار من حوله فى أيام الجاهلية بعد ان قلبت امرأة من الناس مبخرة على الأرض. على ان قريشا، و هم أخلاف جرهم فى مكة، أعادت بناء البيت المقدس من جديد. و يقول ديغورى هنا ان المختصين بالأحجار يعتقدون بأن الحجر الأسود هو من أصل يمت الى الشهب السماوية بصلة.

و كانت الكعبة نفسها فى الأصل عبارة عن بناء مكعب بسيط، و كانت هناك كعبة أخرى فى صنعاء اليمن ظلت تنافسها مدة من الزمن، كما كان فى بطرا او البتراء حجر أسود آخر، بينما كان يوجد فى الطائف و بعض الأماكن الأخرى عدد من الأصنام الحجرية للعبادة. و كان بناء الكعبة يجدد بين حين و آخر، و تدخل عليه التحسينات المختلفة، ثم يغطى تغطية موقرة بجلود الحيوانات التى تنحر وقت الحج. و قد حلت خزاعة سنة ۲۰۷ للميلاد فى محل جرهم و العمالقة فى سدانة الكعبة بظروف و أحوال غامضة، و فى سنة ۴۰۰ للميلاد حلت فى محل خزاعة قبيلة كنانة القرشية التى ينتمى اليها شرفاء مكة الحاليون. و يذكر ديغورى عن قطب الدين الحنفى فى هذا الشأن قوله: و قد حكمت خزاعة مكة و قامت بسدانة الكعبة بكل إدراك و حكمة من دون إقتراف ما يؤدى الى تعكير العلاقات بين الناس، حتى تول قصى بن كلاب بن مرة، الذى كان اول رجل من كنانة ينجح فى الحكم و يعمل على توحيد قريش.

أما كيفية انتقال السدانة من خزاعة الى قصى فان ديغورى يورد قصة طريفة عنها فى كتابه . فهو يقول ان قصيا كان يسمى زيدا أيضا، و كان يكنى بالمجمع لأنه وحد قريشا و جمعها فى كتلة واحدة. و لم يكن «قصى»

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۱۶

سوى لقب اشتهر به لأنه جاء الى مكة من مكان قصى بعيد. فقد أخذته أمه من الحجاز و عادت به إلى أهلها فى سورية حينما توفى والده، و تزوجت هناك. و حينما شب قصى تنازع مع زوج أمه و أسرته و عاد الى عشيرته حوالى مكة، و هناك وجد كل ترحيب و تزوج ابنة زعيم القبيلة حليل بن جيش الخزاعى و كان اسمها حبه. و سرعان ما أنجب منها عددا كبيرا من الأولاد، و أصبح ثريا كثير الغنى. و حينما توفى حليل سلم مفاتيح الكعبة الى ابنته حبه التى أنعمت بها على قريب من أقاربها يدعى ابن غبشان. على ان ابن غبشان هذا كان مدمنا على شرب الخمر، كثير السكر بحيث باع مفاتيح الكعبة ذات يوم الى قصى بن كلاب بقنينة من الخمر. فهاج عمله هذا قبيلته خزاعة التى لم تشأ ان تخرج سدانة الكعبة من يدها بمثل هذه السهولة، لكنها لم تستطع استرجاعها من قصى الذى وقف من ذلك موقفا حاسما.

و المعتقد ان قصيا توفى سنة ۴۹۰ للميلاد، و لكن بعد ان جعل من الكعبة مكانا مقدسا تجله جميع القبائل و تقدسه بحيث صار من المعتاد عند السدنة و الحجاج أجمع ان يتركوها قبل الغروب. و لم يعد يجرؤ أحد على المبيت فى تلك البقعة المقدسة، كما لم يعد يسمح لأحد ان يقضى نحبه فيها. و قد منع دفن الموتى أو إقامة المآتم فيها، كما منع ارتكاب اى شىء مخالف او منطو على الغش فيها.

على ان قصيا جمع قبيلته و طلب الى افرادها ان يبنوا بيوتهم فى المنطقة المقدسة و يعيشوا فيها. و حينما فعل ذلك أبان للناس وجوب تمتعهم باحترام خاص بحيث لا يتجرأ أى عربى على مهاجمتهم او إجلائهم عنها. و المقول أنه هو نفسه قطع أول شجرة و وضع أول حجر لبناء بيت دائم له فى المنطقة المقدسة، حتى يقتدى الباقون من أفراد عشيرته به و يقدمون على تنفيذ ما يريد. و يقول ديغورى ان هذا ربما كان قد حصل فى سنة ۴۸۰ للميلاد، لأن النبى محمدا عليه السلام كان قد ولد سنة ۵۷۱، و هو خامس جيل ينحدر من قصى (اعتبر لكل جيل حوالى عشرين سنة).

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۱۷

و قد أدخل قصى على ما يذكر ديغورى كثيرا من الاصلاحات و التحسينات على الكعبة و وضعها، ثم غير موقع الأصنام فيها و أمر ان يؤتى ببعضها من مكانها البعيد الى داخل الهيكل، و بذلك جمع الآلهة كلها فى مكان واحد كما وحّد قبيلته فى كيان واحد. و بنى بالاضافة الى ذلك قاعة للمجلس و بهوا للمراسيم، ظل يسمى فيما بعد بدار الندوة، و قد كان يشترط فى عضو المجلس ان لا يقل عمره عن أربعين عاما، باستثناء أبنائه الذين كان يسمح لهم بالعضوية حالما يبلغون سد الرشد .

يضاف الى ذلك ان قصيا جمع فى يده وظائف البيت الحرام كلها، فجمع الحجابة، و السقاية، و الرفادة، و رآسة الندوة، و اللواء، و القيادة فى الحرب. ثم نقل صلاحياته هذه كلها الى ابنه عبد الدار قبيل وفاته بأمل أن يؤمن له مركزه قبل ان يرحل الى الدار الآخرة. لكن أولاده الباقين نازعوا أخاهم فى ذلك بعد وفاته من دون ان يكون التوفيق حليفهم، غير ان أبناء عبد الدار تغلب عليهم أبناء أخيه عبد مناف الذى كان يتمتع بجانب أكبر من الحيوية، مع البعض من نبلاء قريش. و بذلك انتقلت مفاتيح الكعبة الى آل شيبة الذين بقيت فى أيديهم الى يومنا هذا. و على الشاكلة نفسها استطاع عمرو هاشم، بن عبد مناف، أن يحصل على حق السقاية و الرفادة، و كان هو الذى يشرف على تنظيم خروج القوافل الى الجنوب فى الشتاء و الى الشمال فى الصيف (رحلة الشتاء و الصيف). و كان هاشم يصحب القافلة بنفسه فى كثير من الأحيان. و فى إحدى سفراته هذه توفى فى غزة بفلسطين و هو فى مقتبل العمر فدفن فيها. و لهذا السبب صارت تسمى «غزة هاشم» فى بعض الأحيان.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۱۸

و كان هاشم خلال سفرته الأخيرة التى توفى فيها قد تزوج فى المدينة بإمرأة من أهلها فرزق منها طفلا نشأ و ترعرع فيها حتى طالب به عمه مطلب و جاء به الى مكة فسماه عبد المطلب. و حينما توفى العم فى اليمن بعد ذلك ورث عبد المطلب ماله و ممتلكاته، و رزقه بعدد من الأبناء كان من جملتهم عبد اللّه والد النبى محمد عليه الصلاة و السلام.

و يقول ديغورى ان ذرية قصى تقاسمت الميراث فيما بينها، فصار قسم منها يتولى شؤون البيت الحرام، و قسم آخر مثل أبناء هاشم حصلوا على حق الرفادة و المتاجرة مع الخارج فى الوقت نفسه، بينما اختص بعضهم الآخر بالتجارة فقط و هم أبناء عبد شمس، أخى هاشم (الأمويون) فأصبحوا صرافين معروفين. غير ان أعضاء مجلس أعيان جمهورية مكة، على ما يقول ديغورى، كانوا يحسدون ذرية قصى على ما كانوا يتمتعون

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۱۹

به من امتيازات. و هذا ما أدى بهم الى انذار عثمان بن حويرث و التشهير به فى الحال حينما أخذ على عاتقه ان يقوم بزيارة قيصر الروم ليقترح عليه عقد اتفاقية خاصة بين الطرفين تؤمن سلامة القوافل المكية التى تقصد الشام لقاء جزية سنوية ضئيلة تدفع بالعينيات، و الاعتراف بسيطرته على مكة.

و فى حوالى سنة ۶۰۰ للميلاد أعادت قريش بناء الكعبة مرة أخرى، فوسعت فناءها و أضافت الى البناء نفسه، ثم زادت فى علوه. و قد تم ذلك على أثر ما أصابها من الغرق بسبب السيول. فسنحت الفرصة لقريش فى تلك الأثناء بأن تستفيد فى التعمير من أخشاب سفينة أغريقية كانت قد غرقت بالقرب من ساحل جدة حينما كانت فى طريقها من مصر الى الحبشة. فقد انتدب وجيه من قريش ليفاوض (باقوم) ربان السفينة بقصد شرائها منه، فتمت الصفقة و اشترك فى البناء نجار مصرى ماهر كان موجودا فى مكة و ربان الباخرة (باقوم) الذى استخدم فى ذلك ما كان فى السفينة الغارقة من حبال و رافعات. و قد أمكن بهذه الوسيلة أن يكون البناء بمقياس أوسع، و ان يشيد الباب بمستوى يرتفع عن سوية الأرض لئلا تتسرب منه مياه الطوفان الى الداخل.

و يقول ديغورى ان هذا التوسيع و التحرير كان آخر شىء تم من نوعه، فأعطى الشكل الحالى للكعبة و البيت الحرام الذى لم يطرأ عليه أى تغيير فى مظهره الأساسى خلال الألف و الثلاث مئة سنة الأخيرة (كتب كتاب ديغورى سنة ۱۹۵۱).

لقب الشرفاء

و يتطرق مرجعنا هذا بعد ذلك الى البحث فى أصل كلمة «الشريف» فيقول ان منشأ استعمالها بالمعنى الاصطلاحى الذى يطلق على سادات مكة

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۲۰

يكتنفه الغموض. غير انه يبدو أنه بدء باستعمالها فى أياء الخلفاء الفاطميين، على ما يقول السيوطى، حين منع استعمالها كلقب خاص لغير ذرية الامامين السبطين الحسن و الحسين عليهما السلام. و لقد بحث فى المعنى الذى ينطوى عليه هذا اللقب عدد من المؤلفين العرب، فقال الحصرى فى زهر الآداب انها تعنى عدا التحدر من ذرية النبى الأكرم ان تتوفر فى الشخص الشجاعة، و نظافة النسب، و الأخلاق الفاضلة، وسعة العقل الناتجة عن الاطلاع و التعلم. و يذكر القتيبى فى (كتاب العرب) اربع صفات لذلك، و هى الارتقاء بالنسب الى النبى الأعظم، و التحلى بالخلق الانسانى الرفيع، و التحدر من أجداد أفاضل، و الاتصاف بالسخاء و الكرم. ثم رسخ استعمال الكلمة بعد ذلك فأصبحت فى القرن الثالث عشر للميلاد لقبا خاصا يطلق الجميع على حكام مكة و البارزين من أسرهم، و منذ ذلك الحين فصاعدا توسع استعمالها فأصبح يشمل أفراد تلك الأسر بأجمعهم. و على هذا الأساس أصبحت كلمة «الشرفاء» تختلف عن كلمة الأشراف بمعناها العام و تعنى أفراد الأسرة المالكة فى مكة.

مكة و الصليبيون

و ينفرد ديغورى فى البحث عن إقدام الصليبيين على مهاجمة الاسلام فى عقد داره، بقطع طريق الحج الى مكة و محاولة الاستيلاء على المدينتين المقدستين فى حوالى سنة ۱۱۸۲- ۸۳، على عهد الشريف قتادة، و فى أيام الخليفة المقتدر فى بغداد.

فهو يقول ان فارسا من فرسان الصليبيين الفرنسيين يدعى رينو دى شاتيون Reynaudde Chatillon كان قد استولى على بلاد شرقى الأردن و قلاع مؤاب و الشوبك شرقى البحر الميت، فأصبح مسيطرا من هناك على

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۲۱

طريق الحج الى مكة المكرمة. فصارت تراود مخيلته خطة جريئة يهاجم فيها الاسلام فى عقر داره، و يحقق آمال الصليبية. و فى السنة التالية خالف شروط الهدنة المعقودة مع المسلمين، و توغل فى جزيرة العرب حتى وصل إلى تيماء، فقطع طريق الحج و استولى على عدد من القوافل الغنية غير أنه تخلى عن فكرته فى مهاجمة المدينة بطريق البر، للاستيلاء على ما كان يؤمل وجوده من أموال و نفائس فى قبر النبى، و قرر ان يفعل ذلك عن طريق البحر. على أن صلاح الدين رد عليه بانشاء قلعة حصينة فى شمال شبه جزيرة سيناء، و اتخذها قاعدة أمامية له. فلم يكن من الفارس رينو الا أن يعيد احتلال أيلة (ايلات) المطلة على خليج العقبة فى الوقت نفسه، بهجوم مفاجىء. و عمد بعد ذلك الى نقل السفن من موانىء فلسطين الجنوبية، مثل عسقلون و غيرها، الى البحر الأحمر بعد ان فسخها و نقل أجزاءها على ظهور الجمال بطريق البادية المار ببلاد أيدودم و وادى عربة. و فى خليج أيلة أعاد رينو بناء السفن المنقولة أجزاؤها، فاستطاع ان يهيء خمس سفن حربية كبيرة و يحمل فى كل منها ألف جندى من الصليبيين، علاوة على عدد آخر من السفن الأصغر منها. ثم عمد مع قسم من هذه الأرمادا الى محاصرة جزيرة «غراى» فى البحر الأحمر، و بينما كان يقوم بهذه المهمة توجه أحد قادته بباقى السفن الى سواحل البحر الأحمر الأخرى و أخذ ينهبها كلها و يعيث فسادا فيها من الشمال الى الجنوب قبل ان يعلم صلاح الدين بما فعل. و لما كانت السفن الصليبية تسير بالمجاذيف الجماعية، فقد كانت أكثر سرعة من سفن العرب الشراعية و أخف حركة منها. و لذلك تسنى لهم ان يقطعوا اتصال الموانىء الصغيرة كلها بالعالم الخارجى، و يستولوا على السفن التجارية، فضلا عن تدمير مواصلات الجيوش المسلمة. و قد ظلوا يغرقون جميع ما يصادفونه من السفن بعد ان يستولوا على شحناتها خلال سنة كاملة (۱۱۸۲-

۸۳). و الى أبعد من ذلك جنوبا نهب الصليبيون ميناء عيذاب الأفريقى، الذى كان على جانب كبير من الأهمية للحجاج

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۲۲

المتوجهين من وادى النيل الى مكة المكرمة. و هناك أحرقوا السفن التجارية كذلك، و أغرقوا سفينة كبيرة كانت تقل عددا كبيرا من الحجاج الى جدة.

و لم يكتف رينو الصليبى بأفعاله الشنيعة هذه فقط، بل أقدم أيضا على انزال حملة عسكرية فى الساحل المصرى فسارت شمالا و استولت على كثير من القوافل الغنية القادمة من قصير. ثم ظهر رجاله فى جميع موانىء الجزيرة العربية، و منها رابغ و الهوارة فى شمال ينبع و جنوبيها، حتى أنهم ظهروا فى باب المندب و عدن كذلك، حيث أسروا عددا من الشيوخ و رجال الدين فى أثناء قيامهم بسد المدخل الى البحر الأحمر من هناك.

على ان الجيوش العربية فى القاهرة كانت قد خفت الى تجهيز نفسها على ما يقول ديغورى، و تهيأت لشن هجوم مقابل على الصليبيين. لكن الملك العادل، أخا صلاح الدين و نائبه فى غيابه، لم تكن تتوفر لديه السفن المطلوبة فى البحر الأحمر فارتأى ان يقلد رينو فى ما فعل، و نقل عدة سفن كبيرة من النيل و الاسكندرية الى القلزم (البحر الأحمر). و فى كانون الثانى ۱۱۸۳ أنزل هذا الاسطول العربى فى البحر الأحمر بقيادة حسام الدين لؤلؤ (المسمى بالحاجب) الذى كان معروفا بورعه و مقدرته فى الحروب البحرية. و فى أقل من شهرين استطاع ان يحرق السفن الصليبية الثلاث التى كانت تحاصر جزيرة غراى و يأسر جميع بحارتها. و على مقربة من الهوارة هاجم باقى الأسطول الصليبى فى منتصف الصيف، و دمر سفنه بأجمعها.

فحاول بحارة السفن المدمرة ان ينضموا فى البر الى الرتل الذى كان قد بدأ بالزحف على المدينة المنورة قبل المعركة. و على مسيرة خمسة أيام من البحر، و يوم واحد من المدينة، هاجم المسلمون القوة الصليبية المؤلفة من ثلاث مئة محارب فدمروها شر تدمير. و من بين المئة و السبعين صليبيا الذين نجوا من القتل خلال المعركة فأسروا و قتل عدد غير يسير حيث كانت تنحر الضحايا فى منى، و فى المدينة و على مقربة من مكة نفسها. اما الباقون فقد فر قليل منهم فنجوا بأنفسهم و وصلوا الى سواحل البحر الأبيض المتوسط، و أخذ

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۲۳

البعض الى مصر فشهّر بهم و عرضوا على الجمهور الحانق قبل ان يقتلوا على يد الدراويش و غيرهم. و قد شاهد بعضهم الرحالة المغربى ابن جبير و وصفهم فى رحلته، و هو يقول ان الاسطول العربى الذى قضى على الاسطول الصليبى بقيادة حسام الدين لؤلؤ كان يديره بحارة من المغاربة الأشداء الشجعان.

و يتابع ديغورى بحثه فى هذا الشأن و يقول ان صلاح الدين الأيوبى قرر ان يضع حدا الى الأبد لهذا الخطر الذى صار يهدد مكة و غيرها من المدن المقدسة. فأمر بالاستيلاء على قصر رينو و قلعته. و بدأ حصاره بقيادته هو نفسه فى خريف تلك السنة بالذات و قد بدأ القصف بالقنابر حينما كان الصليبيون يحتفلون بزواج ابن زوجة رينو، فسقط قسم منها فى وسط المحتفلين و على الراقصين و الآلاتية لكن هذا الحصار لم يدم طويلا لأن الملك بالدوين الرابع خف لنجدة رينو برغم مرضه الشديد فأنقذه.

على ان رينو لم يبق طويلا على قيد الحياة بعد حملته الفاشلة فى البحر الأحمر على كل حال، لأن صلاح الدين دحر الصليبيين سنة ۱۱۸۷ فى موقعة حطين بالقرب من الجليل، فسقطت فى يده مملكة القدس الصليبية. و قد أسر أمراء المسيحيين و فرسانهم، و قتل رينو «عفريت الغرب» و خصم صلاح الدين شر قتلة فى حضور صلاح الدين بالذات. و فى رواية انه قتله بيده.

الشريف قتادة و موكب الحج العراقى

و يذكر ديغورى ما وقع فى أيام الشريف قتادة من اعتداء على الحجاج العراقيين فى مكة سنة ۱۲۱۰ و ۱۲۱۲، نقلا عن (شفاء الغرام فى أخبار البلد الحرام) لمؤلفه تقى الدين أبى طيب محمد بن أحمد الفاسى، الذى نشره مترجما المستشرق الألمانى فستنفيلد فى لا يبزغ

سنة ۱۸۵۹.

و موجز ما يقوله الفاسى هذا أن أمير الحج العراقى يومذاك كان علاء الدين

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۲۴

محمد بن الأمير ياقوت، بالنيابة عن والده الذى كان حاكما فى خوزستان و أميرا للحج فى الوقت نفسه، و كان مساعده و دليله ابن فراس. و على رأس الموكب الشامى كان صمصام اسماعيل أخو شاروخ النجمى، بينما كان يرأس الموكب الفلسطينى الحاج على بن سالم، و كانت من بين الحجاج فى هذا الموكب ربيحة خاتون شقيقة الملك العادل. و قد حدث فى منى بعد الانتهاء من رمى الجمرات ان انقض الاسماعيليون على أحد الشرفاء من أبناء عم قتادة، و شبيهه فى الخلقة، فقتلوه ظنا منهم أنه قتادة نفسه. و كان القاتل يدعى هارون أبا عزيز، و ينتمى الى أم جلال الدين على ما قيل.

و عند ذاك انبرى للعمل عبيد الشرفاء و خدامهم فى الحال، فتسلقوا سفوح التلال المحيطة بمنى و أخذوا يرمون الحجاج المحتشدين بالنبال و القذائف من (العرادات). و ظلوا خلال اليوم التالى كله يعتدون على الحجاج و ينهبون ممتلكاتهم، فحدثت عدة قتول من الجانبين. و لذلك أشار ابن أبى فارس على أمير الحج العراقى، محمد بن ياقوت، بأن ينقل مخيم العراقيين من منى الى الظاهر، حيث يخيم الشاميون فى العادة. و حينما بدأوا بالانتقال الى هناك تصور قتادة و عبيده ان العراقيين تحركوا للهجوم عليهم، فعاجلهم بالهجوم و نهب جميع ما كانوا يملكون. و هو يصرخ قائلا: «سوف لا أبقى أحدا منهم على قيد الحياة».

و كانت ربيحة خاتون عند ذاك فى الظاهر فالتجأ أمير الحج العراقى الى خيمتها التى كانت فيها الخاتون أم صلاح الدين الأيوبى أيضا. فما كان من السيدة ربيحة الا ـ ان تبعث الى قتادة مرافقها ابن السقار يقول له «ما ذنب الناس اذا كان القاتل معروفا؟ أم أنك تختلق الحجج لسلب الحجاج، مع أنك تعرف من نحن؟» و قد هدد ابن السقار قتادة بأنه اذا لم يكف عن الانتقام فان العاقبة ستكون و خيمة عليه حين يزحف الخليفة بنفسه عليه من بغداد و يزحف السوريون من الشام. و عند ذاك أمر قتادة بايقاف العنف بشرط أن يدفع له الحجاج تعويضا قدره مئة ألف دينار. و أخيرا تم جمع حوالى

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۲۵

ثلاثين ألف دينار من الحجاج، و من والدة صلاح الدين. و قد بقى مئات الناس مقيمين حول خيمة السيدة المعظمة ثلاثة أيام بقصد الحماية، فكان الكثيرون منهم جياعا عراة، كما كان بعضهم مصابا بجروح. و كان قتادة يعتقد ان الخليفة فى بغداد هو الذى أو عز بتدبير قتله، و لذلك أقسم على قتل أى حاج يصل الى الحجاز من أهل العراق.

و هكذا عاد حجاج العراق الى بلادهم و هم على جانب كبير من التعاسة.

بعد مدة من الزمن أوفد قتادة ابنه راجحا يستجدى العطف و الرضا من الخليفة فى بغداد، فعفا عنه و بعث له فى السنة التالية هدايا و أموال كثيرة، ثم وجه له الخليفة دعوة لزيارة بغداد. على أنه ما ان وصل الى الكوفة فى طريقه الى المثول بين يدى الخليفة حتى غيّر رأيه و عاد راجعا من حيث أتى، لأن رجال الخليفة الذين استقبلوه فى الكوفة كان أحدهم يقود أسدا مقيا بسلاسل من حديد فتشاءم الشريف من ذلك. ثم بعث الى الخليفة بقصيدة من نظمه يعتذر فيها. و يقول (ديغورى) ان قتادة صرح أكثر من مرة فى ملأ من الناس بأنه أحق بالخلافة من الخليفة العباسى فى بغداد.

و الظاهر أن خلاف الشرفاء مع العراقيين كان يتجدد بين حين و آخر برغم تقادم العهد وكر السنين. فبعد الحادث المذكور بمئة سنة أو يزيد نجد الشريف رميثة، على ما يذكرا ديغورى، يبعث ابنه محمدا بحملة اجتاز بها نجدا و احتل الحلة فى العراق حيث كان حكم المغول الأيلخانيين آخذا بالانحلال. و كان قبل ان يندبه لهذه المهمة قد حذره من غوائل العراق و العراقيين، فأيدت الحوادث ما كان يخشاه لأن ابنه قتل فى العراق خلال تلك الحملة. و لذلك انقطع توارد الحجاج العراقيين على مكة بعد تلك السنة مدة تقارب أحد عشر عاما، خوفا من انتقام الشرفاء لابن رميثة، و نظرا (۱) المرجع الأخير الص ۱۰۰.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۲۶

لاختلال الأحوال فى البلاد على أثر انهيار الحكم المغولى فيها. و لم يعد العراقيون الى الحج بعد ذلك الا فى ۱۳۴۴ للميلاد على عهد الشريف عجلان ابن رميثة.

و مما يجدر ذكره هنا بمناسبة ذكر الشريف رميثة مما له علاقة بمكة، أن امبراطورا مسلما من حكام العبيد فى أفريقية يدعى منسى موسى حج الى مكة من (ماندينكو) مع حاشيته الذين كان يبلغ عددهم حوالى خمسة عشر ألف نسمة على ما يقال. و قد جاء معه بأكياس كثيرة من الذهب و صرف أموالا طائلة فى مكة و غيرها من البلاد الحجازية، فظلت حجته هذه على ألسن الناس مدة طويلة من الزمن. و ينقل ديغورى عن أحد المؤلفين الانكليز قوله فى هذا الشأن: «.. و كان حينما سار الى الحج يمتطى صهوة جواده و يتقدمه خمسة آلاف عبد من العبيد الأشداء الذين كان كل منهم يحمل علما من الذهب يزن (۵۰۰) مثقال أو ست ليبرات منه .. و كان الهدف الوحيد من رحلته الطويلة هذه اداء الفريضة الدينية، و على الرغم مما كان فيها من أبهة و فخفخة فانها كانت تخلو من اى مغزى سياسى ... و قد حدث بنتيجة مروره بمصر فى طريقه الى مكة أن دخل كثير من الذهب فى التداول بحيث قل سعره فى السوق الى حد غير يسير، و بقى على مستواه ذاك مدة سنين عديدة ..»

الحج

هناك بحث مفصل عن الحج فى دائرة المعارف الاسلامية، يبدأ بالاشارة الى كون الحج فريضة دينية على كل مسلم و مسلمة، بالشروط و التحفظات التى تنص عليها أصول الدين. ثم يتعرض الى المشقة التى كان يلاقيها الحجاج

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۲۷

فى الوصول الى بيت اللّه الحرام، و يخلص من ذلك الى ذكر مواكب الحج و قوافله المشهورة التى كانت تقصد مكة فى كل سنة.

فيقول ان موكب الحج السورى كان يسير فى طريق القوافل التجارية القديم، الذى كان يخرج من الشام و يجتاز البلاد الأردنية الى معان، و منها الى مدائن صالح فالمدينة المنورة. و قد كان الموكب السورى أكبر موكب يصل إلى مكة، فقد بلغ عدد الحجاج الذين جاءوا معه سنة ۱۸۷۶ على ما يقول الرحالة دوطى ستة آلاف شخص. و كان الموكب يأخذ معه فى العادة محملا خاصا تسير وراءه القافلة بشكل مهيب. و لذلك كانت القلاع و الخانات تبنى فى المحطات الموجودة فى الطريق بحيث يمكنها تأمين الطعام و سائر التسهيلات للحجاج. و يقول الرحالة بورخارت ان الموكب كان يقطع المسافة الى مكة فى مدة ثلاثين يوما.

و كان موكب الحج المصرى يصحب على الشاكلة نفسها المحمل، الذى كان يحمل فى العادة الكسوة الثمينة الى الكعبة المشرفة. و يقول المستشرق لين ان الموكب المصرى كان يغادر القاهرة فى آخر اسبوع من شوال فيصل الى مكة فى سبعة و ثلاثين يوما، بعد ان يسير على طول الساحل البحرى.

و هناك طريق آخر كان يفضله الحجاج القادمون من مصر و بلاد المغرب، و هو يخرج من القاهرة أو غيرها من البلاد المصرية فيتجه شمالا الى أحد موانىء البحر الأحمر المواجهة الى جدة فى الحجاز. و هذا هو الطريق الذى سلكه الرحالة المغربى ابن جبير، و التبنوتى فى (الرحلة الحجازية).

و كان هناك موكب آخر يخرج من العراق فيجتاز جزيرة العرب، و موكب آخر كان يخرج من اليمن. و يقول مرجعنا فى دائرة المعارف ان الحكومة السعودية منذ ان تكونت لم تتقاعس عن بذل الهمة و العناية الزائدة فى تأمين الطرق و تزويد الحجاج بالماء و العناية الصحية و غير ذلك.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۲۸

و قد كانت قوافل الحجاج تضم عناصر من مختلف الناس. فقد كانت تضم الأمراء و التجار و البدو و الشحاذين و غير ذلك. و كان

هؤلاء يسافرون ماشين على أرجلهم او راكبين على ظهور الخيل و الابل و ما أشبه. و كانت السلطات فى مكة تتخذ التدابير المختلفة لمنع تعرض البدو بالقوافل، حتى اضطرت الى عقد اتفاقيات خاصة مع رؤساء القبائل و شيوخها لتسهيل شؤون الحجاج. فكان عليها ان تدفع بمقتضى ذلك مبالغ مقطوعة، تسمى صرة، لقاء هذا. و قد كانت هناك موانع قهارة أخرى فى تاريخ الحج تحول دون سير القوافل بأمن و سلامة الى مكة فى بعض السنين، مثل القرامطة، و السلطات المصرية، و القرصان، و الوهابيين. على ان الحكومة السعودية اليوم قد تمكنت من نشر لواء الأمن التام فى هذه الطرق.

و كان وصول المحملين المصرى و السورى يعد حادثا له أهميته بالنسبة للمكيين على الدوام. فكانوا يستقبلون كل واحد منهما بالكثير من المراسيم و مظاهر الحفاوة فيخيم فى موقعه الخاص خارج المدينة. غير ان أهميته قد تضاءلت كثيرا فى السنوات الأخيرة.

اما مجموع الحجاج الذين يصلون الى مكة فى كل سنة فهو معروف لدرجة غير يسيرة من الدقة. فقد كان العدد يتراوح قبل الحرب العالمية الثانية ما بين (۳۶۰۰۰) و (۱۰۸۰۰۰)، لكن المعدل يمكن ان يعتبر حوالى (۷۰،۰۰۰). و يصل معظم الحجاج فى العادة قبل موعد الحج، كما ان عددا غير قليل منهم يقضون شهر رمضان فى مكة كذلك. و هناك كثيرون يفضلون البقاء فى مكة بعد الحج، للدراسة الدينية او للمجاورة و الاقامة حتى يتوفاهم اللّه فى البلد المقدس. و الملاحظ ان عدد الحجاج يزداد على الأخص حينما يصادف يوم الحج الرئيس (۹ ذو الحجة) فى يوم من ايام الجمعة.

و تتطرق دائرة المعارف الاسلامية بعد هذا الى البحث فى مناسك الحج

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۲۹

كلها بالتفصيل، فتصفها بالوصف المألوف المعروف. ثم الى منشأ فكرة الحج فى الاسلام فتقول ان موقف النبى عليه السلام من الحج الذى كانت تمارسه العرب قبل الاسلام لم يكن موقفا واحدا فى جميع الظروف و الأحوال فهو فى شبابه لا بد من ان يكون قد أسهم فى كثير من الأحيان فى طقوسه و مراسيمه، و بعد الدعوة الاسلامية السامية لم يكن يعير هذه المراسيم كثيرا من الالتفات فى بادىء الأمر كما يلاحظ من عدم وجود ذكر لها فى آيات القرآن الأولى. و لا يبدو من أى شىء آخر انه كان قد اتخذ موقفا واضحا تجاه هذه العادة فى الأصل.

على ان اهتمام النبى محمد بالحج كان قد ظهر فى المدينة المنورة لأول مرة، و هناك أسباب عدة كانت تدعوه الى ذلك. فقد أثار نجاحه اللامع فى غزوة بدر الكبرى أفكارا كانت تحوم فى مخيلته حول مهاجمة مكة و الاستيلاء عليها. و لا شك ان القيام بالاستعدادات اللازمة لاتخاذ مثل هذه الخطوة الجريئة كان لا بد من ان يقترن بمزيد من النجاح لو أثير الاهتمام الدينى الدنيوى فى نفوس أنصاره و أتباعه. و كان عليه السلام قد خدع فى تقدير موقف اليهود تجاهه فى المدينة بحيث كان عدم اتفاقه معهم فى أمور كثيرة لا بد من أن يجعل حصول قطيعة دينية معهم شيئا لا مناص منه. و فى هذه الفترة بالذات نشأت فكرة ديانة ابراهيم و علاقتها بالديانتين اليهودية و الاسلامية.

فقد أخذت الكعبة تصبح بالتدريج مركزا للعبادة الدينية عند العرب، و لا شك ان ابراهيم أبا التوحيد كان هو الذى بناها و شيدها بالاشتراك مع ابنه اسماعيل، لتكون مجمعا للناس أجمع. و ان ما يقوم به الناس من الشعائر و العبادات فى الكعبة يرجع سببه الى الأوامر الربانية الواردة فى بعض سور القرآن.

و فى هذه الفترة كذلك جعلت الكعبة قبلة للمسلمين و أصبح الحج فريضة عليهم (و للّه على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا).

و لقد كان الوضع على مثل هذا فى السنة الثانية للهجرة. و لم يكن فى استطاعة النبى الأعظم

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۳۰

ان يحاول تنفيذ ما كان عنده من خطط الا فى السنة الخامسة بعد الهجرة).

أى بعد الحصار الفاشل الذى فرضته قريش على المدينة (واقعة الخندق، و قد كان أول مجهود بذل فى هذا الشأن تجريد حملة

الحديبية، التى جعلت أمر تأدية العمرة فى السنة التالية شيئا ممكنا و لو لم تؤد بالنبى عليه السلام الى الاستيلاء على مكة. و فى السنة السابعة سن محمد مناسك الحج فى الكعبة، غير ان الفرصة لم تسنح للقيام بمراسيم الحج علنا إلا بعد فتح مكة فى السنة الثامنة للهجرة. لكنه لم يغتنم هذه الفرصة لنفسه هو و انما بعث بدلا عنه فى السنة التاسعة أبا بكر، ليرأس موكب الحج و قافلته الى مكة. و بينما كان أبو بكر فى طريقه اليها أدركه على بن أبى طالب فى بعض منازل الطريق ليقرأ على الحجاج سورة «براءة» التى كانت قد نزلت على النبى عليه السلام فى ذلك الوقت. و قد حرمت هذه السورة إداء الحج على غير المسلمين الا الذين كان النبى قد دخل فى اتفاق خاص معهم. و فى السنة العاشرة حج النبى (ص) حجة الوداع، فكان للترتيبات التى أجراها فى هذه الحجة أهمية بالغة بعد ذلك. فقد ألغى النسىء و أدخل استعمال السنة القمرية البحتة المذكورة فى القرآن (ان عدة المشهور عند اللّه اثنا عشر شهرا فى كتاب اللّه).

و يتطرق مرجعنا فى دائرة المعارف الاسلامية الى المنشأ الذى نشأت عنه مناسك الحج فى أيام الجاهلية، و يحاول خلق أوجه شبه أو تقارب بينها و بين الموجود مثلها فى الديانة اليهودية، من دون ان يحالفه التوفيق. فيبدأ بالاشارة الى العلاقة الموجودة بين موسم الحج فى مكة و أسواق العرب التى كانت تعقد فى أيام الجاهلية. فيقول أننا نعلم ان العرب كانت تعقد سوقين سنويين قبل الاسلام فى شهر ذى القعدة، و هما عكاظ و المجنة.

و كان يعقبهما كذلك سوق ثالث فى أوائل ذى الحجة، و هو ذو المجاز الذى كان الناس يذهبون منه الى عرفات مباشرة. و على هذا فقد يكون الفرض الذى يفرض على المسلمين بالذهاب من مكة إلى عرفات مباشرة شيئا جديدا.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۳۱

و قد كان الحج الى عرفات يتم فى التاسع من ذى الحجة، فتشترك فيه مختلف القبائل العربية. على ان ذلك لم يكن شيئا ممكنا الا حينما يكون السلم منتشرا لواؤه فى البلاد، و لذلك كانت أشهر ذى القعدة و ذى الحجة و محرم تؤلف ما يسمى بأشهر الحرام المقدسة التى تتوقف فيها القبائل عن منازعاتها و خصوماتها، و تضع أسلحتها جانبا فى المنطقة المقدسة. و كانت المتاجرة و عرض السلع و المعروضات للبيع تقرن عادة بالحج و مناسكه، بعد الانتهاء من موسم قطف التمور. و ربما كانت هذه الأسواق هى. الشىء الرئيسى بالنسبة لمعاصرى النبى محمد، كما هى الحالة اليوم بالنسبة لعدد غير قليل من المسلمين الحاليين، لأن المراسيم الدينية كانت قد فقدت أهميتها حتى فى ذلك الوقت. و كان من المراسيم الرئيسية فى حج الجاهلية «الوقوف» فى سهل عرفات، اما فى الاسلام فان الحج من دون «وقوف» يعد شيئا غير مقبول. و يمتد الوقوف فى الاسلام من وقت الزوال حتى الغروب، و يقول أهل السنة ان محمدا أمر بأن لا يغادر الحجاج سهل عرفات الا بعد الغروب؛ بينما كان من المعتاد قبل الاسلام ان تبدأ «الأفاضة» حتى و لو قبل الغروب.

لكن المقول ان محمدا لم يغير الوقت فقط و انما الغى الشعيرة جميعها بمنع الاسراع فى الذهاب الى المزدلفة، و أمر بأن يكون الدخول اليها على مهل.

و يعتقد مرجعنا فى دائرة المعارف الاسلامية ان هذا كانت له علاقة بعبادة الشمس فى الجاهلية، و لذلك تعمد النبى ان يغيّر فى المواعيد.

و قد كان «قزح» إله الصواعق هو إله مزدلفة، و لذلك كانت توقد النار فوق الجبل المقدس المعروف باسم قزح أيضا. و هنا كان يتم الوقوف كذلك، و ربما كانت العادة التقليدية فى الجاهلية المنطوية على إحداث الجلبة و الضوضاء بكثرة ترجع فى سببها الى كونها كانت تعويذة تودديه تتملق للاله المذكور.

و حالما كانت الشمس تبدو فى الأفق كانت تبدأ الأفاضة فى الجاهلية.

و لذلك فرض النبى عليه السلام ان تبدأ هذه الافاضة قبل طلوع الشمس،

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۳۲

ليقضى على شعيرة من شعائر عبادة الشمس كذلك. و يقال أن العرب كانت تنشد فى أثناء الأفاضة قولها «أشرق ثبير كيما نغير». لكن تفسير هذه الكلمات لا يعد شيئا أكيدا، و لو أنها قد فسرت أحيانا بالقول: «أدخل الى نور الصبح يا ثبير، لنعجل بالمسير».

و حينما كان العرب يصلون الى منى كان أول شىء يفعلونه هو نحر الأضاحى على ما يبدو، و ما زال اليوم العاشر من ذى الحجة يسمى بيوم الاضاحى كما لا يخفى. و كانت الأبل المهيأة للتضحية فى الجاهلية تعلّم بعلامات خاصّة.

و كانت الجمار، على ما يقول ابن هشام، لا ترمى الا بعد ان تكون الشمس قد عبرت حد الزوال. و يقول المستشرق (هو تسما) أنه من المحتمل أن يكون رميها موجها الى عفريت الشمس. لأن هذا العفريت حينما ينحى جانبا أو يطرد تكون قساوة الشمس قد انتهت بانتهاء الصيف، و لذلك كان لا بد من أن يعقب هذا العمل التملق بالعبادة لاله الصواعق الذى يأتى بالخصب الافاضة فى الجاهلية كما يصورها مؤرخو الغرب

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۳۳

و المطر كما لوحظ من قبل فى ذكر مزدلفة. غير ان المعروف عند المسلمين كما لا يخفى ان الجمار يراد برميها رجم الشيطان، و على هذا فان محاولة هذا المرجع ايراد هذا التفسير بعد تصرفا بعيدا عن الواقع. ثم يقول مرجعنا ان التروية قد تكون لها علاقة كذلك بالعبادة من أجل استدرار المطر، التى بقيت آثارها حيّة بتقديس ماء زمزم.

و يقول المرجع كذلك ان بعض الحجاج كانوا يجففون لحوم الأضاحى فى الشمس، خلال أيام «التشريق»، ليأخذوها معهم حينما يعودون الى ديارهم. و هذه العادة تنطبق على معنى كلمة تشريق التى يفسرها العرب القاموسيون بأنها تعنى «تجفيف قطع اللحم فى الشمس».

زمزم

جاء فى دائرة المعارف الاسلامية أن زمزم هى بئر مكة المقدسة، التى تسمى بئر اسماعيل كذلك. و تقع فى الحرم الشريف جنوب شرقى مكة فى مقابل الركن الذى يوجد فيه الحجر الأسود. و يقدر عمقها بمئة و أربعين قدما، و هى محاطة فى الوقت الحاضر بقبة رشيقة جميلة البناء. و يقوم الحجاج بشرب الماء المستخرج منها للحصول على الصحة و العافية، و هم يأخذون من مائها الى أهليهم أيضا ليسقوه المرضى و الناقهين. و تعنى زمزم بالعربية الماء الغزير.

و تنص الروايات العربية و الاسلامية على ان هذه البئر لها علاقة بقصة ابراهيم الخليل. فقد فجرها جبرائيل لينقذ هاجر و ابنها اسماعيل، حينما أشرفا على الموت عطشا فى تلك البقعة القاحلة. و كانت هاجر أول من جمع ماءها ببناء جدار من الأحجار حولها. و من الأكيد ان هذه البئر كانت تعتبر بئرا مقدسة منذ مدة موغلة فى القدم. و المعروف فى بعض الأخبار، كما يستفاد من أبيات شعر قديمة، ان الايرانيين كانوا يرتلون صلواتهم

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۳۴

حول زمزم فى الأزمنة الغابرة، و يقول شاعر آخر ان هذه البئر كانت قد زارها ساسان بن بابك جد الأكاسرة الساسانيين.

و يفهم مما جاء فى الأخبار ان جرهم ردمت زمزم فى عهد الوثنية، و أخفت خزائنها فيها، لكن المؤرخ المسعودى يقول ان جرهم كانوا أناسا فقراء لا يملكون مثل هذه الخزائن التى لا بد من ان يكون قد قد دفنها الايرانيون لا الجرهميون. على أن البئر أعاد اكتشافها و حفرها عبد المطلب جد النبى، الذى بنى من حولها جدرانا من الحجر. و قد استخرج منها خلال ذلك غزالين من الذهب، و بعض السيوف القلعية، مع عدد من الدروع و الزرود. فصنع باب الكعبة من السيوف، و غلفها بصفائح الذهب التى أخذها من أحد الغزالين، أما الغزال الثالث فقد احتفظ به فى داخل الكعبة.

و فى سنة ۹۰۹ (۲۹۷ ه) فاض ماء زمزم على غير المعتاد فأغرق عددا من الحجاج. و قبل ان يغادر الحجاج مكة و يعودوا الى بلادهم

ينقعون الأكفان التى يحتفظون بها للتكفن بعد الموت.

الكعبة

الكعبة حصن الاسلام و حرزها الحريز على ما تقول دائرة المعارف الاسلامية، و هى تقع فى وسط المسجد الحرام فى مكة. و لأسمها علاقة بشكلها المكعب فى مظهره. و يبلغ طول الجدار الذى تتكون منه الجبهة و يقع فيه الباب، و الجدار الخلفى، أربعين قدما، أما الجداران الآخران فيبلغ طولهما خمسة و ثلاثين قدما، كما يبلغ الارتفاع خمسين قدما.

و يتكون بناء الكعبة من طبقات متتالية من حجر رمادى اللون جىء به من الجبال المحيطة بمكة. و هى تقوم فوق قاعدة من المرمر تبلغ عشر بوصات فى ارتفاعها، و تبرز حوالى قدم واحد عن البناء فتسمى «الشاذروان».

و تدل الخطوط الأربعة التى ترسم من مركز البناية بامتداد الأركان على جهات البوصلة الأربع تقريبا. و يسمى الركن الشمالى «الركن العراقى»، و الركن

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۳۵

الغربى «الركن الشامى»، و الجنوبى «الركن اليمانى»، و الشرقى «الركن الأسود» نسبة الى الحجر الأسود.

و تغطى جدران الكعبة الأربعة بكسوة تصل الى أسفل، و تشد بحلقات نحاس مثبتة بالشاذروان. و هناك فتحات فى الكسوة للباب و خروج ماء الغسيل. اما الكسوة فتصنع فى مصر كل سنة و يؤتى بها إلى مكة بالمحمل مع موكب الحج. و ترفع الكسوة القديمة كل سنة فى اليوم الخامس و العشرين (او الثامن و العشرين) من ذى القعدة، فتغطى الكعبة موقتا بغطاء أبيض ينزل الى ما فوق الأرض بست أقدام، فيقال عندئذ أنها «محرمة»، و عند انتهاء الحج تغطى بالكسوة الجديدة. اما الباب فيغطى بكسوة خاصة لوحده، و هى من صنع مصرى أيضا، و تسمى البرقع.

و تتألف الكسوة من نسيج حريرى مشجر ذى لون أسود، حيكت فيه الشهادة. و على ارتفاع ثلثى الكسوة يدور من حولها حزام من التطريز المذهب، المغطى بآيات قرآنية كتبت بخط جميل حسن. و يعتبر كل شىء من الكسوة القديمة قماشا مقدسا بطبيعة الحال، و لذلك يبيعها بنو شيبة سدنة الكعبة بقطع صغيرة تستعمل أحجبة و تمائم فى شتى الظروف و المناسبات.

و على ارتفاع سبعة أقدام من الأرض يوجد الباب فى الجدار الشمالى الشرقى، و هذا الباب يطعم قسم منه بتزيينات من الفضة. و فى داخل الكعبة ثلاثة أعمدة خشبية يستند عليها السقف الذى يؤدى سلم خاص اليه. و الأثاث الوحيد الموجود فيه هو الأضوية العديدة من الذهب و الفضة المعلقة فيه.

و هناك كتابات كثيرة حول الجدران الداخلية، اما الأرضية فهى مبلطة بقطع من المرمر.

و قد بنى الحجر الأسود فى الركن الشرقى، على ارتفاع خمسة أقدام

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۳۶

من الأرض و مسافة غير بعيدة عن الباب. و هو يتكون اليوم من ثلاث قطع كبيرة، و عدة كسر صغيرة ملصقة معا و محاطة بحلقة حجرية يحيط بها حزام من فضة. و يوصف الحجر أحيانا بكونه من نوع البازلت، و أحيانا أخرى يعتبر من اللاب البركانى. على أنه من الصعب تعيين طبيعته، لأن سطحه الظاهر قد تأكل فأصبح أملس بفعل اللمس و التقبيل. و يقدر البتونى قطره باثنتى عشرة بوصة، أما لونه فهو أسود ميال الى الحمرة مع بعض الجزيئات الحمراء و الصفراء منتشرة فيه.

و يسمى القسم المحصور بين الباب و الحجر الأسود من الجدار «الملتزم» لأن الحجاج يضغطون عليه بصدورهم عندما يبتهلون بجانبه.

و يوجد فى الركن الغربى كذلك، على ارتفاع خمسة أقدام من الأرض، حجر آخر يسمى «الحجر الأسعد». و هذا الحجر يلمس و لا يقبل فى أثناء الطواف حول الكعبة.

و يبرز الى خارج الجدار من تحت قمة الجدار الشمالى الغربى «الميزاب» المذهب الذى تلتحق به زائدة صغيرة تسمى «لحية الميزاب». و يطلق على الميزاب اسم «ميزاب الرحمة»، كما تقع القبلة المضبوطة ما بين الميزاب هذا و الركن الغربى.

و يوجد فى مقابل الجدار الشمالى الغربى، من دون اتصال به، جدار مرمر أبيض له شكل نصف دائرى. يسمى «الحطيم». و يبلغ ارتفاعه ثلاث أقدام، و سمكه خمس أقدام، كما يبعد طرفاه عن الركنين الشمالى و الغربى بما يقرب من ست أقدام. و للفضاء نصف الدائرى المحصور ما بين الحطيم و الكعبة أهمية خاصة لأنه كان جزءا من الكعبة مدة من الزمن، و لذلك فانه لا يدخل فى ضمن خط الطواف الذى يمد على مقربة من جهته الخارجية. و يسمى هذا الفضاء «الحجر» او «حجر اسماعيل»، لأن المقول ان ابراهيم و اسماعيل و هاجر كانوا قد دفنوا فيه، و يسمى التبليط

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۳۷

الذى يتم فوقه الطواف «المطاف»، و هناك خسفة فى القسم الكائن فى مقابل الباب منه تسمى «المعجان»، لأن الاسطورة الخاصة تقول ان ابراهيم و اسماعيل كانا قد خلطا الملاط فيها عند بناء الكعبة.

و يدور حول المطاف، و بارتفاع يزيد على ارتفاعه، حاجز مبلط، يبلغ عرضه بضع خطوات، و يقوم فوقه واحد و ثلاثون او اثنان و ثلاثون عمودا من الأعمدة الرشيقة. و تسد صف الأعمدة هذا باب بنى شيبة التى يقوم طاقها الكبير فى مقابل جدار الكعبة الشمالى الغربى فيعتبر مدخلا للمطاف.

و فيما بين هذا المدخل المقوس، و الكعبة نفسها تقوم بناية غير كبيرة لها قبة صغيرة، تسمى «مقام ابراهيم». و فى داخل هذه البناية الصغيرة يحتفظ بحجر يقال ان ابراهيم كان يقف عليه فى أثناء بناء الكعبة. و لا يسمح بالدخول الى المقام الا بدفع اجور دخولية خاصة. هذا و لم يستطع الأوربيون الذين زاروا البيت الحرام متخفين ان يشاهدوا الحجر، و يقول الرحالة الانكليزى بورتون (سيأتى ذكره بالتفصيل بعد هذا) ان الريالات الخمسة التى طلبت منه للدخولية كانت أكثر مما تتحمله ماليته يومذاك فلم يدخل. أما الشرقيون من الرحالة فيقولون عنه انه حجر غير صلب يمكن ان تلاحظ فيه حتى الآن آثار قدمى ابراهيم الخليل، فى مقابل جدار الكعبة الشمالى الغربى أيضا، و ما بين صف الأعمدة «المنبر» المصنوع من المرمر الأبيض.

و يكون التبليط الذى يقوم عليه صف الأعمدة أخفض بقليل من التبليط الذى يدور حولها، فتتفرّع عنه ثمانية مماش مبلطة تصل الى الأعمدة التى تحيط بالمسجد الحرام. و تقع على التبليط الخارجى اربعة مبان صغيرة، كما تقع بالقرب من باب بنى شيبة، فى مقابل الحجر الأسود، القبة المقامة فوق بئر زمزم. اما المبانى الصغيرة الثلاثة الأخرى فتسمى «المقامات» او الأماكن التى يصلى فيها أئمة المذاهب السنية الثلاثة عدا الشافعى. فيقوم المقام أو المصلى الحنبلى فى جنوب مبنى زمزم تجاه الجدار الجنوبى الشرقى للكعبة، و هو يتألف من سقف يعلو و يضيق حتى يتكون منه رأس مدبب

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۳۸

فى الوسط، و يحمل على أعمدة رشيقة من المرمر. و يكون مبنى المقام المالكى بالشكل نفسه، و هو يقع تجاه جدار الكعبة الجنوبى الغربى. و يطل المقام الحنفى على الحطيم، و جدار الكعبة الشمالى الغربى، فيكون له سقفان أحدهما فوق الآخر. اما الشافعى فليس له مقام خاص به، على ما يقول مرجعنا فى دائرة المعارف الاسلامية، و لذلك يصلى الشافعية تحت القبة فوق سقف زمزم أو فى مقام ابراهيم. على أن الحكم الوهابى قد ألغى وجود المذاهب فى داخل المسجد الحرام.

تاريخ الكعبة

ليس عند العرب مستندات تاريخية او شبه تاريخية تدل على أصل الكعبة و منشئها، على ما يقول مرجعنا فى دائرة المعارف الاسلامية، و لا تتيسر عند الاوربيين مثل هذه المستندات كذلك. لكن المستشرق الهولاندى هور غرونية (الذى سنذكره بعد هذا) يقول ان تفجر

الماء فى زمزم فى واد قاحل جاف ربما يكون هو السبب فى نشوء قدسية المكان بأجمعه.

و لا بد من ملاحظة أن بطليموس يذكر فى جغرافيته «ماكورابا» فى مكان مكة. و لا شك ان هذه الكلمة تقرب من كلمة «مكراب» او «محراب» فى لغة الجنوب العربى و الأحباش. و لذلك يمكن ان يستنتج بأن الكعبة كانت موجودة فى القرن الثانى بعد الميلاد. و تدل قصة أبرهة و زحفه على مكة على وجودها فى القرن السادس للميلاد كذلك، لكنها تنورنا بشىء عن مظهرها او عما كان فيها من أشياء. و المعروف ان تبّعا الحميرى الذى جاء الى مكة كان أول من جهز البناء بكسوة و باب له قفل، اما المعلومات المتوفرة عن توزيع وظائف الكعبة على أبناء قصى فتدل على ان العبادة فى هذا المكان قد أصبحت نظاما دينيا منتظما قبل مبعث النبى عليه السلام بعدة أجيال.

على ان المراجع التاريخية المتيسرة تبدأ بظهور محمد (ص). و هى تشير الى أنه حينما وصل الى دور الرجولة و النضج حدث حريق فى الكعبة

و أتى عليها كلها. و هنا يذكر مرجعنا قصة بنائها من جديد و الاستفادة من خشب السفينة اليونانية الغارقة فيه، مما أتينا على ذكره قبل هذا. و يقال ان الكعبة القديمة كان ارتفاعها لا يزيد على قامة واحدة، و لم يكن لها سقف.

و كانت عتبتها فى سوية الأرض، و لذلك كانت مياه السيول كثيرا ما تتسرب اليها. فرفعت سويتها عند تجديد البناء، و وضع الباب فوق مستوى الشوارع بحيث كان على من يريد الدخول إليها ان يتسلق سلما يؤدى الى فنائها. و كان الزوار غير المرغوب فيهم يدفعون من فوق العتبة الى أسفل. و قد اختلف أهل مكة فيما بينهم على الشخص الذى يضع الحجر الأسود فى المكان المعد له فى البناء، فحكّم محمد الصادق الأمين فى الأمر على ما هو معروف فى تاريخه عليه السلام قبل الرسالة.

و حينما تسنى للنبى ان يفتح مكة فى سنة ۸ للهجرة ترك بناء الكعبة على ما كان عليه، لكن التجديدات التى كان يريد إدخالها فيه قد تحققت فى سنة ۶۴ للهجرة (۶۸۳ م) على يد عبد اللّه بن الزبير. فقد حاصره الحصين ابن نمير فى مكة حينما ثار فيها على الأمويين، و عندما أخذ الجيش المغير بقصفها نصب عبد اللّه خيامه و خيام مؤازريه بالقرب من الكعبة فأدى الاصطدام الى تهديمها الى حد كبير، بعد ان شبّت النار فيها. و قد تسببت النار فى تصدع الحجر الأسود و تكسره الى ثلاث قطع. و بعد ان انسحب الجيش الأموى شاور عبد اللّه المسؤولين عن الكعبة فى نقضها كلها و بنائها من جديد. و عندما قرر ذلك، و اقتضى الأمر ان تزال الأنقاض. لم يجرأ أحد على التصدى للعمل لأن معظم السكان و على رأسهم عبد اللّه بن عباس كانوا قد تركوا البلد المقدس لأنهم كانوا يخشون ان ينزل عليهم عذاب من اللّه. و لذلك اضطر عبد اللّه بن الزبير ان يتسلق الجدران بنفسه، و فى يده الفأس، فيبدأ بالعمل المخيف. و حينما وجد قومه أنه لم تنزل به نازلة او يصيبه شىء تشجعوا فساعدوه فى العمل.

و عند ذاك بنيت الكعبة بأحجار مكة لا غير، و ملاط اليمن، فجعل

ارتفاعها سبعة و عشرين ذراعا. و تنفيذا لما جاء فى السنة النبوية أدخل الحجر (بكسر الحاء) فى ضمن البناء، و جعل بابان فقط فى سوية الأرض إحدهما للدخول و آخر للخروج. على ان هذه التغييرات لم تستقم وقتا طويلا.

فقد استولى الحجاج بن يوسف الثقفى على مكة سنة ۷۴ ه (۶۹۳ م) فقتل عبد اللّه بن الزبير، و بموافقة من الخليفة عبد الملك عزل الحجر عن الكعبة و سدّ الباب الغربى. و بذلك تطمنت رغبة بنى أمية التى كانت تريد إبقاء شكل الكعبة على ما كانت عليه قبل الاسلام تقريبا، و قد حافظت على شكلها ذلك حتى يومنا هذا. و كان الرأى العام المكى على الدوام غير راغب فى إدخال أى تعديل ذى بال على الكعبة، كما هو الحال فى الجاهلية. و لهذا فحينما هددتها مياه السيول سنة ۱۶۱۱ م حزمت البناية بحزام من نحاس لتفادى الكارثة، غير ان سيلا آخر حصل فى ۱۶۳۰ فجعل هذا التدبير شيئا لا يفى بالمرام، فتقرر إدخال بعض التحسينات و التجديد. لكن

الأحجار القديمة كانت قد استعملت كلها فى إعادة البناء على قدر الامكان.

اما عادة تغطية الكعبة بكسوة خاصة فيقال ان تبعا الحميرى كان أول من بدأ بها، على ما مر سابقا. على ان إكساءها بكسوة جديدة فى كل سنة قد أصبح عادة مستديمة فى الأزمنة الحديثة. و قد كان يوم عاشوراء فى الزمن القديم هو اليوم الذى تجدد فيه كسوة الكعبة، غير انها كانت تكسى فى رجب فى بعض الأحيان كذلك. و كانت الكسوة تصنع من قماش يمنى تارة او قماش مصرى تارة أخرى. و يبدو ان الكعبة قد ناءت بثقل الكساوى على عهد الخليفة عمر، و كادت تنهار، فجردت من كساواها القديمة كلها.

و تشير الروايات التاريخية الى أن المقامات الموجودة حول الكعبة كانت موجودة فى أيام العباسيين، و كان المقام يسمى أحيانا «ظلة». على أن المقول هو أن ابنيتها الحالية تعود فى تاريخها الى سنة ۱۰۷۴ (۱۶۶۳ م).

و لقد ذكرت القبة المقامة فوق بئر زمزم منذ أيام العباسيين كذلك، لكن بنايتها الحالية كانت قد شيدت فى ۱۰۷۲ للهجرة.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۴۱

و قد كانت النذور و القرابين تقدم للكعبة فى العهد الوثنى و عهد المسلمين على السواء، و كثيرا ما كانت الأموال التى تجمع من هذا المورد تستخدم للأغراض السياسية من قبل بعض الحكام و الأمراء و الملوك. فقد ذكرت بعض المصادر أن الخليفة عمر قال يوما بأنه لن يبقى ذهبا و فضة فى الكعبة و أنه سوف يوزعهما على جهات و أغراض مختلفة. غير ان على بن أبى طالب قد اعترض على ذلك بشدة على ما يقال، فعدل عمر عن رأيه.

اما تاريخ الكعبة فى الاسلام فقد سبق ان أوردنا موجزا عنه نقلا عما ذكره ديغورى فى (حكام مكة) من قبل، ولكننا نود ان نضيف الى ذلك هنا بعض النقاط التى يوردها كاتب البحث المختص فى دائرة المعارف الإسلامية أيضا. فحينما استولى محمد (ص) على مكة جاء اليه عمه العباس و طلب اليه ان يحتفظ بوظائف خدمة الكعبة لنفسه، غير ان النبى الكريم لم يكن يعلق أهمية كبرى على كل هذه الوظائف سوى السقاية و السدانة. فبقيت السقاية فى يد العباس، و أعطيت السدانة الى عثمان بن طلحة الذى عين ابن عمه شيبة ابن أبى طلحة وكيلا عنه. و بقى بنو شيبة فى سدانة الكعبة حتى هذا اليوم أما الرفادة التى كانت فى عهدة أبى طالب فقد تولاها أبو بكر فى سنة ۹ للهجرة، ثم تولاها الخلفاء أنفسهم من بعده.

و فى سنة ۱۰ للهجرة كان محمد (ص) نفسه على رأس الحجاج الى مكة، و لذلك لم يدخل الكعبة فى هذه السنة أى و ثنى من عبدة الأصنام تنفيذا لما جاء فى سورة براءة التى نزلت عليه. فأصبحت مكة منذ تلك السنة معبدا للمسلمين وحدهم بالكلية، و صار المسلمون فى أنحاء العالم كافة يتجهون الى مكة فى كل صلاة، كما صار الطواف حول الكعبة لحجاج بيت اللّه الحرام أول المناسك الدينية و آخرها عندهم فى اثناء الحج.

و من المراسيم الخاصة التى تختص بالكعبة الشريفة يؤكد مرجعنا على اثنين منها على الأخص، و هما عمليتا فتح الكعبة و غسلها. فان فتح الكعبة

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۴۲

يتم فى أيام معينة، و عند ذاك يسمح بالدخول اليها للرجال أولا، ثم للنساء.

و فى هذه الحال يوضع السلم المشار اليه من قبل بالقرب من البناء. و تعتبر الصلاة فى الكعبة على جانب كبير من الأهمية و التقدير.

و بعد ان ينتهى أمد الحج فى نهاية ذى الحجة يحين أوان غسل الكعبة، و هذه العملية تتولاها السلطات المسؤولة فى مكة و عدد من الحجاج أنفسهم.

و كان أول من يدخل الكعبة لهذا الغرض شريف مكة المسؤول، و بعد أن يصلى ركعتين يقوم بغسل الأرض بماء زمزم الذى يتسرب إلى الخارج من ثقب خاص فى عتبة الباب. و كانت الجدران تغسل بنوع خاص من المكانس مصنوع من سعف النخيل على ما يقول مرجعنا. ثم يعمد الشريف الى رش كل شىء بماء الورد، و يعقب ذلك تبخير البناية بأنواع العطور و البخور.

و يقوم الشريف فى النهايـة برمى المكنسـة الى جمهور الحجـاج الـذين يتخاصـمون و يتنـافسون فيما بينهم من أجل الحصول عليها. و يذكر البتونى فى رحلته ان المطوفين و الزمزميين يبيعون الى الحجاج مكانس مماثلة بما لا يقل عن نصف ريال للواحدة.

فيتضح من ذلك ان تقديس الكعبة يمتد الى كل ما له علاقة بها، مثل الحجر الأسود و الميزاب و ماء زمزم و ما أشبه. على اننا نلاحظ فى المراجع العربيـة ان الخليفة عمر خاطب الحجر الأسود ذات يوم بقوله «انى أعلم أنك حجر لا تضـر و لا تنفع، و لو لا ان رسول اللّه قد قبلك لما قبلتك».

ثم ان الصـلاة تحت الميزاب تعتبر صـلاة فيها الكثير من الأجر و الثواب، و لـذلك يقول المؤرخ الأزرقى «الصـلاة تحت المثعب تمحو الذنوب». و يعد ماء زمزم الذى يسكبه الحاج على نفسه مرة بعد أخرى من دون ملل، مفيدا لكل شىء عند الشرب.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۴۳

عرفات

يطلق هذا الأسم على جبل اشـتهر بكونه مكانا يحج اليه الحجاج بعد الطواف فى مكة، و على السهل القريب منه، الكائن على بعد ست ساعات من شرف مكة كما تقول دائرة المعارف الأسلامية. و يتألف هذا الجبل المعتدل فى حجمه و أبعاده، من حجر الغرانيت، فيصل بارتفاعه الى مئة و خمسين او مئتى قـدم. و هناك درجات حجرية متسـعة فى الجهة الشـرقية منه تؤدى الى قمته. و توجد فى الدرجة الستين فسـحة خاصة يقوم فى وسـطها منبر تلقى منه الخطبة سنويا بعد ظهر اليوم التاسع من ذى الحجة، أى فى يوم عرفات. و قد كانت توجـد فوق القمـة سابقا قبـة خاصـة تسـمى باسم «ام سـلمة»، فهـدمها الوهابيون. و المعروف ان المسـلمين المتـدينين لا يتجاوزون فى صعودهم حد الفسحة و المنبر. و يسمى الجبل فى العادة جبل الرحمة.

اما سـهل عرفات فيمتد الى جنوبى الجبل الى ان تحده سلسـلة جبال الطائف الشامخة من الجهة الشرقية. و يغطى السهل نمو غير مرتفع من النباتـات المسـتحية (ميموزا)، و هو لا يمتلىء بالحياة و الحركـة الا فى يوم واحـد من السـنة (التاسع من ذى الحجـة) حينما ينصـب الحجاج خيامهم احياء لفريضـة او شـعيرة «الوقوف»، و يتم الوقوف بعـد ظهر اليوم المذكور فيمتد الى غروب الشـمس. و يعبر الحجاج الذين يحضرون للوقوف عن حماستهم الدينية بقولهم «لبيك، لبيك» بصوت عال، و الصلاة و تلاوة القرآن الكريم.

و لا يعرف ما هو أصل عرفات، غير ان التفسير الأسطورى على ما

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۴۴

يقول مرجعنا هو ان آدم و حواء تلاقيا فى هذا المكان و تعارفا ثانية بعد ان افترقا على أثر طردهما من الجنة. و هناك تفسـيرات مماثلة غير هذه يذكرها المؤرخون العرب.

منى

تقع منى ما بين الجبال الكائنة فى شرق مكة، على الطريق المتجه منها الى عرفات. و تذكر دائرة المعارف الأسلامية نقلا عن المقدسى أن المسافـة بين مكـة و منى لاـ تزيـد على فرسـخ واحـد، بينما يقول المؤرخ الانكليزى (ويفل) ان المسافـة تقـدر بخمسـة اميال، و أن إكمالها الى عرفات يبلغ تسعة اميال. و تقع منى فى واد ضيق يمتد من الشرق الى الغرب، و يبلغ طوله حوالى ألف و خمس مئة خطوة على مـا يقول الرحالـة بورخـارت، و هو محـاط بـأجراف منحـدرة جرداء من حجر الغرانيب. و يقوم فى الجهـة الشـمالية من منى جبل يسـمى «ثبير». فينزل القادمون من مكة الى هذا الوادى من ممشـى جبلى نحت فيه عدد غير يسـير من الدرجات، و هذا هو «العقبة» التى اشتهرت بالمفاوضات التى كان النبى محمد (ص) قد أجراها مع المدينتين.

و تتألف البلدة من بيوت مبنية بالحجر ذات حجوم معتدلة، يتكون منها شارعان طويلان. و فيما يقرب من العقبة عمود قصير منحوت نحتا غير صقيل، يطلق عليه «الجمرة الكبرى» او «جمرة العقبة»، و يرمى الحجاج جمراتهم على هذا العمود. و على مسافة قليلة الى الشرق من هذا توجد فى وسط الشارع «الجمرة الوسطى»، التى يعرف مكانها بوجود عمود أيضا. كما يوجد على مسافة مماثلة من هذه مكان ثالث يسمى «الجمرة الاولى». و حينما يصل المرء الى النهاية الشرقية من الوادى يجد على يمين الطريق مسجدا مربع الشكل محاطا بسور خاص، هو مسجد الخيف الذى أعاد بناءه صلاح الدين فى ۱۴۶۷ (۸۷۴ ه)، ثم جدده من بعده السلطان

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۴۵

المملوك قائدبك. و توجد على طول الجهة الغربية من السور المحيط بالمسجد ثلاثة صفوف من الاعمدة.

و أبرز ما يلفت النظر فى منى المفرق العظيم الذى يلاحظه المرء بين الشوارع الهادئة الخالية فيها خلال القسم الاعظم من السنة، و الازدحام الهائل الذى يحصل خلال شهر الحج. فان نصف مليون من الناس مع حيواناتهم المحملة بالأحمال الثقيلة يحاولون قطع الأميال التسعة فى الفترة المنحصرة بين طلوع الشمس و الساعة العاشرة زواليه قبل الظهر. و لذلك تكون كل بقعة فى الوادى مغطاة فى ذلك اليوم بالخيام التى يقضى الحجاج ليلتهم فيها.

و يقول مرجعنا فى دائرة المعارف الأسلامية ان مناسك الحج فى منى تعود فى تاريخها الى أيام الجاهلية الوثنية. فيعتقد ان رمى الجمار هى عملية قديمة جدا، لكن أهميتها فى الأسلام يكتنفها شىء من الغموض، مع انه يشك بان اكوام الجمار الثلاثة كانت موجودة قبل الأسلام. و من الواضح كذلك ان مناسك الحج فى منى كانت تعتبر خاتمة الحج كله حتى فى الأزمنة القديمة. و يقول مرجعنا ان النبى محمدا (ص) أدخل بعض التغييرات المهمة فى هذا الشأن، فقد أوجب زيارة الحجاج لمكة قبل المكوث فى منى لكن عناصر الحج القديمة بقيت من العوامل المهمة فيه لأنه لا ينتهى اليوم فى مكة و انما ينتهى فى منى كما كان بالسابق. و ربما كان المكان الذى تنحر فيه الأضاحى، الذى تفضله اكثرية الحجاج، و هو سفوح ثبير الجنوبية، من بقايا العهد القديم ايضا، لأن علاقته بقصة ابراهيم ربما تكون قد أدت الى اعتراف الأسلام بمثل هذه البقعة الوثنية. و هى كما يصفها بورتون الرحالة عبارة عن منصة صخرية مربعة الشكل يمكن الوصول اليها بعدد من الدرجات. و لم يمنع النبى نفسه استعمال بقعة النحر الوثنية مباشرة، لكنه جردها عن اهميتها القديمة بقوله ان نحر الضحايا يمكن ان يتم فى أى

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۴۶

بقعة من منى كلها، و هذه وسيلة بارعة كان قد اتبعها فى عرفات و مزدلفة كذلك.

و تحتم التعاليم الأسلامية على الحجاج الذين يصلون الى مكة فى ثامن ذى الحجة ان يغادروها بحيث يستطيعون اداء صلاة الظهر فى منى، و البقاء فيها حتى مطلع الشمس فى اليوم التاسع، و عند ذاك فقط يمكنهم الذهاب الى عرفات. على ان اغلبية الحجاج لا تفعل هذا و انما يذهبون فى اليوم الثامن الى عرفات بعد الصلاة مباشرة حيث يصلون عند المساء. و بعد أن يؤدوا مناسك الحج فى عرفات و مزدلفة يذهبون الى منى قبل طلوع الشمس فى اليوم العاشر ليحتفلوا بيوم النحر الاكبر. و هنا يؤدون مناسك اختتام الحج كلها، و هى النحر و قص الشعر و الاظافر و رمى الجمار. و ليس هناك اتفاق تام على الترتيب الذى يجب ان يتبع فى أنجاز هذه المناسك، على ان تحوير عملية رمى الجمار له أهميته لانها ترمى فى يوم النحر على كومة العقبة، بينما يقوم كل حاج فى الأيام الثلاثة التالية برمى سبع جمرات صغار فى كل يوم على الاكوام الثلاثة كلها. أما اختتام الحج فيتم بأيام منى أو أيام التشريق الثلاثة، أى يوم ۱۱ و ۱۲ و ۱۳ من ذى الحجة. و تعتبر هذ الأيام أيام فرح و انشراح يحييها الحجاج بمظاهر البهجة و السرور، و بانارة الأضواء و إطلاق النار من الاسلحة. على ان الحجاج كلهم لا يمكثون فى منى طوال الايام الثلاثة، و انما يمكنهم العودة قبل ذلك.

المزدلفة

جاء فی دائرة المعارف الاسلامیة ان المزدلفة مکان یقع فی منتصف الطریق الموصل بین منی و عرفات تقریبا، حیث یفضی الحجاج العائدون من عرفات اللیلة المنحصرة بین یومی ۹ و ۱۰ ذی الحجة، بعد ان یؤدوا صلاتی المغرب و العشاء. و قبل ان تبزغ الشمس فی صباح الیوم التالی، یهرع الحجاج الی التسلق من وادی المحاصر الی منی. و تسمی المزدلفة کذلک

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۴۷

«المشعر الحرام» و «الجمع»، لکن روایة أخری تقول ان الجمع یتألف من المنطقة الواقعة بین عرفات و منی کلها بما فیها الموقعان نفساهما، بحیث یعنی «یوم الجمع» یوم عرفات نفسه و «أیام الجمع» أیام منی نفسها. و ترجع المناسک التی یقوم بها الحجاج خلال اللیلة التی یقضونها فی المزدلفة الی أیام الوثنیة القدیمة فی تاریخها، علی ما یقول مرجعنا فی دائرة المعارف الأسلامیة. و یعترف العرب انفسهم بذلک حینما یشیرون الی أن قصیا هو الذی ابتدع إشعال النار المقدسة فی هذه اللیلة، و یقولون ان قیادة الخروج الی منی تعتبر امتیازا خاصا لأسرة عدوان.

و کان المکان المقدس فی المزدلفة جبل قزح، و قد بقی هذا الجبل محافظا علی قدسیته حتی بعد ان صرح الاسلام بأن المزدلفة کلها «مواقف».

و یقول الأزرقی مؤلف مکة القدیم: ان قزحا کان یوجد فوقه برج مدور سمیک الجدران، کانت النار توقد فیه» و فی أیام هارون الرشید کانت هذه النار تغذی بالخشب، ثم صارت توقد الشموع فیه حتی تم بناء مسجد خاص

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۴۸

علی بعد أربعمئة یاردة من البرج. و تضاء الأضویة فی لیلة المزدلفة الیوم فوق هذا المسجد نفسه.

الصفا و المروة

ان الصفا و المروة، علی ما جاء فی دائرة المعارف الاسلامیة، هما نشزان غیر مرتفعین من الأرض موجودان فی موقعین متقابلین من مکة المکرمة، و یعنی معناهما الحجر.

و یقوم المسلمون خلال الحج بالسعی بین هذین المرتفعین احیاء لذکری هاجر، أم اسماعیل، التی ظلت تهرول بین الصفا و المروة للتفتیش عن ماء تأتی به الی ابنها العطشان. و یؤکد المؤرخون ان هذا المکان کان من الأماکن

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۴۹

المقدسة حتی فی الجاهلیة. فقد کان فیه صنمان حجریان هما «إساف» فوق الصفا و «نائلة» فوق المروة، و کان العرب یسعون بینهما و یمسکون بهما للتبرک. و قصة هذین الصنمین الجاهلیین الاسطوریة قصة طریفة تتلخص فی أنهما کانا شخصین سلکا سلوکا شائنا فی الکعبة، فانقلبا الی صنمین حجریین وضعا فوق الصفا و المروة لیکونا عبرة لمن یعتبر من الناس. و قد نسیت هذه القصة بمرور الزمن فلم یعد أهل الجاهلیة یعلمون بظروف وجودهما هنا، و أخذوا یقدسونهما الی حد العبادة. و تقول روایات أخری ان هذا المکان کانت توجد فیه أصنام من النحاس، کما تقول روایات غیرها ان هذین التلین کان یعیش فیهما بعض العفاریت التی کانت تخرج أصواتا مخیفة فی اللیل.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۵۰

الغربیون فی مکة

اشارة

هـذا و يستفاد مما جاء فى عـدد غير يسير من المراجع الغربيـة ان مكة المكرمة تطرق الى ذكرها المؤرخون الغربيون منذ القدم، و ان عـددا من رحالى الغرب و مستشـرقيه قد تسـنى لهم الدخول اليها و الاشتراك فى مناسك الحج فى مختلف الأدوار السابقة و اللاحقة، بعـد ان اعلنوا اسـلامهم الحقيقى او غير الحقيقى. و قـد تهيأ لعـدد من هؤلاء ان يكتب عن مجازفاته و مغامراته فى سـفرة مثل هـذه فى أكثر من لغة واحدة من اللغات الأوربية.

فمن أوائل الأوربيين الـذين ذكروا مكة و وصـفوا ساحل الحجاز على البحر الأحمر المؤرخ اليونانى ديودورس الصـقلى . فهو يقول ان هـذا الساحل ليس فيه سوى عـدد قليل جـدا من الموانىء و المرافىء نظرا لوجود سلسـلة طويلة من الجبال تمتد على طوله، و هى تبدو جميلة جدا ملأى بالألوان للمارين بالسفن من قربه. الا ان منطقة داخلة فى البحر تصادفهم بعد ذلك و هى ملأى بالقرى و البلدان التى يسـكنها العرب الأنبـاط. و لهؤلاء بلاد واسـعة تمتـد على ساحـل البحر، و بعيـدا عنه الى الـداخل، و هى بلاد كثيرة موسوعـة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۵۱

السـكان غنية بالمواشى و الأغنام. و كانوا يعيشون عيشة رخاء و نزاهة لما كان عندهم من قطعان كبيرة، حتى أطلق ملوك الاسكندرية الحرية للتجار بارتياد البحر الاحمر. فأخذ هؤلاء يسـرقون السـفن المعطلة، و يمارسون اعمال القرصـنة حتى هددوا الحركة التجارية فى ذلك البحر. و عند ذاك سيقت عليهم حملة بحرية أنزلت بهم العقاب. ثم يذكر ديودورس وجود قوم يسميهم «البيزومينيين» ، و يذكر ان هؤلاء كانوا يعيشون على اصطياد الحيوانات الوحشية. و هنا يقول ان هذا المكان يوجد فيه معبد مقدس يجله العرب كلهم.

اما مؤرخ الاغريق المشهور هيرودوتس، الذى كتب تاريخه فى ۴۳۰ قبل الميلاد، فيقول ان العرب كانوا يعبدون أوروتال أو أليلات. و لا شك ان هـذين الاسـمين يعنيان، على ما يقول ديغورى فى كتابه المار ذكره الصـنمين «اللّه تعالى» و «اللات» الـذى كان يوجـد فى الطائف. ثم يقول هيرودوتس كـذلك ان العرب كانوا يتعاقـدون و يتعاهدون لدى هذين الصـنمين فيعتبر تعاقدهم نافذا نفوذا مضاعفا حينما كان يؤخذ الى مكة.

لودفيكو فارتيما الايطالى

و أول من زار مكـة من الأوربيين الحـديثين و كتب عن رحلته فوصـلت كتابته إلينا سالمـة واضـحة رجل ايطالى مغامر يدعى لودفيكو فارتيمـا، من أهـالى بولونيـة فى ايطاليـة على ما يقول ديغورى، و يسـمى نبيل روما فى المزاجع الاخرى. و يقول لودفيكو فى رحلته أنه يرد على من يسأله عن السـبب الذى دفعه الى القيام بها ان السـبب ينطوى فى الرغبة الملحة فى السعى وراء المعرفة و مشاهدة العالم، و ما فيه من معجزات اللّه عز و جل.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۵۲

و قد أبحر من البندقية فى ۱۵۰۳، و وصل الى الاسـكندرية، و بعد ان زار حصن بابيلون فى مصـر على ما يقول توجه لزيارة طرابلس و انطاكية و بيروت و دمشق. و هناك ارتبط بصداقة مع ضابط من ضـباط المماليك، فقرر الذهاب الى مكة معه فى ضـمن موكب الحج السـنوى الـذى يخرج من دمشق بكثير من المراسـيم و التقاليـد. و قـد تحرك الى مكة فى اليوم الثامن من نيسان بزى جندى من جنود المماليك، و هو يقدر ان قافلة الحج كانت تتألف من أربعين ألف رجل و خمسة و أربعين ألف حيوان. و مما يرويه عن وقائع الطريق ان القافلـة اضـطرت فى يوم من الأيـام الى الاصـطدام بحشـد كـبير من أعراب الباديـة، لكن الستين من جنود المماليـك الـذين كـانوا موكلين بحراسة القافلة كانوا أكثر من ند للخمسـين ألف (كذا) بدوى على ما يقول لودفيكو. و قد هوجمت القافلة فى يوم آخر بحشد من البدو يقدر بأربع و عشرين ألف شخص (كذا)، لكنها تغلبت عليهم بعد ان تمكنت من قتل ألف و خمس مئة منهم! و يعود السبب

فی ذلک کله علی ما یقول الی شجاعة الجنود المماليک و قوة بأسهم، و الی کون الاعراب کان قسم کبیر منهم غیر مسلحین و عراة أیضا. و تقول شارحة رحلة بارتیما أو فارتیما (المنشورة مع رحلة بورتون الانکلیزی) المسز الیزابیل بورتون بهذه المناسبة ان بدو الحجاز فی ایامها (۱۸۷۳) أصبحوا أشد خطرا و أقوی شکیمة لأنهم صاروا یستعملون (البوارید) و البنادق، و ان الطریقة الوحیدة لتجریدهم من قوتهم و دفع خطرهم هی منع استیراد الأسلحة النارية و مادة الرصاص لهم.

و بعد أن أدی فارتیما مناسک الحج کلها فی المدینة و مکة علی ما یقول استطاع بتدبیر خبیث ان یهرب من القافلة و زملائه الحراس علیها الی جدة، و من هناک أبحر عن طریق البحر الأحمر الی ایران. و یذکر فی وصف هزیمته انه اختبأ فی بیت أحد المسلمین فی مکة الی حین خروج موکب الحج الشامی منها، لکنه یذکر انه کان من حسن حظه ان احبته إحدی قریبات

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۵۳

صاحب البیت فساعدته علی التخفی و الهرب.

و هو یذکر فی الفصل الذی یتطرق فیه الی تشیید مکة و انشائها انها مدینة جمیلة تکتظ بالسکان، لأنها تحتوی علی ستة آلاف أسرة. و دورها حسنة للغایة، مثل دور الایطالیین علی حد تعبیره، و هناک بعض الدور تقدر قیمة الواحدة منها بثلاثة أو أربعة آلاف دوکات. و یذکر کذلک ان مکة لم تکن مسوّرة لأن أسوارها هی الجبال الطبیعیة التی تحیط بها، و لها أربعة مداخل. و حینما وصل الحج الشامی کان الموکب المصری قد وصل الی مکة، و لذلک یذکر فارتیما بالمناسبة ان هذا الموکب کان فیه حوالی أربعة و ستین ألف جمل، و له مئة مملوک للحراسة. و یقول بطریقته التهکمیة، التی تدل علی تعصبه ضد الاسلام، ان اللّه سبحانه و تعالی أنزل لعنته علی هذه المدینة فجعلها جرداء قاحلة لا تنتج أی شیء من العشب و الأشجار، و لا أی شیء آخر. و انما کانت تستورد معظم اطعمتها و حاجیاتها من القاهرة عن طریق البحر الأحمر. و قد اندهش فارتیما من کثرة الحجاج الهائلة و تعدد جنسیاتهم و قومیاتهم، بحیث یقول أنه لم یجد مطلقا من قبل مثل هذا العدد من الناس یجتمع فی بقعة واحدة من الأرض.

و فی الفصل المخصص للحج و الغفران من رحلته یقول ان مرکز مکة یوجد فیه معبد جمیل جدا علی حد تعبیره، یشبه الکولوسیوم الموجود فی روما، لکنه مبنی من اللبن المشوی. و للمسجد الحرام، أو المعبد کما یسمیه، مئة باب ذات طوق. ثم یشیر الی وجود الکعبة فی الوسط دون ان یذکر اسمها، و یقول ان المغفرة من اللّه تطلب عند الطواف حولها. و للکعبة التی یسمیها برجا، باب فضة لا تزید فی علوها علی قامة واحدة. ثم یصف بئر زمزم و یقول ان لها قبة جمیلة، و ان عمقها یبلغ سبعین قامة، و ان ستة او سبعة رجال یقفون عادة حول البئر لیستقوا الماء للناس منها. و هؤلاء یریقون ثلاثة أسطل من ماء زمزم فوق کل حاج من الحجاج، فیتبلل به من قمة الرأس الی أخمص القدم و لو کان لباسه من حریر.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۵۴

مملوک برتغالی مجهول الاسم

و فی تموز ۱۵۶۵ حج الی مکة المکرمة مملوک ۱ برتغالی الأصل مجهول الاسم فکتب وصفا دقیقا عنها برغم اختصاره و اقتضاب ما جاء فیه و قد اکتشف ما کتبه هذا المملوک فی السنوات الأخیرة السنیور دیلافیدا مکتوبا فی حاشیة کتاب عربی موجود فی مکتبة الفاتیکان برقم ۲۱۷. و کان هذا البرتغالی قد تحرک من رایغ الی مکة فی آخر یوم من حزیران، و هو یقول ان الناس یذهبون عراة الی مکة من هناک مشیرا الی الأحرام بطبیعة الحال.

و فی حوالی الوقت نفسه حج الی مکة کذلک رجل ۱ المانی یسمی هانس وایلد، کان قد أخذه الأتراک اسیرا فی هنغاریا یومذاک، و سیق الی مکة فلم یعد الی المانیا الا فی سنة ۱۶۱۱. و بعده بسنوات قلیلة أسر فتی بندقی، یدعی ماورکو دی لومباردو، و هو یعبر

الأبيض المتوسط بصحبة عمه القبطان فبعث به الى مكة من مصر مصاحبا لابن سيده. و قد دوّن أشياء طريفة عن سفرته التى نشرها بعد ذلك بسنين عديدة المبشر يوجين روجر.

جوزيف بيتس الانكليزى

و قد حج الى مكة فى أواخر القرن السابع عشر شاب انكليزى يافع من أهالى أوكسفورد يدعى جوزيف بيتس. و كان هذا الشاب و هو فى السادسة عشرة من عمره قد دفعه طموحه سنة ۱۶۷۸ الى التطويح فى الآفاق و زيارة البلاد، ان ينخرط فى سلك البحرية، فأدى به ذلك الى ان يقع أسيرا فى أيدى القرصان الجزائريين. و بعد ان عاش حوالى خمس عشرة سنة فى الأسر و العبودية أخذه صاحبه الى مكة المكرمة و المدينة عن طريق الاسكندرية

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۵۵

و القاهرة و السويس. و يعتقد الرحالة بورتون، الذى نشر مذكرات بيتس هذا مع رحلته، ان وصف بيتس للأماكن التى زارها هو وصف دقيق مضبوط فى الأعم الأغلب، و مع ان كتابته تتصف بالتعصب الأعمى فانها خالية من الخرافات او الأشياء التى لا تصدق.

و نظرا لأن بيتس كان يجيد التكلم بالعربية و التركية فقد اتقن التعاليم الاسلامية اكثر من غيره. و كان صاحبه، النقيب فى خيالة الجيش الجزائرى، رجلا مسرفا منغمسا فى الدعارة و الفجور على ما يقول بيتس، فصمم على ان يكون سببا فى اعتناق مملوكه الانكليزى الديانة الاسلامية تكفيرا عن آثامه و خطاياه. فاستعمل الضرب و الشدة معه حتى نطق بالشهادة، لكنه بقى خلال وقته كله الذى قضاه فى بلاد الاسلام و المسلمين يعبر عن سخطه و دخيلة نفسه المجبولة على المسيحية فى شتى الظروف و المناسبات.

و حينما أخذه سيده الجزائرى الى مكة أعتقه و أخلى سبيله، لكنه بقى يعيش معه و يخدمه لقاء أجور حتى عاد الى الجزائر، و عند ذاك أخذ يفكر فى الهرب و العودة الى بلاده الاصلية. فاستطاع التسلل الى سفينة من السفن المتوجهة الى استانبول، بعد ان أخذ معه كتاب توصية من المستر بيكر القنصل الانكليزى فى الجزائر يومذاك الى قنصل انكلترا فى أزمير المستر رى.

و مع ان الحنين الى الجزائر قد عاوده فى أزمير و صار يفكر فى العودة و استئناف الحياة فيها كرجل مسلم، فقد استقل باخرة فرنسية متوجهة الى ليغهورن فى ايطالية، بعد أن دفع ثمن التذكرة عنه تاجر انكليزى كان يقيم فى أزمير يدعى المستر أيليوت. و مما يدل على مقدار تعصب بيتس للمسيحية و احتفاظه بعقيدته فيها، رغم جميع ما أصابه من تقلبات، أنه ما كادت رجله تطأ الأرض فى ليغهورن حتى خر ساجدا عليها و قبلها عدة مرات، و هو يشكر اللّه على عودته الى ديار النصرانية بعد هذه الغيبة الطويلة عنها. ثم عاد الى موطنه فى انكلترة بعد ذلك.

هذا و قد كتب جوزيف بيتس مذكرات تفصيلية عن سفرته الى مكة،

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۵۶

وصف فيها البلدة و أماكنها، كما وصف المسجد الحرام و الكعبة و مناسك الحج كلها. و ليس من الممكن بطبيعة الحال ان نورد هنا جميع ما كتب عن ذلك، و انما سنورد نماذج منتخبة مما كتب. فهو يقول عن أول وصوله الى مكة:

.. و حالما وصلنا الى مكة المكرمة سار بنا الدليل فى الشارع الكبير الذى يقع فى وسطها، و يؤدى الى المسجد الحرام (يسميه المعبد،) و بعد أن أنخنا ذلولنا كان أول ما أخذنا الدليل اليه البركة لنقوم بعملية الوضوء، و عند ذلك جاء بنا الى الحرم الشريف فخلعنا أحذيتنا و تركناها عند الكيشوان، ثم دخلنا من باب السلام. و بعد ان سرنا خطوات معدودة وقف بنا الدليل و رفع يده للدعاء و أخذ يرتل بعض الجمل الدينية، فقلده الحجاج و كرروا ما كان يقوله. و ما أن وقع نظر الحجاج على بيت اللّه الحرام (يقصد الكعبة) فى الداخل حتى انهمرت الدموع من أعينهم بغزارة، و قادنا الدليل اليه فى الوقت الذى كنا ما نزال نكرر ما يقول من الأدعية و الجمل الدينية. و

قد أعقبنا ذلك بالطواف سبع مرات من حوله، و بالصلاة ركعتين من بعد ذلك. و بعد الانتهاء من كل هذا أخذنا الدليل الى الشارع من جديد حيث كان علينا ان نهرول أو نركض من مكان فى الشارع الى آخر (بين الصفا و المروة) فنقطع مسافة لا تزيد على رمية سهم. و أنى اعترف بأننى لم يكن بوسعى سوى ان أعجب بهؤلاء المساكين الذين يخلصون الى آخر حد فى تأدية مثل هذه «الخرافات»، و أقدر شعورهم حينما ألاحظ مقدار ما ينتابهم من الرهبة و الارتعاش. و الحق أننى لم أتمالك نفسى من البكاء و ارسال الدموع حينما رأيت حماستهم المتناهية فى العقيدة، برغم ما فيها من وثنية (كذا)، و مع كونهم يؤدونها على العميا.

و يصف بيتس مكة فيقول أنها بلدة تقع فى واد غير ذى زرع، أو فى وسط عدة جبال صغيرة. و هى غير عصيمة، لأنها ليس لها أسوار و لا أبواب. اما سكانها فهم فقراء ميالون الى النحافة و الهزال، و سمر فى لونهم.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۵۷

على ان البلدة محاطة لعدة أميال بآلاف عدة من التلال و الجبال الصغيرة التى تتقارب بعضها الى بعض جد التقارب. و كلها احجار صخرية ميالة الى السواد فى لونها ... و هناك فوق قمة أحدها غار مشهور يسمى غار حراء، كان النبى محمد يعتزل فيه فيستغرق فى عبادته و تأملاته و صومه. و قد ذهبت اليه فلم أجد ان يد التجميل قد مسته مطلقا، فأعجبت جد الاعجاب بذلك.

و يقول بيتس كذلك ان مكة كان فيها ماء كثير، لكنها خالية من العشب و الزرع الا فى بعض الأماكن. على أنه وجد فيها عدة أنواع من الفواكه ميسورة للناس مثل العنب و البطيخ و الرقى و الخيار و القرع و ما أشبه. و هذه يؤتى بها فى العادة من مكان يقع على مسيرة يومين او ثلاثة، يسمى «حباش» (؟) و لعله يقصد بذلك الطائف.

ثم يذكر خلال وصفه للحج و مناسكه ان سلطان مكة (اى الشريف) الذى ينحدر من نسل النبى محمد (ص) لا يعتقد بأن غيره قمين بتنظيف البيت و تطهيره، و لذلك يقوم هو شخصيا و الأثيرون عنده من رجاله بغسله بماء زمزم المقدس، ثم بالماء المطيب المعطر. و حينما يقومون بهذه العملية ترفع السلالم التى تؤدى الى بيت اللّه، و لذلك يحتشد الناس تحت الباب ليدفع ماء الغسيل عليهم حتى يتبللوا به من الرأس الى القدم. ثم تقطع المكانس التى يكنس بها البيت المقدس قطعا صغيرة و ترمى عليهم فيتلاقفونها، و من يفز بقطعة منها يحتفظ بها كأثر مقدس لديه (؟). و يتطرق بعد ذلك الى ذكر الكسوة و وصفها كالمعتاد . موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۵۸

القس جوزيف أوفينكتون

و قد كانت شركة الهند الشرقية فى أواخر القرن السابع عشر معنية بجمع المعلومات عن موانىء البحر الأحمر و أهميتها، فكلفت عددا من رجالها بذلك. و كان من جملتهم القس جوزيف أوفينكتون الذى كتب فى وصف جدة و أهميتها، فنشر الوصف فى كتابه المسمى «رحلة الى صوراة» .

و هو يقول ان الميناء الرئيسى فى البحر الأحمر يعود للسلطان ... و هو ميناء مكة. و ليست الأراضى المحيطة بهذين البلدين ذات فائدة مطلقا، كما انها غير قابلة للاصلاح و التحسين بحيث يبدو أنها قد أصيبت بلعنة من الطبيعة فحرمت من نعم اللّه تعالى بندرة وجود الأشياء كلها فيها، ما لم تستورد لها من الخارج. و لذلك يتكبد السلطان مبالغ طائلة لتقويم أودها، و تجهيزها من مصر بصورة مستمرة، فتصل إليها حوالى عشرين الى خمس و عشرين سفينة كبيرة كل سنة، محملة بالذخائر و المؤن و الأموال. و ما أشبه.

و تزدهر جدة بمواصلاتها الدائمة مع الهند و ايران و الحبشة، و أجزاء الجزيرة العربية الأخرى. فيأتى العرب اليها ببنهم (قهوتهم) ليشتريه الأتراك و يحملوه الى السويس. و يأتى اليها على الشاكلة نفسها الحجاج فى كل سنة من أنحاء العالم الاسلامى جميعه.

ويليام دانيال و شارل جاك بوسيه

و فى عهد الشريف سعيد (۱۷۰۰) وصل إلى جدة رجل انكليزى يدعى ويليام دانيال و آخر فرنسى يدعى شارل جاك بوسيه، فخلفا وصفا واضحا عما شاهداه. فقد كان دانيال شاهد عيان للخصام الذى حصل بين الشريف الأكبر سعيد و الباشا الذى كان يمثل السلطان فى الحجاز. و هو يقول موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۵۹

ان الشريف أهان الباشا لأنه جاء الى جدة شخصيا و فى معيته ألفان من الخيالة، و طلب الباشا الى حضرته فطالبه بتسليم مئة ألف جفوين. و لم يكتف بذلك فقط و إنما تجاوز على السلطان كذلك بقوله انه ابن مسيحية عاهر، و أنه لا يعترف به حاميا للإسلام و المسلمين لأنه تصالح مع الدول النصرانية. و لذلك اضطر الباشا الى ان يرسل المبلغ المطلوب للشريف فيسلم على حياته.

و قد وصل الفرنسى المسيو شارل بوسيه الى جدة فى اليوم الخامس من كانون الأول، أى بعد الحادث المار ذكره بأيام قليلة. على انه يصف زيارة الشريف الذى كان ما زال مخيما خارج أسوار المدينة. فهو يقول ان الشريف كان رجلا فى حوالى الستين من عمره، تبدو فى محضره المهابة و الجلال، و له شق صغير فى الجانب الأيمن من شفته السفلى. غير ان رعاياه و جيرانه لا يستصوبون لطفه و رأفته. و قد أجبر الباشا الذى يعيش فى جدة على ان يسلم له ألف و خمس مئة ريال ذهب انكليزى، بعد ان هدده بالقتل إذا لم يذعن لطلبه. ثم يصف المسيو بوسيه كيف كان الشريف يأخذ ضرائب من الأتراك كذلك، و يقول ان الشريف، و هو العنيف المتكبر، قد سحب خضوعه للسلطان الذى يسميه على سبيل التحقير «ابن مملوك».

الرحالة «على بك العباسى»

و قد حج الى مكة فى سنة ۱۸۰۷ (فى عهد الشريف غالب) رجل من يهود اسبانية يدعى دو منيكو باديا أى ليبليج. بعد ان تزيا بزى المسلمين و سمى نفسه على بك العباسى. و كان هذا اليهودى مكلفا بمهام خاصة من قبل الحكومة الفرنسية، فتجول كثيرا و كتب بالفرنسية تفصيلات مهمة عن الحجاز و مكة و غيرهما فى كتاب ضخم. و قد كتب عن الشريف موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۶۰

غالب يقول أنه كان انانيا غير متعلم، و ان الأنكليز كانوا يعتبرونه أحسن صديق لهم، و لذلك كانوا يشجعون التجارة مع الهند بواسطته. كما يقول ان الشريف كان يبعث بسفنه لتتاجر مع مخا و مسقط و صوراة، و أنه كان يدعى بعائدية مصوع و جزيرة سواكن له، مع انهما كانا يخضعان للسلطان بصورة أسمية.

و من طريف ما يذكره «على بك العباسى» هذا، الذى اصبح كتابه.

مرجعا مهما للغربيين عن مكة، وصفه لجماعة من البدو الوهابيين الذين جاءوا الى الحج فى مكة سنة ۱۸۰۷ بصفته شاهد عيان. فهو يقول .. و سرعان ما دخل البلدة جمهور من الرجال العراة، الذين لم يكونوا يلبسون شيئا الا الأسمال التى كانت تستر عوراتهم. و كان عدد قليل منهم يضعون بالاضافة الى ذلك شيئا فوق أكتافهم، كما كان قسم آخر منهم عراة بالكلية، لكن الجميع كانوا مسلحين اما بالبنادق او بالخناجر. و حالما وقعت أعين المكيين على هذا السيل من العراة المسلحين هرعوا الى البيوت كلهم و اختفوا عن الأنظار. و كان البعض من هؤلاء يركبون الخيول، مع عريهم و تسلحهم بالرماح، و يرتلون أدعيتهم و جملهم الدينية بصوت مرتفع كل بالطريقة التى يختارها، و من دون خشوع او انتظام. و قد تولى أطفال مكة، و هم الأدلاء على الدوام، أرشادهم و الطواف بهم لأن الكبار قد تلاشوا عن الأنظار. و لذلك أخذوا يمرون فى داخل البيت الحرام و يقبلون الحجر الأسود و كأنهم مجموعة محتشدة من الزنابير. و يقول «على بك» بالاضافة الى ذلك ان الشريف غالبا كان خلال ذلك يشاهد الوهابيين من قصره القائم فوق السفح بعد ان أوعز الى

جنده من العبيد و الاتراك بان لا يغادروا مقراتهم بينما كان هذا المد القادم من البادية يكتسح داخلية مكة، و ينحسر عنها دون وقوع حادث يذكر .

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۶۱

جيوفانى فيناتى

و جيوفانى هذا رجل مغامر من أهالى فيرارا فى ايطاليا، و قد قدر له بعد تطويحات و مغامرات عدة ان يحج الى مكة المكرمة فى ۱۸۱۴، باعتباره رجلا مسلما اسمه محمد. فقد سيق الى الجندية فى بلدته سنة ۱۸۰۵، ففر منها و قبض عليه ثم سيق اليها مرة ثانية. و هناك اتفق مع جنود آخرين و فر الى ألبانيا فاشتغل عند أحد الباشوات الأتراك فيها، و اعتنق الاسلام فتوجه الى استانبول. و بعد مغامرات و تقلبات عدة وصل الى القاهرة فى ۱۸۰۹ و انخرط فى سلك الحرس الألبانى و أصبح عريفا فى حرس الخديوى محمد على باشا الخاص. و اشترك بعد ذلك فى حملة سيقت الى مصر العليا للقضاء على المماليك و ثورتهم فيها. ثم رابطت قوته فى المطرية استعدادا لسوقها بقيادة طوسون باشا بن محمد على لتأديب الوهابيين الذين احتلوا الحجاز، فأبحرت القوة فى ۱۸۱۱ و استطاعت الأنزال فى ينبع و استولت عليها بعد معركة اشترك فيها جيوفانى أو «محمد» اشتراكا فعليا. و بالنظر لأصابته بالروماتيزم الحاد عاد الى القاهرة، و بعد ان بقى فيها مدة من الزمن سمع بانتصارات محمد على باشا على الوهابيين فى الحجاز، فقرر الالتحاق بالقوة الألبانية المنجدة التى توجهت الى هناك فى ۱۸۱۴.

و هناك اشترك فيناتى فى محاصرة القنفذة و الاستيلاء عليها. و كان موجودا فيها حينما استردها الوهابيون بفظاظة، فجرح و تمرض و لذلك قرر الفرار من الجندية و التوجه الى مكة نفسها. فحج فيها و كتب عما شاهده خلال ذلك بتفصيل غير يسير. فهو يقول:

... و لما كنت مسرورا لنجاحى فى الفرار كنت فى وضع فكرى يتقبل شيئا غير يسير من الانطباعات القوية، و لذلك تحسست كثيرا بجميع ما رأيت عندما دخلت البلدة (يقصد مكة). لأنها و ان تكن ليست واسعة و لا جميلة بحد ذاتها، فقد كان فيها شىء يبعث الرهبة و الاندهاش فى

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۶۲

النفس. و كان ذلك يلاحظ على الأخص عند الظهيرة حينما يهدأ كل شىء تمام الهدوء، الا المؤذن الذى يدعو الناس الى الصلاة من فوق المأذنة ...

و ابرز ما يلاحظ فى هذه البلدة البناء المقدس المشهور الذى يقع فى وسطها، فهو فناء مبلط واسع له أبواب كثيرة تؤدى اليه من جميع الجهات، مع ممر واسع يحمل سقفه أعمدة تحيط بالبناء كله، بينما يقوم فى وسطه بناء يدعى الكعبة، و تغطى جدران هذا البناء من الخارج بكسوة من المخمل الثمين الذى تطرز فوقه كتابات عربية بالذهب.

ثم يعلق على ازدحام الناس فى مكة و كثرة الحجاج فيها فيقول: ..

و مع هذا التجمع الهائل الذى كان ينقطع بين حين و آخر فى السنوات الأخيرة فقد وصلت الى مكة منذ ان اتت اليها قافلتان كبيرتان، إحداهما من آسية و أخرى من افريقية، يبلغ عدد القادمين فيهما حوالى اربعين ألف شخص كان يبدو عليهم كلهم مقدار ما يكنونه فى نفوسهم من الاحترام و التقديس للبيت الحرام .. و هنا يعلق الرحالة بورتون، الذى نشر ما كتبه فيناتى فى آخر رحلته، على هذا بقوله ان «على بك» يقدر عدد الحجاج الذين وقفوا فى عرفات سنة ۱۸۰۷ بثمانين ألف رجل و ألفى امرأة و ألف طفل، و ان الرحالة بورخارت قدرهم فى ۱۸۱۴ أيضا بسبعين ألف. ثم يقول بورتون انهم لم يتجاوزوا الخمسين ألف نسمة حينما زار مكة سنة ۱۸۵۳.

و يقول فيناتى بالنسبة لمناسك الحج فى عرفات ان الحجاج حينما يذهبون اليها لا بد من ان يضحوا و لو بذبح خروف فيها، و ان هذا

يفعله الغنى و الفقير على سواء و يساعد فيه الغنى الفقير عند الحاجة. و كان مثل هذا العدد الهائل من الضحايا يملأ الأماكن المكشوفة كلها، فيتقاطروا الفقراء من جميع أنحاء البلاد ليأخذوا حصتهم منها .. و بعد ان تتم مناسك الحج كلها كانت تسجل الاسماء عند كاتب خاص يعين لهذه المهمة، و عند ذاك ينفض الحجاج و يعودون الى اماكنهم. و يعلق بورتون على هذا القول أيضا بقوله ان هذه العادة لم يعد يعمل بها، و أن شهادة كان يعطيها الشريف من قبل الى جميع

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۶۳

من يستطيع دفع المال المطلوب عنها و من يحتاج الى البرهنة على ذهابه الى حج البيت الحرام، لكن هذه أيضا لم يعد لها وجود.

جون لويس بورخارت

يعد الرحالة السويسرى بورخارت من أشهر رحالى القرن التاسع عشر، و أبعدهم صيتا و شهرة. فقد تجول فى بلاد النوبة و ما جاورها من البلاد الأفريقية، و تجول فى مصر و سورية، و فى الحجاز و ما جاورها كذلك. ثم كتب كتبا قيمة عن رحلاته هذه كلها، و من جملتها «رحلاته الى بلاد الجزيرة العربية » الذى يأتى فيه على وصف مكة المكرمة فى تلك الأيام من جميع النواحى، و المدينة المنورة كذلك. و يتألف المجلد من جزأين يحتوى الأول منهما على مشاهدات بورخارت فى جدة و الطائف و مكة، و على وصف محلات مكة بالتفصيل و بيت اللّه الحرام و الكعبة و سائر الأماكن المقدسة، فضلا عن سكان مكة و حكومتها و احوالها الجوية. و يحتوى الجزء الثانى على وصفه للحج و مناسكه بالتفصيل، و على مشاهدته فى سفرته الى المدينة المنورة و أماكن الزيارة فيها و حكومتها و أحوالها الجوية، و على ما شاهده فى ينبع و فى سفرته منها الى القاهرة.

و كان المستر بورخارت قد أسلم على ما يزعم عند قدومه الى مصر فى عهد الخديوى محمد على باشا، و سمى نفسه الشيخ ابراهيم. و يقول ناشر كتبه الأنكليزى، ويليام أوسلى، فى كانون الثانى ۱۸۲۹، ان معرفة بورخارت للعربية و اطلاعه التام على أحوال المسلمين و عاداتهم قد ساعداه على تقمص دور الرجل المسلم بنجاح حتى استطاع ان يعيش فى مكة خلال موسم موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۶۴

الحج كله و يشترك فى مناسكه و شعائره من دون ان يثير أدنى شك بشخصيته المنتحلة. و كان بورخارت نفسه يقول انه من بقايا المماليك الذين قضى عليهم محمد على باشا فى مصر، حينما كان يسأل عن هويته. و قد تعرف خلال زيارته لمصر على عاهلها يومذاك محمد على، و لذلك اغتنم فرصة توجهه الى الحجاز لادارة الحملة التى جردتها الدولة العثمانية بقيادته لاسترداد البلاد المقدسة من الوهابيين، و ذهب لزيارتها و إداء «فريضة» الحج سنة ۱۸۱۴. و كان محمد على باشا قد وصل الى الحجاز فى ربيع ۱۸۱۳ و أقام فى الطائف للأشراف على مهمته و القضاء على الوهابيين فى عقر دارهم كذلك.

و قد نزل بورخارت فى جدة يوم ۱۸ تموز ۱۸۱۴، و سار منها الى الى الطائف لمقابلة محمد على، ثم قصد مكة المكرمة لأداء فريضة الحج على ما يدعى. و يستبان مما دونه ان محمد على باشا كان يشك فى أسلامه، و مع هذا فقد سمح له بالتوجه الى الحج فى مكة. و هو يأخذ بوصف الحج و شعائره قبل وصوله الى مكة، و يبدأ بذكر ما يختص بالاحرام بطبيعة الحال. فيذكر بهذه المناسبة ان المؤرخين العرب يروون عن هارون الرشيد و زوجته زبيدة انهما قصدا الحج فى سنة من السنين مشيا على الأقدام من بغداد الى مكة، و لم يكن يستر جسمهما غير لباس الأحرام على طول الطريق و فى كل مرحلة من مراحل الطريق كان يوجد بخدمتهما قصر مؤثث تأثيثا فاخرا، و ان الطريق كله كان يغطى بالسجاد يوميا ليسيرا فيه!!

و يأتى بعد ذلك على ذكر التوجه الى المسجد الحرام و الطواف و السعى بين الصفا و المروة، و زيارة العمرة، ثم العودة الى مكة. على ان بوخارت يذكر كذلك ان الكعبة كانت مكانا مقدسا فى أيام الجاهلية أيضا، و ان الناس كانوا يطوفون حولها بنفس النمط

الذى يطوفون فيه حولها اليوم تقريبا، لكن المبنى المقدس كانت تزينه يومذاك ثلاث مئة و ستون صنما و كان على الرجال و النساء ان يظهروا امامها عراة كما خلهم ربهم ليستطعوا التجرد عن الخطايا و الذنوب و التخلص منها مع الملابس التى يتجردون عنها.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۶۵

وصف بورخارت لمكة

اشارة

و الملاحظ مما كتبه رحالتنا هذا أن إقامته فى مكة كانت مريحة جدا، فهو يقول انه لم يتمتع خلال سفراته فى البلاد الشرقية كلها بمثل ما تمتع به فى مكة من الراحة، و انه سيظل يتذكر اقامته فيها الى الأبد برغم انحراف المزاج الذى ألم به فلم يسمح له بالتمتع بجميع ما سمحت له الأحوال التمتع به.

و بعد ان يشير الى التقديس و التبجيل الذى يكنه العرب جميعا لها، و الى الأسماء التى تطلق عليها مثل «أم القرى» و «المشرفة» و «البلد الأمين»، يأخذ بوصفها من جميع النواحى فيقول ان البلدة نفسها تشغل فضاء يبلغ طوله حوالى ألف و خمس مئة خطوة، اى من محلة الشبيكة الى نهاية المعلا.

لكن جميع ما يطلق عليه اسم مكة بالمعنى الأوسع يمتد من ضاحية جرول (المدخل من طريق جدة) الى ضاحية المعبدة على طريق الطائف، و يبلغ هذا حوالى ثلاثة ألاف و خمس مئة خطوة. اما الجبال التى تحيط بهذا الوادى.

الذى كان يسميه العرب وادى مكة أوبكة، فيبلغ ارتفاعها ما بين مئتين و خمس مئة قدم، و هى جرداء خالية من الزرع و الشجر. و ينحدر الوادى برفق نحو الجنوب، حيث تقع محلة المسفلة. و لذلك يتبدد المطر الذى يسقط أحيانا على مكة فى جنوب مسفلة، فى الوادى المكشوف الذى يسمى وادى الطرفين.

و تقع معظم البلدة فى ضمن الوادى نفسه.

و يقول بورخارت ان مكة يمكن ان تعتبر بلدة جميلة، لان شوارعها أعرض من شوارع المدن الشرقية الأخرى بوجه عام، و بيوتها عالية مبنية بالحجر، فيها عدد من الشبابيك التى تطل على الشوارع فتسبغ عليها منظرا تملأه الحيوية بخلاف الدور فى مصر و سورية التى لا تطل على الطرق فى الغالب. و هى، مثل جدة، تحتوى على عدد من الدور ذات ثلاثة طوابق، و يقول كذلك ان مكة مفتوحة من جميع الجهات، لكن الجبال المحيطة بها تكوّن مانعا حصينا ضد العدو اذا ما دوفع عنها بطريقة أصولية. و قد

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۶۶

كان لها فى الزمن القديم ثلاثة أسوار تحمى جوانبها المتطرفة، و كان أحدها مشيدا عبر الوادى فى شارع المعلا، و كان الثانى مبنيا فى محلة شبكية، و الثالث فى الوادى الذى ينفتح على حارة المسفلة. و قد بنيت معظم بيوت مكة لتكون منازل للحجاج، عدا بيوت بعض الأغنياء و الشرفاء.

و يتطرق بورخارت الى ذكر الماء الذى يعتمد عليه سكان مكة فيقول أنه قليل، و ان قلته تكوّن مشكلة على الدوام. فان بئر زمزم المشهورة قد تفى بغزارة مائها جميع السكان، لكنها على قداستها يكون ماؤها ثقيلا على الذائقة صعبا فى الهضم. كما ان الفقراء لا يمكنهم الاستقاء منه بحرية على الدوام، على ان احسن ماء يؤتى به الى مكة من عرفات الواقعة على مسيرة سبع ساعات عنها، لكن الحكومة اهملت القناة التى تأتى بهذا الماء. فهى مشيدة بالحجر كلها، و لم ترمم او تتلف منذ خمسين سنة. و هناك مكانان احد شوارع مكة و بيوتها القديمة التى يرجع تاريخ بعض ابنيتها الى ما قبل القرن الخامس عشر الميلادى

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۶۷

فی داخلیة مکة یمکن أخذ هذا الماء منهما، و یقف علیهما فی العادة عبید الشریف لجبایة الأجور.

قناة زبیدة

و یذکر بورخارت ان تاریخ هذه القناة یسهب فیه المؤرخون العرب، و موجزه أن زبیدة زوجة الخلیفة هارون الرشید کانت قد أمرت بسحب میاه «عین النعمان» من منبعها فی جبل کرا الی مکة فی قناة خاصة، و صرفت مبالغ طائلة من مالها الخاص علی ذلک. ثم أمرت بعد هذا بسحب میاه عین عرف من سفح جبل شامخ الکائن فی شمال جبل کرا، و ربطها بمیاه عین النعمان بعد ان کانت تسقی سهل حنین. و ربطت فی الأخیر میاه أربعة ینابیع أخری بهذه القناة کذلک، و هی ینابیع البرود و الزعفران و میمون و عین مشاش. علی ان القناة قد أهملت بعد ذلک وسدت علی ما یبدو، لکنها أصلحت فی سنة ۶۴۳ ه بأمر من السلطان سعید خدابنده، ثم أصلحها بعض الاصلاح للمرة الثالثة الشریف حسن بن عجلان فی مدة حکمه سنة ۸۱۱، و قد صرف مبالغ طائلة علیها بعد ذلک أیضا السلطان قاتیبای فی مصر سنة ۸۷۹، ثم أسهم فی اصلاحها سنة ۹۱۶ قانصوه الغوری من آخر سلاطین مصر المماليک الجراکسة. و فی سنة ۹۳۱ حاول السلطان سلیمان القانونی ان یعید إنشاء القناة من جدید لکن التصمیم المطلوب لم یتم وضعه، حتی توفق بعد ذلک ابنه السلطان سلیم الثانی فی شق قناة جدیدة بعد کثیر من الأتعاب و النفقات، و هی القناة التی شاهدها بورخارت تأتی بالماء الغزیر الی مکة المکرمة. فقد حفر للمجری الجدید خلال الصخر الذی سیمتد وراء جبل عرفات، و نجح بذلک فی تزوید مکة بماء عذب غزیر سنة ۹۷۹.

و یستغرق طول القناة کلها مسیرة سبع أو ثمانی ساعات. و مع هذا فقد شاهد رحالتنا بورخارت الشحاذین و المرضی و الحجاج المنقطعین یستطعون شربة ماء عذب فی شوارع مکة نفسها لان ملء الجرة الواحدة کان یکلف بارتین خلال موسم الحج علی کل حال.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۶۸

حواری مکة او محلاتها

و من امتع ما یکتبه بورخارت عن مکة وصفه المسهب لمحلاتها المختلفة بعد ان شاهدها بنفسه و دقق أحوالها. فهو یقول ان القادم من جدة الی مکة المکرمة یجد فی مدخلها برجین عالیین للحرس، کان قد أنشأهما الشریف غالب للدفاع عن عاصمته المقدسة. و بعد ان یدخل القادم من بینهما بمسافة غیر بعیدة یصادفه موظفو الشریف الذین یجبون الرسوم علی البضائع. ثم یدخل الی «حارة جرول»، التی یعیش فیها البدو المشتغلون فی تجارة النقل ما بین مکة وجدة. و تأتی بعد «حارة الباب» التی تتألف من شارع عریض متسع یقوم فی جانبیه عدد غیر یسیر من الدور الکبیرة الحسنة «حارة الشبیکة» التی تمتد الی الیمین فی الغالب. و یقول بورخارت ان هذه المحلة کان أصحاب النبی علیه السلام قد ضویقوا فیها حد المضایقة فی حروبهم مع قریش.

و هناک عدد غیر یسیر من الدور الجیدة فی هذه الحارة التی تعد من أنظف حارات مکة و أنقاها هواء، و یقطنها الکثیرون من أهالی جدة کما توجد فیها دار کبیرة للشریف غالب تسکن فیها أسرته. و ینتشر فی جانبی الشارع الرئیسی منها عدد من المقاهی التی یتحرک منها فی مساء کل یوم برید الرسائل و المکاتیب الی جدة علی ظهور الحمیر، و کانت السلطات تتقاضی بارتین عن المکتوب الواحد.

و فی الجهة الغربیة من الشبیکة تمتد نحو الجبل مقبرة واسعة تنتشر فیها أکواخ و خیام عدیدة تعود لبعض البدو، و بیوت حقیرة تسکنها النساء من الطبقة الدنیا. و تسمی الخندریس، علی انها علی ما یظهر أصبحت مقبرة مهجورة. و اذا ما سار القادم من الشبیکة علی طول الشارع العریض المذکور نحو الشمال یصادف حماما عاما یعد واحدا من الحمامات الثلاثة الجیدة فی مکة کلها. و کان هذا الحمام

قد بناه فی ۹۸۰ محمد باشا وزیر السلطان سلیمان الثانی، و یعد من أحسن الأبنیة فی مکة. و تتکون من هذا الحمام و عدد من الشوارع الفرعیة المؤدیة الی الحرم الشریف نفسه «محلة باب العمرة»

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۶۹

التی یسکنها عدد من المطوفین و الحجاج، و لا سیما الأتراک منهم. و یقول بورخارت ان معظم الحجاج یفضلون السکنی فی هذه الحارة و غیرها من الحارات القریبة الی بیت اللّه الحرام لئلا یؤدی ابتعادهم الی فوات وقت الصلاة علیهم فی داخل المسجد الحرام. و یضیف الی ذلک ما سمعه من ان قربهم هذا یسهل لهم التخلص من الأحلام المزعجة التی قد یحلمون بها فی نومهم. فکثیرا ما یری الحجاج و هم یرکضون فی منتصف اللیل نحو المسجد الحرام حیث یتوجهون الی الطواف حول الکعبة و تقبیل الحجر الاسود و إقامة الصلاة القصیرة، و یشربون قلیلا من ماء زمزم فیعودون الی فراشهم فی الحال.

و اذا ما سار السائر من محلة الشبیکة الی الجنوب، و انحدر قلیلا فی سیره یصادف ما یسمی بالسوق الصغیر الذی ینتهی بباب المسجد الحرام المسماة «باب ابراهیم». و قد وجد بورخارت فیما وجد فی هذا السوق ان الجراد کان یباع فیه بالوزن. و تسمی نهایة هذا السوق من جهة الجبل «حارة حجیلة»، و هذه یسکنها فی بیوت لا بأس بها خصیان الحرم الشریف و خدامه. و تعد اخفض منطقة فی مکة، و لذلک فهی کثیرا ما تتعرض الی السیول الناتجة عن میاه الأمطار. و تسمی المنطقة الکائنة فی شرق السوق الصغیر و جنوبیة «حارة المسفلة» التی یقطن القسم الأکبر منها الهنود و الفقراء من الناس برغم وجود عدد من البیوت الجدیدة فیها. و فی الأقسام الخربة من هذه المحلة یسکن کذلک عدد غیر یسیر من العبید الذین تقوم ازواجهم بصنع مشروب مسکر من الذرة یسمی «بوزة». و قد سکن بورخارت فی هذه المجلة علی ما یقول.

و هو یقول بالمناسبة ان القمة الغربیة من وادی الطرفین التی تقابل المسفلة کانت تقوم فوقها بنایة صغیرة و قبة شیدت لتخلید ذکری الخلیفة الراشد عمر بن الخطاب، فصارت تسمی «مقام سیدنا عمر»، لکن الوهابیین حینما استولوا علی مکة قبیل ان یستردها منهم محمد علی باشا هدموا هذه البنایة و القبة و خربوهما.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۷۰

و عند التوجه من الثکنة التی یرابط فیها جند الشریف نحو الحرم الشریف توجد فی الجهة الیمنی «حارة اجیاد» التی یسکنها فقراء الناس و عدد من خدام الحرم الشریف. و یقرل بورخارت ان اسم الحارة هذه مشتق من اسم المکان الذی ترابط فیه خیالة تبع ملک الیمن حینما هاجم مکة، و یستنتج من هذا بأن الحارة لا بد من ان تکون من أقدم حارات البلدة.

ثم یذکر حارة الصفا القریبة من شارع المسعی، و یقول ان هذه الحارة توجد فیها دور جمیلة یقیم فیها خلال موسم الحج عادة عدد غیر یسیر من الأغنیاء الأجانب. و ان المسعی حینما شاهده خلال مدة وجوده فی مکة کان یشبه السوق الاستانبولیة. فقد کان هناک عدد کبیر من الدکاکین یدیرها أناس أتراک من أوربة او آسیة الصغری، و کان هؤلاء یبیعون مختلف الألبسة الترکیة و أنواعها. و کانت تباع فی هذه الدکاکین کذلک السیوف الجمیلة و الساعات الانکلیزیة الممتازة، و نسخ القرآن المزخرفة. کما کان طباخو استانبول یبیعون فیها أنواع المأکولات و الحلویات قبل الظهر، و الکباب و غیره من اللحوم المشویة بعد الظهر، و المحلبیة عند الغروب. و قد کان هناک عدد کبیر من المقاهی التی کانت تزدحم بالناس من الساعة الثالثة صباحا الی الحادیة عشرة فی المساء. و مما یستغرب، علی ما یقول بورخارت، ان دکاکین من هذه الدکاکین کانت تباع فیهما المسکرات أو المشروبات الروحیة علنا خلال اللیل فقط!!. و کان أحد هذه المشروبات یستحضر من الزبیب المتخمر، و هو مشروب قوی برغم خلطه بکثیر من الماء عند تناوله. اما الآخر فقد کان عبارة عن نوع من «البوزه» المخلوطة بالبهارات.

و یذکر رحالتنا کذلک ان المسعی یعتبر محلا عاما تنفذ فیه العقوبات العلنیة، مثل احکام الاعدام. فقد أعدم أحد الناس بقطع رأسه فیه خلال

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۷۱

مدة وجود بورخارت فى مكة، بعد ان حكم عليه القاضى بذلك لأنه سرق مئتى باون انكليزى من أحد الحجاج الأتراك.

و فى المحل الذى ينتهى فيه السعى من جهة المروة لاحظ بورخارت وجود الدار التى كان يسكن فيها العباس عم النبى عليه السلام، كما لاحظ وجود دكاكين الحلاقين الذين يحلقون شعور الحجاج بعد انتهائهم من السعى.

و هنا أيضا تجرى المبايعات بكثير من الحاجات فى صباح كل يوم، و توجد على مقربة من هذا المكان بركة و سبيل للشرب بناه السلطان سليمان القانونى و استمد له الماء من قناة مكة المشهورة. و الى الشرق من المروة التى ينتهى فيها المسعى، توجد السويقة التى تمتد بموازاة الجانب الشرقى من الحرم المسمى القديم بين الصفا و المروة و قد جددته الحكومة السعودية اليوم و صيرت منه مسعى خاصا و على جانب كبير من الروعة كما مرت صورته الحديثة من قبل

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۷۲

الشريف. و هذه عبارة عن سوق صغيرة نظيفة على الدوام يعرض فيها تجار الهنود الأغنياء سلعهم الثمينة مثل الموسلين و الشال الكشميرى و ما أشبه.

و هناك أكثر من عشرين دكانا تباع فيها أنواع العطور و الدهون و الند و ما أشبه. و فى دكاكين غير هذه تباع فيها المسبحات و القلائد المرجان و الصندل و أنواع المصوغات، فضلا عن سلع الصينى الفرفورى.

و فى منتصف السويقة توجد مساطب حجرية يبيع من فوقها النخاسون العبيد الأحباش من الجنسين. و يبلغ سعر العبدة الجميلة من هؤلاء ما بين مئة و عشرة ريالات و مئة و عشرين. و يسمى الطرف الشرقى من السويقة «الشامية» التى تمتد من اليمين الى الجبل و من الشمال الحد حد الحرم الشريف.

و هذه منطقة جيدة البناء يسكنها التجار الأغنياء. و تباع فى دكاكينها السلع الشامية و الحلبية من منسوجات حريرية و غيرها، كما تباع السلع التركية فى احيان كثيرة.

و هناك حارة تقع فى شمال الشوارع المتفرعة من السويقة تسمى (كرارة) و هى محلة مشهورة ذات بيوت أنيقة يسكنها أغنى التجار و أكثرهم ثروة، من أمثال التاجر الجيلانى و السكات. و الى الشرق من كرارة عبر الحارة المجاورة المسماة «ركوب» يمتد شارع كبير يسمى شارع المودعة، و هو عبارة عن امتداد للمسعى.

و يتفرع بالقرب من الصفا شارع عريض يمتد الى الشرق فى موازاة المودعة، و يسمى الكشاشية. و يقيم فى هذا الشارع الحاكم أو مدير الشرطة الذى يأتى بعد الشريف فى المنزلة على ما يقول بورخارت، و يجاورها ما يسمى «شعب المولد» أو «صخرات المولد». ثم يأتى على ذكر عدد من الشوارع و الحارات الأخرى مثل الغزى و سوق الحدادين و المعلا. و يوجد فى الطرف الشمالى من المعلا، عند اتصاله بسوق الحدادين، مقهى يسمى «قهوة الحشاشين» حيث يباع المخدر المستحضر من «الحشيش» و البنج، الذى يدخن مع التبغ. و يقول بورخارت ان الشريف غالبا كان قد فرض ضريبة فاحشة على بيع الحشيش ليحول دون انتشاره بين الناس.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۷۳

و يذكر بورخارت كذلك «الزقاق الصينى»، و زقاق الحجر الذى يقول ان الزهراء البتول عليها السلام و أبا بكر الصديق قد ولدا فيه. و قد سمى الزقاق باسم الحجر الذى كان يحيى الرسول الأعظم كلما كان يمر به عند رجوعه من الكعبة على ما يقال. و تنتهى مكة من جهة المعلا و محل اتصاله بالغزى بسهل رملى تنتشر فيه بعض المقاهى المنعزلة. و يوجد على حافة هذا السهل عدد من البرك التى تتزود منها قوافل الحجاج بالماء، فهناك بركة للموكب المصرى و أخرى للشامى و كانتا قد بنيتا فى سنة ۸۲۱ ه. و على مقربة من هذه البرك يوجد جامع يسمى جامع السليمانية، و المقول ان «السليمانية» اسم يطلق على المسلمين الذين كانوا يردون الى مكة من قندهار و أفغانستان و كشمير و عدد آخر من البلاد الواقعة فى هذه الجهة من السند.

و فى مقابل السليمانية، فى السفح الشرقى من الجبل، تقع حارة «شعب عامر» فى جوار الغزى و شعب على. و يسكن شعب عامر الباعة المتجولون من بدو ثقيف و قبائل قريش، مع عدد من الشرفاء الفقراء. و توجد فى هذه المحلة بعض المطاحن الكبيرة العائدة للحاكم التركى، و هنا أيضا تصبغ الأقمشة القطنية و أقمشة الكتان. و لا تعد هذه الحارة من الحارات المحترمة على ما يقول بورخارت لأن عددا من النساء الساقطات يسكن فيها .

و يقول كذلك ان الشريف غالبا كان قد فرض ضريبة باهظة على هؤلاء النسوة، و شدد أكثر من ذلك على اللواتى كن يتبعن الحجاج الى عرفات.

و تفرض مثل هذه الضريبة فى القاهرة، و غيرها من المدن المصرية الكبرى كذلك. كما يقول أيضا ان شعراء العرب من مثل ابن الفارض يعرضون فى أشعارهم بشعب عامر هذا، و يملحون الى من يقيم فيه.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۷۴

و عند انتهاء المعلا، و على مسافة غير بعيدة من قصر الشريف الكائن فى شمال منطقة البرك، يوجد قبر أبى طالب والد الامام على عليه السلام و عم النبى الكريم صلوات اللّه عليه. و قد عمد الوهابيون الى تقويض البناء الذى كان قائما فوق القبر فأحالوه الى كومة من الأنقاض، و لم يجد محمد على باشا بعدهم من المناسب ان يعيد البناء الى سالف عهده. و يقول بورخارت ان الناس فى مكة يقدسون أبا طالب و يجلونه غاية الاجلال، و يخشون القسم كذبا به.

و يختم بورخارت بحثه عن حارات مكة بالاشارة الى عدد نفوسها، بعد ان يبحث فى صعوبة تقدير النفوس فى المدن و البلاد الشرقية عامة.

و هو يقدر نفوس مكة فى غير مواسم الحج، فى تلك الأيام، بخمسة و عشرين الى ثلاثين ألف نسمة، يضاف إليها حوالى ثلاثة الى أربعة آلاف عبد حبشى و غير حبشى. ثم يقول ان مكة كان بوسعها فى تلك الأيام ان تسكن ثلاثة أضعاف هذا العدد من الحجاج أيضا. و يشير كذلك الى ان إحصاء للنفوس كان قد جرى فى عهد السلطان سليم الأول (۹۲۳ ه) فوجد ان النساء و الرجال و الأطفال قد بلغ عددهم حوالى اثنى عشر ألف نسمة. و هو يرى ذلك عن المؤرخ قطب الدين، الذى يذكر أيضا ان نفوس مكة كانت أكثر من هذا بكثير فى القرون الخالية، لأن القرامطة حينما هاجموا مكة فى ۳۱۴ ه بلغ عدد من قتل بأيديهم من سكان المكة حوالى ثلاثين الف نسمة

بيت اللّه الحرام

و يصف بورخارت فى الجزء الأول من رحلته بيت اللّه الحرام بالتفصيل، فيأتى على كل شىء فيه بحيث يستغرق وصفه ما يزيد على خمسين صفحة .

و قد ذكرنا شيئا غير يسير عن معظم ما جاء فى هذا الفصل عند الاشارة

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۷۵

الى ما جاء فى دائرة المعارف الاسلامية عنه، و لذلك سنكتفى بالاشارة الى بعض النقاط المهمة الواردة فيه فقط. و من طريف ما يورده بورخارت فى هذا الفصل قائمة بأسماء الأبواب الموجودة فى المسجد الحرام تحتوى على تسعة و ثلاثين اسما حديثا تقابلها الأسماء القديمة لبعض الأبواب. لكنه يقول ان اهم الأبواب كانت: باب السلام الذى يجب ان يدخل منه كل حاج، و باب العباس، و باب النبى، و باب على، و هذه كلها من الجهة الشمالية. اما الجهة الشرقية فأهم أبوابها باب الزيت، و باب العشرة، و باب الصفا، و بابا الشريف، ثم باب ابراهيم و باب العمرة فى الجنوب، و باب الزيارة فى الجهة الغربية. و معظم هذه الأبواب لها عقود عالية مدببة.

و يستفاد مما جاء فى هذا الفصل كذلك ان محيط المسجد الحرام من الخارج كانت تزينه سبع منارات موزعة توزيعا غير متساو عليه،

و هى منارة باب العمرة، و منارة باب السلام، و منارة باب على، و باب الوداع، و مدرسة قائد بك، و باب الزيادة، و مدرسة السلطان سليمان. و يفهم كذلك ان أبرز شخص بين السدنة فى البيت الحرام و أولهم «نائب الحرم» او «حارس الحرم» الذى تحفظ عنده مفاتيح الكعبة المشرفة. و تودع عنده أيضا المبالغ التى يتبرع بها المحسنون الى البيت الحرام، فيوزعها بالاتفاق مع القاضى.

و يتم تحت اشرافه اجراء التعميرات و الترميمات بصورة مستمرة. و يقول بورخارت ان المصروفات التى كان يصرفها نائب الحرم على شؤون البيت المقدس، بالاتفاق مع الشريف و القاضى، كانت تبلغ حوالى ثلاث مئة كيس.

و يأتى بعد نائب الحرم «أغا الخصيان» الذى يطلق عليه اسم «أغاة الطواشين» على ما يقول بورخارت. و يقوم الخصيان او الطواشون بواجبات

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۷۶

الشرطة فى داخل الحرم الشريف، علاوة على قيامهم بغسل أرضية الكعبة و كنسها يوميا. و كان عدد الطواشين هؤلاء يزيد على الأربعين، و هؤلاء يقدمهم الأمراء و الولاة فى العادة مع بعض المبالغ هدية للحرم المقدس، كما فعل محمد على باشا حين قدم عشرة منهم. و يعتبر أغا الطواشين من شخصيات مكة على ما يلاحظ؛ بحيث يكون مخولا بالجلوس مع الشريف و الباشا و الحاكم. و يحصل الطواشون على مبالغ كبيرة من واردات المسجد الحرام و التبرعات الخاصة التى يقدمها الحجاج، علاوة على ما يصل اليهم من استانبول. و معظم هؤلاء من العبيد السود، و بعضهم من الهنود .

اماكن مقدسة اخرى

و يخصص بورخارت فى رحلته فصلا خاصا لذكر بعض الأماكن و البقع المقدسة التى يقول عنها ان الناس، خلال احتلال الوهابيين لمكة، لم يكونوا يجرؤون على زيارتها او التقدم منها، و ان جميع الأبنية او القبب المشادة عليها قد تم تهديمها.

و أول ما يذكر من هذه الأماكن «مولد النبى» أو الموقع الذى ولد فيه سيد الكائنات النبى الأعظم صلوات اللّه عليه. و هو يقول انه وجد العمال يعيدون بناء المبنى الذى كان مشيدا فوقه. و قد وجد حفرة صغيرة فى الوسط قيل له انها البقعة التى كانت ام النبى جالسة فيها حينما جاءها المخاض فولدته. و المقول ان المكان كله كان بيت عبد اللّه بن عبد المطلب والد النبى.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۷۷

ثم يذكر «مولد ستنا فاطمة» أو المكان الذى ولدت فيه الزهراء البتول سيدة نساء العالمين، و يوجد هذا «المولد» على ما يقول بورخارت فى بناية حسنة مبنية بالحجر يقال أنها كانت بيت أمها خديجة الكبرى، فى شارع صغير يسمى «زقاق الحجر». و يؤدى سلم صغير اليه عند الدخول لأنه تحت مستوى الشارع، و توجد فيه بقعتان محددتان إحداهما ولدت فيها فاطمة الزهراء عليها السلام و الثانية كانت تجلس فيها لتدير رحاها و تطحن الحب. و يقول: و فى جناح بالقرب من ذلك توجد حجرة صغيرة، كان يجلس فيها النبى عليه السلام حينما كان جبريل ينزل عليه بالوحى، و لذلك كانت تسمى «قبة الوحى».

و يذكر بعد ذلك «مولد الامام على» فى الحارة المسماة «شعب على» و يقول بورخارت ان هذا عبارة عن مسجد صغير توجد حفرة فى فنائه لتدل على البقعة التى ولد فيها الامام على بن ابى طالب عليه السلام.

و يشير بعد ذلك الى «مولد سيدنا أبى بكر» الذى يقول انه ضمن مسجد صغير يقع فى مقابل الحجر الذى كان يحيى النبى (ص) عند مروره به.

و يقول كذلك ان هذا المكان ليست فيه بقعة خاصة بالذات، لكن ساحته مغطاة بسجادة ايرانية. و يعلق بعد ذلك فيقول ان جميع هذه «الموالد» كانت قد أعيد بناؤها و ترميمها بعد اخراج الوهابيين من مكة فى تلك الأيام عدا «مولد النبى» الذى كان يجرى بناؤه مجددا. و تشارك فى سدانة هذه الأماكن المقدسة عدة أسر شريفة.

و قد ألفى بورخارت ان «مولد أبى طالب» فى محلة المعلا قد تم تهديمه عن آخره، و هو يتوقع ان لا يعاد بناؤه من بعد ذلك أيضا. كما وجد الوهابيين قد هدموا القبة التى كانت مشيدة على قبر «ستنا خديجة» و لم يعد بناؤه ايضا، مع ان الحجاج و سائر الناس كان من المعتاد ان يزوروه بانتظام، لا سيما فى ايام الجمع صباحا. و يقع هذا القبر فى المقبرة الكبيرة الموجودة فى محلة «المعلا» و هو محاط بجدار مربع ليس فيه ما يلفت النظر سوى حجر

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۷۸

حفرت عليه آية الكرسى بخط كوفى. و على مسافة غير بعيدة من هذا القبر كان هناك قبر آمنة والدة النبى (ص). و كان مغطى بحجر حفرت فيه بعض الآيات القرآنية بخط كوفى قديم. و مما يذكره عن هذه المقبرة أنه وجد فى نهاية كل قبر من قبورها تقريبا نباتا من نباتات (الصبر) قد زرع ليدل على الصبر الذى يجب ان يتحلى به الموتى قبل ان يبعثوا فى يوم المحشر.

و هناك أماكن كثيرة أخرى خارج مكة يأتى بورخارت على ذكرها و يشير الى قداستها. فيذكر أولا جبل أبى قبيس الذى يقول انه من أعلى الجبال المحيطة بمكة، و هو يسيطر عليها من جهة الشرق. و هناك قمتان فيه يزورهما الحجاج فى العادة، تسمى احداهما «مكان الحجر» و الأخرى تقع عبر واد ضيّق على مسافة قصيرة من مكان الحجر و تسمى «مكان شق القمر»، اى المكان الذى يقال ان معجزة شق القمر قد وقعت فيه بعد ان ابتهل النبى الأعظم للّه من أجلها لتؤمن به قريش. لكن بورخارت يقول، بعد ان يذكر تفصيلات المعجزة ان هذه لا تستند على رواية صحيحة أو حديث نبوى مسند. و يقول كذلك ان هذه القصص و غيرها مما يختص ببعض الأماكن يلفقها المكيون لا بتزاز المال من الحجاج. لكنه يذكر ان مكان شق القمر يخرج اليه أهل مكة عادة لرؤية الهلال فى الأوقات المطلوبة.

و يأتى بورخارت كذلك غلى ذكر «جبل النور» الذى يقع فى شمال مكة. فيصفه و يقول ان الصعود الى قمته يستغرق ثلاثة أرباع الساعة، و هناك يجد الصاعد قبة صغيرة هدمها الوهابيون يوجد فى ساحتها شق فى الأرض. و المقول ان النبى صعد الى هذا المكان يوما بعد ان ضايقته قريش، و قال له أتباعه المشككون ان اللّه سبحانه و تعالى قد تخلى عنه. فاختلى فيه و أخذ يناجى اللّه مبتهلا مستنجدا فنزل عليه جبرائيل بالآية الكريمة «أَ لَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ..»، و على مسافة قصيرة من اسفل هذا المكان يوجد «غار حراء» الذى نزلت فيه على النبى (ص) عدة سور قرآنية.

و بعد هذا يشير بورخارت الى «جبل ثور» الذى يقع على مسيرة ساعة

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۷۹

و نصف من جنوبى مكة، الى يسار الطريق المؤدى الى قرية الحسينية. و هو جبل شاهق توجد فوق قمته مغارة التجأ اليها النبى و أبو بكر قبل ان يهاجرا الى المدينة حينما أخذت قريش فى مكة تضيق الخناق، و تشدد فيه، على محمد (ص) و أتباعه.

الكعبة

تفتح الكعبة، على ما يذكر بورخارت، ثلاث مرات فى السنة فقط:

فى اليوم العشرين من رمضان، و اليوم الخامس عشر من ذى القعدة، و العاشر من محرم الحرام. و يتم ذلك عادة بعد طلوع الشمس بساعة واحدة، بنصب سلم فيما يقرب من الباب الكبير، و حالما يتم ذلك تتدفق عليه جموع المسلمين المحتشدة فى أسفله و سرعان ما تمتلىء بهم داخلية الكعبة نفسها. و يتحتم على الداخل ان يصلى ثمان ركعات، باعتبار ركعتين اثنتين فى كل ركن من أركانها، و ان يبتهل بقرب أحد الجدران فيرتل بعض الأدعية و الكلمات و هو يضغط بوجهه عليه. لكن ذلك يتم فى العادة بكثير من النحيب و ذرف الدموع، و ينطوى على شىء غير يسير من التوبة و الابتهال بغفران الذنوب.

و يقول بورخارت أنه لم يستطع البقاء هناك أكثر من خمس دقائق لأن حرارة المكان كانت مرتفعة بحيث لم يحتملها، و أوشك ان

يخر مغشيا عليه منها.

لكنه يقول ان الشريف يجلس عادة فى المدخل و مفتاح الفضة بيده، يعرضه على الحجاج للتقبيل و دفع الرسم المطلوب عند الخروج.

و يقدم الحجاج بعض المال الى الطواشى الذى يجلس بقرب الشريف كذلك.

و تبقى الكعبة مفتوحة الى الساعة الحادية عشرة تقريبا، ثم تفتح فى الثانى للنساء. و يعقب زيارة داخل الكعبة الطواف حولها من الخارج أيضا.

و بعد ان يصف بورخارت داخلية الكعبة و استارها بما هو معروف يقول ان زيارتها لا تشكل واجبا دينيا على الحجاج الذين يغادر مكة كثيرون

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۸۰

منهم من دون ان يفعلوا ذلك. و قد زارها هو مرتين، فى يومى ۱۵ ذى القعدة و عشرة محرم الحرام، فشاهد فى المرة الأخيرة ان الستائر الجديدة التى بعث بها محمد على باشا من القاهرة قد علقت، فكان قماشها ثمينا و نسجها أدق من نسج الكسوة السوداء التى تغطى الكعبة من الخارج. اما الستائر القديمة التى كان قد مر عليها أكثر من عشرين سنة، فقد بيعت علنا للمتدينين المتمكنين بسعر ريال واحد لكل قطعة مساحتها ست بوصات مربعة. و هناك مخزن خاص فى مقابل باب السلام تباع فيه هذه القطع مع قطع الكسوة الخارجية كذلك. و قد وجد بورخارت ان سترا كانت تصنع من قماش الكسوة، كما وجد فى نفس المخزن الذى تباع فيه قطع الكسوة رسوم مكة و المدينة مرسومة فوق الأقمشة و على قطع من الأخشاب فاشترى منها كما اشترى عددا من قنانى ماء زمزم.

ملاحظات حول سكان مكة

يلاحظ فى رحلة بوخارت التفصيلية انه يخصص ما يزيد على سبعين صفحة منها للتحدث عن سكان مكة و طبقاتهم و طباعهم، مع احوالهم الاجتماعية و الاقتصادية و غير ذلك. و سوف اوردها خلاصة مختصرة جدا عن ذلك.

فهو يقول اولا- ان سكان مكة يمكن ان يقال عنهم كلهم انهم غرباء و أجانب عنها. لان قبائل قريش الأصلية التى كانت تسكنها قد تفتتت و هاجرت الى الخارج بحيث لم يبق لها ذكر يعتد به فى مكة. على ان محيط مكة و ما جاوره ما زال يوجد فيه البعض من تلك القبائل البدوية على الأخص. و قد كانت توجد فى مكة على أيام بورخارت ثلاث أسر قرشية معروفة فقط، و كان يرأس إحداها نائب الحرم. اما أكثر طبقات السكان فقد كانوا من أهالى اليمن و حضر موت، و كان يليهم فى العدد أبناء الهنود المستوطنين

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۸۱

و المصريين و السوريين و المغاربة و الاتراك. و كان هناك أيضا مكيون من أصل أيرانى و تاتارى و بخارى و كردى و أفغانى، و من كل بلد مسلم آخر تقريبا.

على ان أقدم السلالات المكية التى بقيت فى مكة كذلك هى سلالة الشرفاء الاصليين، الذين ينتمون الى الدوحتين الحسنية و الحسينية من ابناء الأمام على بن أبى طالب عليه السلام. ثم يأتى بورخارت غلى وصف أنواع الشرفاء فى داخل الحجاز و خارجه، و يقول ان تقاسيم الشرفاء فى مكة هى تقاسيم جميلة مقبولة تقارب تقاسيم البدو فى شكلها و لا سيما فى الوجه و العيون و الأنف الأقنى.

و بعد ان يصف لباس المكيين بالتفصيل يقول أنّ معظم الأسر المتوسطة و المتمكنة تقتنى العبيد. و يذكر بالمناسبة ان النبى محمدا (ص) وجد تجارة العبيد الأفريقيين مستحكمة فى بلاد العرب بحيث لم يبذل جهدا لألغائها.

و بذلك ساعد على انتشارها و امتدادها الى الشمال الأفريقى بجميع ما كان يصحبها من قسوة و تعذيب. و الظاهر ان المستر بورخارت غير مطلع على مقدار الجهد الذى بذله الأسلام و المسلمون فى مختلف الادوار التاريخية من أجل تحديد الرق و تقليصه، و أكسابه

الصفة الأنسانية التى لم يكن يحلم بها الغربيون انفسهم، الذين بقى الرق معروفا عندهم بأبشع صوره فى انكلترة و فرنسة و غيرهما الى ما قبل مدة من الزمن. و لا نرانا بحاجة الى ذكر ما تنص عليه التعاليم الأسلامية فى هذا الشأن، و لا سيما بالنسبة للعتق و الاعتراف بنسل النساء العبيد، و أباحة الزواج و ما أشبه.

و يتطرق بعد ذلك الى اقتناء الجوارى الحبشيات و تزوجهن عند الحاجة، و يقول فى هذه الاثناء انه علم من الحلاقين و الأطباء و باعة الادوية فى مكة ان عادة الأجهاض منتشرة فيها، و أن الناس يستعملون لهذا الغرض بذور البلسم المكى المعروف.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۸۲

و بعد ان يصف حالة مكة الاقتصادية بأسهاب، و يشير الى مقدار الثروة التى يصبها الحجاج فيها كل سنة، يتطرق الى ذكر الشرور المنتشرة بين المكيين و منها شرب المشروبات الروحية و هو يقول فى هذا الشأن ان قدسية المدينة المقدسة، و تعاليم الأسلام الرصينة ليس بوسعها ان تحول دون أقدام المكيين على تناول المشروبات الروحية، و الانهماك بما يتعلق بها من موبقات السكر. فان الأسطول الهندى (البريطانى بطبيعة الحال) يستورد دائما الى الحجاز كميات كبيرة من العرق فى براميل. و يباع هذا الكحول، بعد خلطه بالسكر و خلاصة الدارحينى، باسم «ماء الدارحينى»، و يعتاد الشرفاء فى مكة وجدة، فضلا عن التجار الكبار و العلماء و جميع الناس المرموقين، على تناول هذا المشروب الذى يقنعون انفسهم بكونه غير محرم لأنه ليس بخمر و لا «براندى». لكن الناس غير الاثرياء لا يستطيعون شراء مثل هذا المشروب الغالى، و أنما يتناولون مشروبا مخمرا يصنع من زبيب الطائف، بينما تشرب الطبقات الفقيرة البوزة. و يقول بورخارت كذلك انه لاحظ خلال مدة وجوده فى الطائف ان تركيا من حاشية الخديوى محمد على باشا كان يستقطر البراندى من العنب و يبيعه على ملأ من الناس بسعر اربعين قرشا للقنينة الواحدة.

و حينما يكتب بورخارت عن مصرف المكاويين الباذخ يقول ان من بين الاشياء التى ينفقون عليها عادة كثيرا من المال شراء الحبشيات اللواتى يحتفظ بهن الرجال للمتعة، او الصرف على البغايا المتيسرات بكثرة. ثم يتطرق الى ذكر ما يقترفه المكيون، و هو آسف، من أشد انواع الفساد و الفجور كل يوم حتى فى داخل الحرم الشريف و هو اقدس مكان عند المسلمين. و هو يسهب فى ذكر ذلك، على اننا لا نعرف مقدار الصحة فى كلامه و نستهجن ان يعمد رجل مثله الى ذكر هذه السقطات ان وجدت

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۸۳

فعلا- لكنه يقول ان هذا موجود فى معظم المدن الآسيوية، و فى مصر على عهد المماليك. على انه يقول كذلك ان المجتمعات البدوية لا تعرف مثل هذا الفساد. و يتطرق بعد ذلك الى ذكر المشروبات الروحية ايضا، و الى بيعها حتى بالقرب من المسجد الحرام، كما يتطرق الى تدخين «الحشيش» علنا و لعب الورق فى كل مقهى من المقاهى العربية على ما يقول، برغم المنع الموجود فى القرآن الكريم لجميع انواع القمار.

على انه مع جميع ما يذكره من السيئات يشير الى الصفات الحسنة عند المكيين كذلك مثل السخاء و الكرم، و محبة الغريب و مساعدته، و الامتناع عن السرقة و الغش.

هذا و يتطرق بورخارت الى الناحية العلمية من ناحية مكة ايضا، فيقول ان العلم و تعلمه لا يمكن ان يؤمل ازدهارهما فى مكان يفكر فيه الجميع بالحصول على الربح و المغنم أو الجنة. و هو يعتقد ان مكة فى يومه ذاك لم تكن فى مستوى البلاد الاسلامية الاخرى من هذه الناحية، و حتى من ناحية العلوم الدينية. و يروى عن الفاسى المؤرخ ان مكة كان فيها إحدى عشرة مدرسة فى ايامه، بجانب عدد من الرباطات و غيرها. بينما لم تكن توجد و لا مدرسة واحدة تلقى فيها المحاضرات على ما يقول، و ليس فيها مكتبة عامة ملحقة بالحرم الشريف أيضا. و مع عدم اهتمام المكيين بالكتب و التعلم فأن لغة مكة، على ما يقول بورخارت، ما تزال اكثر نقاء ورقة فى اللفظ و التركيب، من لغة أى مكان آخر يتكلم أهله العربية فى العالم.

فهى تقرب من العربية القديمة المدونة، و خالية من التحريف و الاعوجاج.

و هو لا يعتقد ان اللغة العربية كانت آخذة بالانحطاط يومذاك.

و لا ينسى الموسيقى العربية التى يقول أنها لا تمارس فى مكة كما تمارس فى غيرها من البلاد العربية و لا سيما فى مصر و سورية. و ليس هناك من الآلة سوى الربابة و الناى و الطنبور. و لم يسمع الاذان و هو يردد من فوق المنائر فى مكة بمثل التأثير الذى يحدثه خلال الليل فى مصر و سورية. و يذكر بالمناسبة

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۸۴

ان الشريف كانت له فى مكة جوقة موسيقية خاصة، مثل جوقة الباشوات، تعزف على بابه مرتين فى اليوم. كما يذكر ان المغنيات المحترفات يحضرن فى حفلات الاعراس فيغنين بأصوات رخيمة رقيقة و يرقصن. و قد سمع من المكيين ان الغناء كان يسمع خلال الليل فى كل شارع قبل استيلاء الوهابيين الأول على مكة.

حكومة مكة و الشرفاء

كانت مكة و الطائف و قنفدة و ينبع على ما يقول بورخارت تابعة لشريف مكة قبل ان يحتلها الوهابيون، و المصريون من بعدهم، فى اوائل القرن التاسع عشر. و قد مدد الشريف نفوذه الى جدة، لكنها بقيت منفصلة عن ممتلكاته اسميا لأنها كان يحكم فيها باشا ينتدب لحكمها من استانبول فيقتسم وارداتها مع الشريف. و كان الشريف يتربع على دست الحكم فى مكة بالقوة عادة، او بنفوذه الشخصى و موافقة أسر الشرفاء القوية، ثم يحكم باسم السلطان الذى يؤيد فى العادة من يستطيع الحصول على المنصب. و لذلك كان الشريف فى كل سنة يتلقى خلعة السلطان الواردة من استانبول بصحبة القفطانجى باشى، فيعد فى مقدمة باشوات الامبراطورية. و حينما كانت سلطة الباشوات فى جدة تصبح شيئا اسميا فقط، و يكون المسؤولون فى الباب العالى عاجزين عن تجهيز جيوش كبيرة تصحب موكب الحج المتوجه فى كل سنة الى الحجاز، كان شرفاء مكة الحاكمون يصبحون مستقلين غير عابئين بالاوامر التى كانت تصدر لهم من استانبول، برغم احتفاظهم بلقب خدام السلطان و تسلمهم الخلعة السنوية و اعترافهم بالقاضى الذى كانت تعينه استانبول. غير ان محمد على باشا استعاد سلطة العثمانيين على الحجاز كلها، و اغتصب السلطة من الشرفاء.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۸۵

و يعلق بورخارت فى حاشية له على ذلك بقوله ان حكومة الحجاز كثيرا ما كانت تكون موضع نزاع بين خلفاء بغداد و سلاطين مصر و أئمة اليمن. فقد كان شرف امتلاك البلاد المقدسة، و لو بصورة اسمية، هو الذى تتنافس عليه الجهات المختلفة برغم التكاليف الباهظة التى كانت تصحب ذلك فى كثير من الاحيان. و جل ما كانت تحصل عليه هو حق تجهيز الكسوة للكعبة، و ذكر الأسم فى صلاة الجمعة فى المسجد الحرام. و لقد انتقل النفوذ الذى كانت تمارسه مصر على مكة فى هذا الشأن منذ بداية القرن الخامس عشر للميلاد الى سلاطين آل عثمان فى استانبول بعد ان استولى السلطان سليم الأول على مصر نفسها.

و بعد ان يأتى بورخارت على تاريخ الكثيرين من الشرفاء و اعمالهم، و لا سيما الشريف سرور و الشريف غالب، يبدأ بوصف لباسهم و مواكبهم عند الخروج للصلاة و غيرها، و يذكر بالمناسبة ان الوهابيين حينما احتلوا مكة أجبروا الشريف على الخروج ماشيا الى المسجد الحرام فى أوقات الصلاة بحجة ان الركوب و الفخفخة لا يناسبان الخشوع و الورع الذى يجب ان يبديه الحاج او المصلى بجوار الكعبة، و لكن الشريف غالبا حينما كان يمسك حكومة مكة بيد من حديد كان يجبر الباشوات المرافقين لموكب الحج على الاعتراف بأقدميته فى جميع المناسبات. و قد أشاع فى أنحاء الحجاز بأنه كان أعلى من أى موظف فى الباب العالى، و حتى السلطان نفسه فى استانبول كان يجب عليه ان ينهض له و يحييه.

و قد كان من عادة الشرفاء المقيمين فى مكة منذ القدم ان يبعثوا بأولادهم الذكور للعيش و النشوء بين القبائل البدوية خارج مكة، منذ اليوم الثامن لولادتهم، و يبقوا هناك مدة تقارب العشر سنوات او حتى يكون بوسعيهم ركوب الخيل و الجياد. و لا يؤتى بالولد الى

اهله خلال تلك المدة، الا بعد

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۸۶

ان يبلغ الشهر السادس من عمره ليروه. و ليس هناك رجل من الشرفاء، فقبرا كان أم غنيا، لم يقض طفولته او ينشأ بين القبائل البدوية مدة من الزمن.

و قد كان من المعتاد ان ينشأ أبناء الشرفاء الحاكمين عند قبيلة عدوان المعروفة ببسالتها و سخاء أبنائها. و كان عثمان المضايفى، الرئيس الوهابى الذى استخدمه الأمير سعود فى إخضاع الحجاز من شيوخ هذه القبيلة بالذات، فتزوج الشريف غالب أخته. اما الشرفاء الآخرون فقد كان أبناؤهم ينشأون فى مضارب هذيل و ثقيف و بنى سعد و حرب و غيرهم. و يقول بورخارت ان الشرفاء يحصلون على الكثير من الفوائد عندما ينشأون هذه النشأة البدوية الخالصة، فهم لا يحصلون على بنية قوية و حسب و انما يحصلون أيضا على شىء غير يسير من النشاط و الحرية فى التصرف و الشجاعة التى يعرف بها أبناء البادية، علاوة على الاهتمام الزائد الذى يولونه للسخاء و الضيافة و الايمان بالعقيدة الحقة.

غير ان بورخارت يقول ان المكيين يشككون كثيرا فى نزاهة الشرفاء و استقامتهم، ثم يذكر ان القسم الأعظم من شرفاء مكة نفسها و خاصة الشرفاء الحاكمين من ذوى زيد يحتمل جدا ان يكونوا من الزيدية الذين يكثر أتباعهم فى اليمن و لا سيما فى جبال صعدة، لكن الشرفاء يكذبون ذلك و يتمسكون بالمذهب الشافعى الذى يتمذهب به سكان مكة معظمهم، أما الشرفاء المقيمون فى الخارج فلا ينكرون ذلك. و يعتقد بورخارت ان الزيود ينقسمون الى فرق مختلفة، و يرجع زيود مكة و اليمن الى مؤسس المذهب الامام الهادى الى الحق يحيى بن الحسين الذى يرجع بنسبه الى الامام الحسن ابن على عليه السلام. و كان قد ولد فى الرص من أعمال القصيم فى سنة ۲۴۵ ه، و أعلن عقيدته لأول مرة فى صعدة باليمن سنة ۲۸۰ ه، فحارب العباسيين و استولى على صنعاء، ثم أخرج منها، و حارب القرامطة فمات مسموما فى صعدة سنة ۲۹۸ ه. و هناك من يرجع نسب الزيدية الى زيد بن على زين العابدين، الذى قتل فى الكوفة سنة ۱۲۱ للهجرة بأمر من هشام بن عبد الملك الأموى.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۸۷

و يتطرق بورخارت الى ذكر القاضى الذى كانت العادة ان يتعين من استانبول، فيقول ان الأباطرة العثمانيين كانوا يتوخون من ذلك الحيلولة دون استبداد الشرفاء بالناس و التأثير على شؤونهم العدلية. غير انه يذكر ان الناحية العملية تجعل ذلك شيئا غير ممكن، فان القاضى لا بد من ان يخضع للحاكم المحلى الذى يترك للحكم كما يشاء بشرط ان يبعث الواردات المطلوبة منه الى الباب العالى. و لذلك لم يكن بوسع الفرد ان يحصل على حقوقه فى المحاكم ما لم تدعمه الحكومة أو يدفع رشوة الى المسؤولين. و على هذا فان وظيفة القاضى لم تكن تمنح الا بالبيع لأعلى المتزايدين على ان يكون مفهوما بأنه يسمح له بأن يعوض ما دفعه الى المسؤولين خلال مدة عمله.

و بتأتى دخل الشريف فى الغالب عن رسوم الكمارك التى تدفع فى جدة، و كانت هذه تقسم بينه و بين الباشا التركى فيها، ثم تسنى للشرفاء المتأخرين قبل استيلاء محمد على باشا على الحجاز ان يستأثروا بها كلها حتى جاء الخديوى المذكور فصارت تؤخذ اليه بأجمعها. و يقال ان الشريف غالبا حينما استقل بالحكم و عظمت سطوته كانت عنده ثمانى سفن كبيرة تشتغل فى تجارة البن ما بين اليمن و جدة و الموانىء المصرية، و حينما كان يجد صعوبة فى بيع ما عنده من هذه السلعة كان يجبر التجار على شراء شحناته منها بسعر السوق. كما كانت اثنتان من سفنه الكبيرة تقوم كل منهما بسفرة سنوية الى جزر الهند الشرقية، و كانت السلع التى تأتى منها تباع الى الحجاج فى مكة أو يشتريها تجار جدة مقاسمة بالقوة. هذا فضلا عن سائر الرسوم التى كانت تفرض على المأكولات و الحيوانات و ما أشبه. و لذلك كانت الواردات السنوية تبلغ فى أيام الشريف غالب فى مكة حوالى ثلاث مئة و خمسين ألف باون استرلينى.

الحج

و فى الجزء الثانى من رحلته ، يخصص المستر بورخارت فصلا

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۸۸

كبيرا للحج و مناسكه و جميع ما يختص به من شؤون. و أول ما يبدأ به هو الاشارة الى ان المسلمين قد قلت حماستهم لتأدية الواجبات الدينية المفروضة عليهم فى تلك الأيام، و من جملتها الحج الذى أصبحت تكاليفه الباهظة على الكثيرين من المسلمين تحول دون تجشمهم المصاعب من أجله.

و صار قسم كبير منهم ينيب غيره للحج عنه بالأجرة، إذا لم يترك الأمر بالكلية أو يماطل به.

و يشير بعد ذلك الى ان عددا غير يسير من المسلمين كانوا قد وصلوا الى مكة قبل موعد الحج بثلاثة أو أربعة أشهر، لأن تقضية رمضان المبارك فى البلد المقدس فيه كثير من الأجر و الثواب. ثم يأخذ بوصف مواكب الحجاج و قوافلهم التى تأتى من البلاد الاسلامية المشهورة، و لا سيما سورية و مصر. فيقول ان موكب الحج القادم من سورية كان على الدوام من أقوى المواكب، منذ كان الخلفاء يصحبون الحجاج بأنفسهم من بغداد. و يبدأ الموكب الشامى فى العادة بالتحرك من الأستانة فيجمع فى طريقه حجاج المدن و البلاد الأناضولية و السورية حتى يصل الى دمشق الشام، حيث يمكث عدة أسابيع. و فى خلال الطريق الممتد من الأستانة الى الشام كله تؤخذ التدابير اللازمة للمحافظة على سلامة القوافل و ما فيها من حجاج، و تصحب الموكب من بلدة الى أخرى قوات مسلحة يجهزها الحكام المسؤولون. و فى كل محطة أو خان كان يجد الحجاج البرك و الأحواض العامة من الماء التى كان السلاطين القدماء قد أنشأوها لراحتهم و العناية بهم، و يقابلون بمظاهر البهجة و الفرح فى كل مكان. و قد كان كل موكب من مواكب الحج يضم عددا كبيرا من الحيوانات، لا سيما الابل، برغم العدد القليل من الحجاج الذين كانوا ينضمون الى الموكب فى بعض الأحيان. ففى ۱۸۱۴ لم يكن عدد الحجاج فى الموكب الشامى ليزيد على خمسة آلاف حاج على ما يقول بورخارت، لكن عدد الابل كان يبلغ خمسة عشر ألف بعير. و هنا يذكر فى الحاشية بعض الروايات التاريخية المنسبة، فيقول نقلا عن الفاسى المؤرخ أن والدة

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۸۹

المستعصم باللّه، آخر خلفاء بنى العباس، حجت سنة ۶۳۱ ه و كانت قافلتها تتألف من مئة و عشرين ألف بعير. و حينما حج سليمان بن عبد الملك الأموى سنة ۹۷ ه استخدم تسع مئة بعير لنقل لوازمه و أغراضه فقط. ثم يذكر علاوة على ذلك ان الخليفة المهدى صرف حينما حج فى سنة ۱۶۰ ه ثلاثين مليون درهم، كما أخذ أبو المعالى الملك الناصر سلطان مصر حينما حج فى سنة ۷۱۹ ه خمس مئة بعير لحمل الحلويات و بعض الأطعمة فقط، مع مئتين و ثمانين بعيرا لحمل الرمان و اللوز و سائر الفواكه. و كان فى جملة ما أخذه للأكل ألف وزة و ثلاثة آلاف دجاجة. هكذا جاءت رواية بورخارت عن المقريزى، لكننا حينما رجعنا الى النص الأصلى وجدناه يقول (.. و جهز من الشام خمس مئة جمل تحمل الحلوى و السكر و انات و الفواكه، و حضرت أيضا حوائج خاناه على مائة و ثمانين جملا- تحمل الحب رمان و اللوز و ما يحتاج اليه المطبخ، سوى ما حمل من الحوائج خاناه من القاهرة، و جهز الف طائر أوز و ثلاثة آلاف طائر دجاج).

و كان الموكب الشامى على انتظام تام فى سيره و سائر شؤونه، فان باشا الشام او من ينيبه من ضباط كان يرأسه على الدوام، فيعطى الاشارة فى الحل و الترحال باطلاق الرصاص. و تتقدم الموكب فى الطريق ثلة من الخيالة، كما تسير خلفه ثلة أخرى لرعاية المتخلفين. و يجتمع فى ضمن الموكب الحجاج القادمون من المدن المختلفة فى جماعات تسير سوية على طول الطريق.

و يتعاقد الحجاج عادة مع أحد المقومين و هو يتعهد بتجهيز الدابة الى الحاج مع سائر ما يحتاج اليه خلال السفر. و لذلك يلاحظ كل عشرين او ثلاثين حاجا مع مقومهم الخاص الذى يهىء لهم الخيم و يجهز الخدم فيوفر على الحجاج

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۹۰

أتعاب السفر، و لا سيما بتحضيره شؤون الطعام و القهوة و الماء و ما أشبه لهم. و لقد كانت أجرة الحاج عند المقوم فى ۱۸۱۴ مع أعاشته تبلغ مئة و خمسين ريالا من دمشق الى المدينة، و خمسين ريالا من المدينة الى مكة.

و كانت تشعل المشاعل فى الليل، و تقطع المسافات اليومية ما بين الثالثة بعد الظهر و بعد مرور ساعة او ساعتين على موعد طلوع الشمس من اليوم التالى. لكن البدو الذين يحملونن الذخيرة يسيرون خلال الليل فقط متقدمين القافلة. و كان يوجد فى المحطات التى تتزود فيها القافلة بالماء حصن كبير مع حوض واسع من الماء ترد منه الجمال. و كانت ترابط فى كل حصن حامية تتألف من عدد قليل من الجنود الذين يبقون فيها خلال السنة كلها.

و فى مثل هذه الحصون كان يلتقى شيوخ البدو بالقوافل فيأخذون الأجور المعتادة. و لا تبعد المحطات بعضها عن بعض أكثر من مسيرة اثنتى عشرة ساعة عادة.

اما قوافل الحجاج المصريين و موكبهم فتسير على نفس النظام الذى تسير عليه القوافل السورية، لكنها نادرا ما تساويها فى العدد لأنها تتألف من الحجاج المصريين فقط الى جنب الحرس العسكرى. و يكون طريقها على جانب أكبر من الخطر و المشقة، لأن الطريق الممتد على سواحل البحر الأحمر يمر من ديرات قبائل شرسة قوية الشكيمة كثيرا ما تحاول قطع الطريق على القوافل بالقوة. و كان الموكب المصرى فى ۱۸۱۴ يتألف من الجند المرافق للمحمل و حاشيته مع بعض الموظفين الرسميين، لأن جميع الحجاج المصريين فضلوا الحج عن طريق السويس و فى ۱۸۱۶ رافق موكب الحج عدد من وجوه مصر و سراتها، و قد جاء أحدهم بمئة و عشرة جمال لتحمل عفشه و حاشيته، مع ثمانى خيم كبيرة. و لا بد من ان تكون نفقات سفره قد بلغت حوالى عشرة آلاف دينار. ركان مع الموكب أيضا حوالى خمس مئة فلاح مع نسائهم من مصر السفلى. و هؤلاء لا يبالون عادة بمشاق السفر و أخطاره فى البادية و البحر الأحمر. و الغريب ان بورخارت يقول انه شاهد معهم

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۹۱

جماعة من البغايا و الراقصات، و ان خيم اولائى النسوة كانت أجمل خيم الموكب و أكثرها زينة و تزويقا.

و يقول بورخارت كذلك ان موكب الحج الايرانى الذى كان يخرج من بغداد فى سالف الأيام، فيأتى الى مكة عن طريق نجد، قد انقطع مجيئه حينما أوقف الوهابيون مجيء الموكب الشامى من سورية. و بعد ان عقد الأمير عبد اللّه بن سعود صلحا مع طوسون باشا (بن محمد على) فى ۱۸۱۴ كان العدد القليل من الحجاج الايرانيين القادمين عن طريق البر قد عبروا من بغداد الى الشام و ساروا مع الموكب الشامى بصحبة عكامين من بغداد.

و من الجدير بالذكر، على ما يقول بورخارت، ان الايرانيين لم يكن يسمح لهم على الدوام ان يأتوا الى مكة. فبعد ان أعيد بناء الحرم الشريف فى ۱۶۳۴ أمر السلطان مراد الرابع بأن لا يسمح لأى ايرانى من «شيعة على» بتأدية الحج او الدخول الى بيت اللّه الحرام. فبقى التحريم ساريا عدة سنوات، غير ان المال الذى بذله الايرانيون سرعان ما فتح الطريق أمامهم الى الكعبة و عرفات.

و قد توقف مجيء الموكب المغربى للحجاج مدة سنين عديدة، و أصبح قدومهم على دون هدى او انتظام. و كان من المعتاد أن يرأس الموكب قريب من أقرباء ملك مراكش، فيسير مسيرات بطيئة نحو تونس و طرابلس و يجمع الحجاج فى طريقه من كل منطقة. و يسلك هذا الموكب من طرابلس الطريق الممتد على ساحل البحر الى درنة، و من هناك يسير مع الساحل المصرى الى القاهرة عن طريق الاسكندرية. و لا يرافق هذا الموكب الا عدد قليل من الجند لأن الحجاج يكونون مسلحين تسليحا حسنا فى العادة. و يقول بورخارت انه شاهد مع هذا الموكب جماعة صغيرة من عرب دراع النازلين جنوبى شرقى جبال الأطلس، و كان أحدهم من بدو الشلوح الذين كانت منازلهم حينما تركهم تقع على مسيرة عشرين يوما من تمبكتو. و يوجد مع موكب الحجاج المغاربة عادة أناس من أهالى جزيرة جربا الذين يعتقد أنهم شيعة من

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۹۲

الامام على كما يقول بورخارت. و كثيرا ما يبقى البعض من هؤلاء فى القاهرة حيث يسكنون فى حارة تسمى تيلون.Teyloun و المعتقد ان عدد حجاج المغرب كان يبلغ حوالى ألفى حاج فى تلك الأيام.

و كان يأتى من اليمن موكبان للحج عن طريق البر من قبل، و كان أحدهما، و يسمى الكبسى، و يتحرك من صعدة فيسير فى المناطق الجبلية الى الطائف و منها الى مكة. اما الموكب الثانى فقد كان يتألف من حجاج يمانيين مع حجاج ايرانيين و هنود يصلون فى العادة الى موانىء اليمن. و قد أبطل هذا الحج فى ۱۸۰۳، بعد ان كان من المواكب الغنية بالسلع المختلفة و البن، و بعد ان كان يرأسه أئمة اليمن. و قد كان لهذا الموكب، كما كان لغيره، مكان خاص فى مكة المكرمة ينزل فيه، و قد خصص له حوض حجرى كبير للماء.

و يذكر بورخارت فى هذا الشأن أن كثيرا من الحجاج الأتراك كانوا يأتون بجماعات عن طريق مصر فى أواخر عهد المماليك، حينما كانوا يسيطرون على مصر العليا فقط بينما كان محمد على باشا يسيطر على مصر السفلى. و كثيرا ما كان هؤلاء المماليك يعتدون على الحجاج الأتراك و يرتكبون أنواع الفظاعات تجاههم، و من جملة ما يذكر ان وحشا يونانيا من أصل يهودى يدعى حسن بك اليهودى كان يشتغل مع المماليك، و كان يفتخر بأنه قتل وحده حوالى خمس مئة من أولئك الحجاج المساكين. و كانت هذه المذابح الوحشية هى التى قدمت للخديوى محمد على باشا حجة للغدر بالمماليك و القضاء عليهم فى قلعة القاهرة المعروفة.

اما الحجاج الباقون فيأتون الى مكة عن طريق البحر من اليمن و جزر الهند الشرقية، و هؤلاء هم مسلمو الهند و كشمير و كجران و الايرانيون القادمون عن طريق الخليج و العرب من البصرة و مسقط و عمان و حضر موت فضلا عن القادمين من سواحل ملينديا و مومباسا الذين يطلق عليهم «السواحليون» و يأتى مسلمو الحبشة و سائر بلاد العبيد بالطريق نفسها كذلك.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۹۳

و يلاحظ من بعض ما يكتبه بورخارت فى الرحلة انه ربما كانت له علاقة بالاستخبارات البريطانية فى تلك الأيام. فهو يقول ان وصول الغرباء من جميع أنحاء العالم الاسلامى، أى من تمبكتو الى سمرقند و من بلاد الكرج الى بورنيو، تجعل جدة مكانا ممتازا جدا للأوربى المسافر المعنى بجمع الأخبار و حب الاستطلاع. فهو بتقديمه المساعدة للحجاج الفقراء، و صرف مبالغ زهيدة لتجهيزهم بالمؤن، يمكنه ان يجتذب اليه عددا كبيرا فيستطيع بهذه الوسيلة جمع معلومات كثيرة تختص بأبعد البلاد المعروفة فى أفريقية و آسية.

ثم يصف بورخارت وصول الموكبين الشامى و المصرى، و يذكر بمناسبة وصول الموكب المصرى ان محمد على باشا كان مقيما فى الطائف يومذاك، للاشراف على الحملة المصرية المجردة ضد الوهابيين، و قد وصل لتفتيش القوة التى وصلت مع المحمل فسرّ بها لأنها زادت فى أمله بالتغلب على الوهابيين.

و هو يقول ان محمد على كان يلف جسمه بأقمشة الأحرام الجميلة المصنوعة من الشال الكشميرى، لكن أحد الضباط كان يحمل فوق رأسه (رأس محمد على) شمسية تقيه حر الشمس فى أثناء سيره.

و يأخذ بورخارت بوصف مناسك الحج بالتفصيل، مما أتينا عليه قبل هذا فى هذا المبحث فى مناسبات عدة من قبل. على أننا لا بد من ان نذكر هنا انه قدر عدد الحجاج الذين وقفوا فى عرفات (سنة ۱۸۱۴) بسبعين ألف حاج. و قد كان مخيم الحجاج هناك يبلغ طوله بين ثلاثة و أربعة أميال، و عرضه حوالى الميلين. و هو يقول فى هذا الشأن أنه ليس هناك على وجه الأرض بقعة فى مثل هذا الحجم الصغير يقف عليها مثل هذا العدد من الناس الذين يتكلمون بهذا العدد الكبير من اللغات و اللهجات. و يقول كذلك أنه شخصيا لاحظ وجود أربعين لغة بين الحجاج، و أنه كان هناك عدد آخر من اللغات الأخرى بطبيعة الحال. و يذكر بمناسبة ذكر المحمل المصرى نقلا عن المقريزى ان الظاهر بيبرز البندقدارى سلطان مصر كان أول من بعث بالمحمل سنة ۶۷۰ للهجرة. و منذ ذلك الوقت فصاعدا أخذ سلاطين

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۹۴

المسلمين الذين يبعثون بمواكب الحج الى مكة المكرمة يعتزون بارسال محمل من عندهم و يعتبرون ذلك دليلا حيا على ولائهم

للاسلام و المسلمين. فجاء أول محمل من اليمن فى ۹۸۰ ه، و فى ۱۰۴۹ ه جاء المؤيد باللّه امام اليمن الزيدى و ملكها مع المحمل بنفسه الى عرفات. كما كانت المواكب القادمة من بغداد و دمشق و القاهرة يأتى كل منها بمحمله الخاص من قبل. و قد جيء فى سنة ۷۳۰ ه بمحمل بغداد محملا على فيل خاص الى عرفات.

و يقول بورخارت فى آخر بحثه عن الحج ان بعض الحجاج كانوا يتوقون الى الحصول على لقب «خادم المسجد» الذى يمكن الحصول عليه بعد دفع حوالى ثلاثين ريالا. إذ تعطى لقاء ذلك ورقة تنص على منح الحاج اللقب يوقعها الشريف و القاضى. و قد يستطيع فى بعض الأحيان حتى النصارى الحصول على امتياز «خدام المسجد»، و هذا ما يحاول الحصول عليه بوجه خاص سكان جزر الأرخبيل اليونانى لأنهم عندما يصادف وقوعهم فى أيدى القراصنة من المغاربة الذين يعترف أشدهم بأسا وقوة بهذه الشهادة يستطيعون التخلص منهم. و يذكر بورخارت أنه شاهد قبطانا يونانيا حصل على مثل هذه الشهادة بعد ان دفع ما يقرب من مئتى ريال لقاءها. فقد كان يقود سفينة من سفن محمد على باشا و هو فى طريقه الى بلاده، فوجده مطمئنا جد الاطمئنان لأنه يستطيع بهذه الشهادة أن يقود أية سفينة كانت من دون ان يخشى خطر القراصنة المغاربة عليها. و لقد كان هذا اللقب فى قديم الزمان له أهمية كبيرة، لكنه لم تعد له فى أيام زيارة بورخارت للحجاز أهمية تذكر.

السر ريتشارد بورتون

اشارة

و اذا كان المستر بورخارت لم يستطع فى بعض الأحيان القيام بجميع مناسك الحج و تفاصيله على الوجه الأكمل، فقد استطاع السر ريتشارد بورتون ان يفعل ذلك بعده بأربعين سنة من دون أن يكتشف أمره على الاطلاق. و كان الفضل فى ذلك يعود الى اتقانه التخفى، بعد ان تعلم العربية

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۹۵

و الفارسية و التركية، و اتقن تعلم الفروض الدينية المعروفة عند المسلمين. و قد استعد لذلك قبل ان يقدم على رحلته المخطرة بأشهر عديدة و اتخذ جميع التدابير اللازمة للقيام بمهمته خير قيام، و من جملة ذلك أنه عمد الى الاختتان، و هو يومئذ فى الثانية و الثلاثين من عمره، و قد جرب علاوة على ذلك تأثيرات الصبغات المختلفة فى جلده و مظهره، و تعلم التنعيل و استعمال الرمح و ما أشبه.

و كان بورتون من موظفى شركة الهند الشرقية، المعروفة، و بعد ان اشتغل عدة سنين فى دوائرها فى الهند حصل على رخصة طويلة الأمد من الشركة و اتصل بالجمعية الجغرافية الملكية فى انكلترة لتساعده ماليا فى مهمته التى تنطوى على الدخول الى جزيرة العرب و الحجاز على الأخص، ثم الوصول الى مكة المكرمة فى موسم الحج للكتابة عنها بالتفصيل. فتوفق فى ذلك، و بعد ان أكمل الاستعدادات جميعها أبحر من انكلترة الى الاسكندرية فى اليوم الثالث من نيسان ۱۸۵۳ باسم المرزا عبد اللّه من بوشهر. و يقول سيتون ديردون مؤلف كتاب «الفارس العربى» أنه قبل ان يتوجه الى مهمته علم أن رحالة انكليزيا يدعى والين Wallin كان قد تمكن من الدخول الى مكة و الحج مع الحجاج فى ۱۸۴۵، لكنه لم يستطع تدوين شيء عما فعل و رأى لأنه كان خائفا على حياته و خاصة بعد ان لاحظ ان اثنين من اليهود قد أكتشف أمرهما فى مكة تلك السنة فقتلهما الحجاج الهائجون شنقا. فقرر ان يستفسر منه عن أشياء كثيرة قبل ان يقدم على الاضطلاع بمهمته، و كتب له بذلك.

لكن كتابه لم يصل الى والين الا بعد أن كان قد توفى. و لذلك عمد الى دراسة ما كان قد كتبه بورخارت قبله من تفصيلات فدرسه دراسة مستفيضة.

و استعد للرحلة على ضوء ما جاء فيها.

و بعد ان بدل هويته و جنسيته عدة مرات فى مصر، و فى الطريق الذى

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۹۶

أخذه منها الى ينبع فالمدينة المنورة، وصل مدينة الرسول سالما غانما و استقر فيها باعتباره أحد الحجاج الأفغان. و بعد ان أطلع على ما فى المدينة و أماكنها المقدسة توجه مع موكب الحج الشامى الى مكة فى يوم ۳۱ آب ۱۸۵۳. و بعد ثمانية أيام متعبة وصل الموكب بآلافة السبعة من الناس الى أم القرى. و يقول بورتون عن مكة حينما وصلها لأول مرة انه لم يجد فيها ذلك الجمال الرشيق المتناسق الذى يتجلى فى آثار اليونان و ايطالية، و لا الفخامة البربرية المتجلية فى أبنية الهند، و مع هذا فقد كان المنظر غريبا فريدا فى بابه بالنسبة اليه. و يقول كذلك «.. و يمكننى أن أقول حقا انه من بين جميع الحجاج الذين كانوا يتعلقون بأستار الكعبة و هم يبكون، أو يضغطون بقلوبهم النابضة على الحجر، لم يكن هناك أحد فى تلك اللحظة أشد شعورا و أطغى عاطفة من الحاج القادم من بلاد الشمال. فقد بدا لى كأن أساطير العرب الشعرية جميعها كانت تنطق بالصدق، و كأن أجنحة الملائكة الخفاقة، و ليس نسيم الصبح العذب، كانت هى التى تحرك الكسوة السوداء التى تجلل الكعبة المقدسة. لكننى لا بد لى من أن اعترف اعترافا متواضعا بأن عاطفة أولئك الحجاج المتدفقة كان مبعثها الحماسة الدينية، أما عاطفتى فقد كان مبعثها نشوة الكبرياء المطمئن. »

و قد كتب السر ريتشارد بورتون. هذا عن زيارته الى المدينة و مكة بتفصيل مسهب استغرق مجلدين كبيرين لكن الملاحظ ان الرحالة الموما اليه كتب عن جميع ما دونه سلفه بورخارت، و لكن بطريقة مختلفة و تعليقات لا- تشبه تعليقات بورخارت فى كثير من المناسبات. غير ان الوصف العام لا يختلف عند الاثنين اختلافا جوهريا، و لذلك نكتفى هنا بما سبق أن ذكر بشىء من التفصيل عن بورخارت، لكننا سنورد شيئا عما كتبه بورتون

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۹۷

عند دخوله الى داخل الكعبة لأن بورخارت لم يذكر كثيرا عن ذلك.

فى داخل الكعبة

فهو يقول: .. و كان جمهور من الناس قد احتشد حول الكعبة، و لم أكن راغبا فى ان أقف حاسر الرأس حافى القدمين فى شمس أيلول.

فصاح أحدهم يقول افتحوا الطريق للحاج الذى يريد ان يدخل البيت، و عند ذاك أفسح المتجمهرون الطريق .. و تقدم رجلان قويان من أهالى مكة كانا يقفان تحت الباب المرتفع، فرفعانى بأذرعهما بينما سحبى رجل ثالث من أعلا الى داخل المبنى. فحيانى فى المدخل عدد من خدام الكعبة و هم من المكيين سمر البشرة الذين كان أشدهم سمرة و بساطة شاب من أسرة بنى شيبة سدنة الكعبة. و هؤلاء يحتفظون بمفاتيح البيت عندهم، و كان رئيسهم يوم زرت مكة الشيخ أحمد. و كان فى يد ذلك الشاب مفتاح مذلاج الكعبة المطلى بالفضة، و سرعان ما جلس على مسطبة خشبية فى ركن الكعبة الأيسر و ابتدرنى بالسؤال رسميا عن اسمى و قوميتى و تقصيلات أخرى. و لما كانت أجوبتى وافية بالمرام أمر الفتى محمدا الذى كان يصحبنى بأن يقودنى حول المبنى و يرتل أمامى الصلاة. و لا- أنكر أننى حينما نظرت الى الجدران الخالية من الشبابيك، و لا- حظت وجود السدنة بالباب، و جمهور المتعصبين الهائجين فى أسفل الكعبة، شعرت و كأننى فأرة فى المصيدة. على ان ذلك لم يمنعنى عن ملاحظة ما كان يحيط بى بدقة خلال صلاتنا الطويلة، و رسم مخطط تقريبى بقلم الرصاص فوق قماش احرامى الأبيض.

فلم يكن هناك شىء أبسط من داخلية هذا المبنى الشهير. فان التبليط المساوى لمستوى الأرض يتألف من قطع من المرمر البديع بألوانه المختلفة التى يكثر فيها الأبيض. اما الجدران فان جميع ما كان ظاهرا منها كان مبنيا بالمادة نفسها. لكن القطع كانت غير منتظمة فى شكلها، و كثير منها مكتوب بكتابات طويلة. و كانت الاقسام العليا من الجدران، و السقف الذى كان

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۹۸

النظر اليه يعتبر ضربا من عدم الاحترام، مغطاة بالدمقس الأحمر المورّد بالذهب، و الذى كانت حاشيته ترتفع الى علو ست أقدام عن الأرض لتكون بعيدة عن أيدى الحجاج. و كان السقف المنبسط يستند على دعامات مستعرضة ثلاث، تستند هى بدورها على الجدارين الشرقى و الغربى و تحملها فى الوسط ثلاثة أعمدة يبلغ قطر كل منها حوالى عشرين بوصة، و هى مغلّفة و مزينة بخشب الند المحفور. و يوجد فى الركن العراقى باب صغير يسمى «باب التوبة»، يؤدى الى ممر ضيق ينفذ الى سلم يستعمله الخدم فى الصعود الى السطح، و لا يفتح الا عند الحاجة. و يشغل الركن «الأسود» او «الأسعد» صندوق مسطح القبة مضلع الشكل توضع فيه أحيانا مفاتيح الكعبة نفسها.

و يصنع الباب و الصندوق معا من خشب الند. و تمتد ما بين الأعمدة، على تسع أقدام من الأرض عوارض معدنية لم استطع الاهتداء الى نوعية معدنها، يعلق منها عدد غير يسير من المصابيح التى يقال أنها من ذهب.

و مع عدم وجود عدد كبير من الناس و الخدم فى داخل الكعبة فان الجدران الحجرية الخالية من الشبابيك، و الأبواب الضيقة فيها، تجعل منها شيئا أشبه بسجن البندقية. إذ يتساقط العرق من الأجسام فى داخلها بقطرات كبيرة، و قد ساورنى الرعب حينما فكرت بامتلائها بالمتعصبين المتدافعين من الناس. و كانت شعائر العبادة تنطوى على الصلاة بركعتين، و الابتهال لمدة طويلة، فى الركن الشامى (الغربى) و الزاوية العراقية (الشمالية)، و اليمانية، و أخيرا تجاه الثلث الجنوبى من الجدار الخلفى. و هنا يقول بورتون ان بورخارت قد أخطأ حينما ذكر ان الصلاة تتم «فى كل ركن» من الأركان الأربعة. «و بعد ان انتهينا من هذا كله عدت الى الباب حيث يتم الدفع ..»

الكسوة

.. و قد كانت الكعبة مبرقعة بكسوتها الجديدة حينما دخلنا فيها. على أن الكسوة كانت مرفوعة من السقف بالحبال بدلا من ان تكون مشدودة

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۲۹۹

بالحلقات فى أسفلها. و قد كانت مصنوعة من قماش أسود لماع. و كان الحزام او المنطقة الذهب التى تدور حول الكعبة من أعلاها، مع البرقع، يكاد لمعانه يأخذ بالأبصار. و من المعتقد ان أول من جلل الكعبة بالكسوة تبع الحميرى، و بقى أكساؤها ساريا منذ ذلك العهد .. و كان من عادة العرب فى الجاهلية ان لا يرفعوا الكسوة القديمة عند اكسائها بكسوة جديدة.

بل كانت الكسوات تبقى واحدة فوق الأخرى حتى أصبح ثقلها يهدد بتقويض البناء.

و كان المال اللازم لتجهيز الكسوة يجمع من الناس منذ عهد قصى، الى ان تبرع ابو ربيعة المغيرة بن عبد اللّه بتجهيزة على حسابه الخاص بين سنة و أخرى بعد ان أثرى و كثر ماله، و بذلك حصل على لقب العادل. و كان النبى الكريم يفضل ان تصنع الكسوة من القماش اليمانى الرقيق، فأمر بأن يصرف عليها من بيت مال المسلمين. و حينما تولى عمر الخلافة صار يفضل ان تصنع الكسوة من الكتان المصرى، و تجدد فى كل سنة فيوزع قماش القديمة على الحجاج. ثم جاء عهد عثمان بن عفان فصارت تستبدل مرتين فى السنة، أى فى الشتاء و الصيف فتكسى بالقميص المطرز فى الشتاء و الازار المصنوع من الكتان فى الصيف. أما معاوية فقد كان يقدم الكتان و الحرير فى بادىء الأمر، لكنه أمر بعد ذلك باستبدال الكتان بالنسيج اليمانى المقلم و طلب الى شيبة بن عثمان ان يجرد الكعبة عن كسوتها القديمة قبل التجديد و يطيب جدرانها بالخلوق. فصار شيبة يوزع الكسوة القديمة بين الحجاج فلم يعترض عبد اللّه بن عباس على ذلك.

و قد أمر الخليفة المأمون (فى القرن التاسع) بأن تستبدل الكسوة ثلاث مرات فى السنة، و كانت تصنع على عهده من الحرير الموشى

الأحمر فتكسى الكعبة بها فى اليوم العاشر من محرم الحرام، و تصنع من الحرير الموشى الأبيض لتستبدل فى اليوم الأول من شوال. و حينما قيل للمتوكل العباسى (القرن التاسع) ان قماش الكسوة صار يتهرأ بأيدى الحجاج من كثرة اللمس أمر

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۰۰

فى بادىء الأمر بأن تغلف الكعبة بكسوتين، و ان تكون كل منهما طويلة بحيث تصل الى حد التبليط. غير أنه أمر فى الأخير بأن تجهز الكعبة بكسوة جديدة كل شهرين من أشهر السنة. فأصبح اهتمام العباسيين هذا يعنى سيطرتهم على الحجاز و شؤونه، الأمر الذى كانت تتناوب عليه بغداد و مصر و اليمن.

و كانت الكسوة فى عهد الادريسى (القرن الثانى عشر للميلاد) تصنع من الحرير الأسود و يجددها الخليفة العباسى فى بغداد سنويا. اما ابن جبير فيذكر أنها كانت خضراء موشاة بالذهب. على ان أمر الكسوة صار يتولاه فى القرن الثالث عشر السلطان قلاوون فى مصر، الذى أوقف لها واردات قريتين من القرى المصرية الغنية و هما بيسوس و سندبوس. و كانت واردات هاتين القريتين تخصص لتجهيز كسوة خارجية سوداء للكعبة و أخرى حمراء داخلية، مع ستائر خاصة لقبر النبى الأعظم فى المدينة المنورة. و حينما استولى العثمانيون على البلاد المقدسة أمر السلطان سليم بأن تكون كسوة الكعبة سوداء اللون، ثم أوقف ولده السلطان سليمان (القرن السادس عشر للميلاد) مبالغ طائلة لهذا الغرض. و صارت الكسوة بعد ذلك تستبدل كلما ارتقى عرش آل عثمان و ال جديد. اما الوهابيون فقد كسوا الكعبة عند اول استيلائهم على مكة بكسوة حمراء مصنوعة من نسيج العباءات العربية المصنوعة فى الاحساء.

و يقول بورتون فى الأخير ان الكسوة فى عهده (۱۸۵۳) كانت تصنع فى مصنع النسيج القطنى المسمى «الخرنفش» فى باب الشعرية فى القاهرة ثم يذكر ان الكسوة تتألف عادة من ثمانى قطع، اثنتان منها لكل وجه من أوجه الكعبة، و يغطى محل اتصال القطعتين بحزام ذهبى المظهر، ثم تبطن بخام أبيض و تجهز بحبال قطنية. و يقال ان الكسوة كانت تنسج خلال حياكتها الآيات القرآنية كلها فيها. اما فى عهد بورتون فقد كانت تنسج فيها الآية الكريمة (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَ هُدىً لِلْعالَمِينَ)،

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۰۱

مع سبع سور قرآنية هى: سورة الكهف، و مريم، و آل عمران، و التوبة، و تبارك، و طه، و ياسين. و كانت هذه تخط بحروف «الطومار» و هو أكبر الخطوط الشرقية فى الحجم، و يقرأ من بعيد. اما الحزام فهو نطاق يبلغ عرضه حوالى قدمين، و يحيط بالكعبة على ثلثى ارتفاعها. و يقسم الى اربع قطع يخاط بعضها ببعض، و تخط على القطعة الأولى و الثانية بعض آيات العرش، أما على القطعتين الثالثة و الرابعة فتنقش عناوين و أسماء السلطان الحاكم. و تحاك هذه الكتابات، كما تحاك كتابات البرقع أو ستار الباب، بالذهب الملفوف بالحرير الأحمر. و حينما تتم حياكة لكسوة فى الخرنفش تنقل الى مسجد سيدنا الحسين فى القاهرة بموكب خاص، و هناك تبطن و تخاط فتكون جاهزة للرحلة الى البيت الحرام.

نقاط اخرى

و فى رحلة بورتون فصل قيم كثير الفائدة عن الحياة فى مكة، يصف فيها مكة نفسها و أحوال سكانها بشىء غير يسير من التفصيل. فهو يقول عنها أنها تعد مدينة حديثة نسبيا برغم ان منشأ بيت اللّه الحرام تضيع جذوره العميقة بين طيات الماضى السحيق. فقد بنيت حوالى سنة أربع مئة و خمسين ميلادية من قبل قصى و عشيرته قريش. و هى تحتوى على ثلاثين الى خمسة و أربعين ألف نسمة من السكان، مع وجود أماكن فيها لسكنى ثلاثة أضعاف هذا العدد من الناس على الأقل. و تبنى بيوتها بالطابوق و حجر الغرانيت و الحجر الرملى المستمد من الجبال المجاورة. و منظر مكة أشبه بواد متموج متعرج يمتد فوق هضبة صغيرة من الهضاب. و يبلغ أقصى طولها ميلين و نصف من معبدة فى الشمال الى جبل أجياد فى الجنوب، كما يبلغ أقصى عرضها ما بين ابى قبيس فى الشرق (الذى تمتد على سفوحه الغربية البلدة

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۰۲

معظمها) و جبل هندى فى الغرب. و تقوم الكعبة فى مركز هذا الخط.

و يقول بورتون خلال تحدثه عن سكان مكة، و ما سمعه منهم عن مستقبل الاسلام، ان الكثيرين ممن عرفهم يذكرون ان الاسلام مكتوب له ان يصادف كثيرا من الأحن و النكبات فى مقبل الأيام. و يخلص من هذا الى القول ان المسيحيين المتحمسين لنشر عقيدتهم و ديانتهم فى العالم يمكن ان يجدوا فى وضع المسلمين الفكرى هذا فرصة للانتشار و التغلغل بينهم فى الأجيال المقبلة. ثم يذكر فى حاشية له ان الوضع لا يحتاج الى كثير من التنبؤ قبل الأوان ليستنتج منه المرء بأن الانكليز لا بد من ان تضطرهم الأحوال السياسية لأن يحتلوا بالقوة ينبوع الاسلام هذا و قبلته المقدسة.

و يذكر من جهة أخرى ان المشروبات الروحية التى يذكر بورخارت وجود أمكنة خاصة لبيعها فى مكة لم يعد لها وجود مطلقا فى أيامه، و قد أكّد له بعض الضباط الأرناؤوط أنهم وجدوا صعوبة فائقة فى تهريب بعض القنانى من هذه المشروبات من جدة الى مكة. ثم يشرح فى الحاشية ان زيارة بورخارت كانت فى عهد استيلاء محمد على باشا عليها، و يعزو السبب الى هذا الوضع بطبيعة الحال.

و من طريف ما يذكره بورتون فى هذا الفصل ان أحد المطوفين كان يصحبه فى ذهابه و إيابه الى العمرة، فأصر عليه ان ينيبه للحج بالنيابة عن ابيه و أمه، فألفى نفسه مجبرا على الأذعان للطلب و أخبره أن أباه يسمى يوسف ابن احمد و أمه فاطمة بنت يونس. ففعل المطوف ذلك و أخذ أجرته المقننة عن عمله هذا.

و قد زار بورتون مقبرة مكة المقدسة كما يسميها، التى كان يطلق عليها «جنة المعلا». و هو يقول أنه شاهد فيها المكان الذى علقت فيه جثة عبد اللّه ابن الزبير بأمر من الحجاج بن يوسف الثقفى، و قبر عبد الرحمن بن أبى بكر الذى يذكر انه موضع تقديس السنة و الشيعة معا، و قبر السيدة خديجة

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۰۳

الكبرى الذى كان مغطى بقماش أخطر، و قبر آمنة والدة النبى عليه السلام الذى أعيد بناؤه بعد ان خربه الوهابيون. و بعد هذا يذكر بورتون قيامه بزيارة الأماكن الأخرى التى ذكرها بورخارت من قبل. و يشير فى الحاشية الى ان الكتب التى رجع اليها تذكر اثنى عشر مكانا آخر للزيارة فى مكة، لا يعرف عن أكثرها غير اسمها. و هى: المختبأ، و دار الخيزران التى كان النبى يصلى فيها سرا فى بداية دعوته، و مولد عمر، و بيت أبى بكر، و مولد جعفر الطيار بالقرب من مقبرة الشبيكة، و المدّعى، و دار الهجرة، و مسجد الراية، الذى غرس النبى رايته فيه عند استسلمت له مكة، و مسجد الشجرة الذى يقول بورتون انه المسجد الذى جعل النبى الشجرة فيه تتقدم اليه و تتقهقر الى الوراء. و مسجد الجعرانة حيث لبس النبى لباس الاحرام و هو المكان الذى ما زال الايرانيون يزورونه، و مسجد ابراهيم، و مسجد ابى قبيس و مسجد ذى طوى.

و أخيرا، يشير بورتون الى دعوة عشاء دعاه اليها رجل يقال له على بن ياسين الزمزمى. و قد أكل فيها أكلات كثيرة منها الرز (البلاد) و الباميا و السبانغ و البريانى و الكمأة و الورق المحشى و الكباب و السلطة و الخبز النفيس، ثم الكنافة و المحلبية و راحة الحلقوم. و قد أكل بعض ذلك بملعقة خشبية. و هو يقول فى هذه الأثناء ان العرب يتجاهلون فن الأكل الفرنسى الذى يطيل الآكلون مدة أكلهم فيه.

و يذكر بالمناسبة ان مكة تتجهز من الطائف و وادى فاطمة بكميات كثيرة من الخضر و الفواكه التى يبلغ مقدارها فى موسم الحج وحده مئة حمل بعير فى اليوم على الأقل.

و مما يؤتى به الى مكة الرقى و التمر و الليمون و العنب و الخيار و ما أشبه.

و آخر ما نذكره عن بورتون مغادرته مكة المكرمة و مجيئه الى جدة حيث كشف للمستر كول القنصل البريطانى فيها عن هويته. و مع انه يثنى على المستر كول، و يذكر انه رفع اسم بلاده عاليا و ألقى دروسا على الشريف و غيره بوجوب احترام الاسم البريطانى، فأنه مع ذلك كله

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۰۴

يقول ان على المسؤولين البريطانيين ان يعينوا فى هذه الجهات قنصلا انكليزيا فى جدة و وكيلا محليا يمثل الانكليز فى مكة نفسها حتى يأتى اليوم الذى تجدهم فيه الحوادث على احتلال أم البلاد الاسلامية فى يوم من الأيام!! و هو يقول أنه يلح فى ذكر هذه الأمور لأنه لا يخرج عن طبع كل انكليزى حينما يود أن يرى الأنكليز متقدمين فى كل مكان، و حتى فى جدة. و لبيان أهمية جدة و مركزها التجارى يذكر بورتون ان خمسا و عشرين الى ثلاثين سفينة تجارية ترد من الهند الى جدة كل سنة، و ان حجم التجارة معها يبلغ حوالى خمسة و عشرين لكا من الروبيات.

المستشرق الهولندى هورغرونيه

اشارة

لقد تسنى للمستشرق الهولاندى سنوك هورغرونيه الاستاذ فى جامعة ليدن ان يقضى سنة كاملة من حياته (۱۸۸۴ - ۱۸۸۵) فى الحجاز، كانت ستة أشهر منها فى مكة نفسها و ستة أخرى فى جدة. و قد عاش فى مكة خلال هذه المدة طالبا من طلاب العلم يدرس العلوم الاسلامية و يتفقه فيها. و كان الاستاذ هورغرونيه قد طبع قبل ذلك كتابا مفصلا باللغة الهولاندية عن مناسك الحج حاول فيه ان يستقصى منشأ هذه الطقوس و تطورها فى الجاهلية و الاسلام. ثم نشر فى ۱۸۸۸- ۱۸۸۹ مجلدا كبيرا فى جزءين بالألمانية ضمنه ما توصلت اليه افكاره المتحيزة عن (مكة) التى سمى المجلد الكبير باسمها. و كان الجزء الأول من المجلد يحتوى على موجز بالوصف الطوبوغرافى فى مكة المكرمة نفسها. و تاريخ كامل للبلد الحرام منذ أيام النبى حتى سنة ۱۸۸۵ م. و لم يترجم هذا الجزء الى الانكليزية على ما نعلم، لكن الجزء الثانى منه ترجمه الى الانكليزية المستر جى أيج موناهان أحد قناصل. الانكليز السابقين فى جده، و نشره سنة (۱)

Hurgronje, C. Snouck- Het Het Mekkaansche Feest, ۰۸۸۱ Leyden

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۰۵

۱۸۳۰ (لوزاك) بعنوان (مكة فى القسم الأخير من القرن التاسع عشر) .

و يبحث هورغرونيه فيه عن الحياة اليومية فى مكة، و عادات أهلها و سكانها، مع أحوالها العلمية، و الاندنوسيين الساكنين فيها، الذين يطلق عليهم كلهم اسم (جاوا) على ما يقول.

و يبدأ هورغرونيه بحثه عن سكان مكة فيقول ان من يزور مكة يلاحظ فى شوارعها أنواعا عدة من القوميات، من الأتراك ذوى البشرة البيضاء الى النوبيين ذوى البشرة السوداء الطمطمانية. ثم يقول ان الجاليات القومية المختلفة هذه تأخذ فى الغالب موقفا غير ودى تجاه الجاليات الأخرى، و أن أغلب هؤلاء يقيمون فى مكة بقصد المجاورة و التبرك. لكن ذلك لا يعنى عدم وجود جماعات تقيم فيها لأغراض و مصالح دنيوية. على أن الأغراض الدينية، و شؤون العبادة، التى تدعو الكثيرين من سكان مكة الى الأقامة فيها الى آخر العمر، تقاس بالمقياس المادى الدنيوى كذلك كما يستفاد من القول العربى (حج مبرور، و ذنب مغفور، و تجارة لا تبور).

و يقول هورغرونيه ان من مظاهر المصالح الدنيوية لأولئك السكان وجود حركة تجارية غير يسيرة فى مكة، و لا سيما فى موسم الحج. و ينشط فى هذه الحركة على الأخص الهنود الذين يحصلون على أرباح طائلة بالمتاجرة، و الاقراض. و يقول كذلك ان الربا و ان كان الشرع الاسلامى يحرمه تحريما صارما، فان اولئك المسلمين يتحايلون على النصوص الشرعية و يجرون معاملات الاقراض بالفائدة عن طريق ما يسمى بالمرابحة. ثم يذكر ان من جملة أساليب التحايل: اولا- ذكر مبلغ أكبر من المبلغ الذى يقبضه موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۰۶

المستدين فى السند المختص. ثانيا- قيام الدائن ببيع سلعة من السلع بسعر فاحش يدفع بعد أجل مسمى ثم يشتريه من جديد منه. و معظم الدائنين هم من الطبقة المتوسطة عادة.

و من الذين ينافسون الهنود فى مكة فى هذا المسعى الحضارمة الذين يأتون اليها فى الأعم الأغلب و هم لا يملكون شروى نقير، لكنهم يتصفون بقابلية فائقة للتأقلم و التحمل او الجلد غير المتناهى. فليس هناك أى حس او شعور شرفى، على ما يقول هورغرونيه، يمنعهم عن امتهان المهنة التى تدر عليهم شيئا من الربح عند الحاجة. و لذلك يلاحظ ان كثيرا منهم كان يبدأ حمالا بسيطا فى جدة ثم ينتهى و هو من التجار الأغنياء. و يأتى الكثيرون من اليمن لنفس السبب و العمل فى بعض الأحيان، لكن اليمانيين لا يمكن ان يضاهوا الحضارمة فى هذا الشأن.

و بعد ان يذكر هورغرونيه طبقات السكان الفقيرة الأخرى من البدو و المغاربة و الأفغان و غيرهم الذين يقيمون فى مكة، و يمتهنون مختلف المهن البسيطة، يذكر بصورة خاصة التكروريين السود الاحرار، و المعتقين من العبيد. و من الغريب ان يعمد استاذ مثل هورغرونيه الى تسقط السوءات و المبالغة فيها بالشكل الذى يقحم فيه ذكر الفواحش من النساء فى هذا الموضوع. فهو يضيف الى طبقات السكان هذه النساء اللوانى يأتين الى مكة، من مصر على الأخص، ليصبحن زوجات و فتيات بطريقة يسترن فيها بغاءهن على ما يقول، و هى طريقة «الزواج بالمقاولة».

و الملحوظ أنه يثنى بصورة خاصة على طبقة الاندنوسيين من السكان، الذين يسميهم باسم «جاوا». فهم يمتازون من بين الجميع بكونهم لا يأتون الى مكة بقصد الربح و المتاجرة، و انما من أجل المجاورة و الأغراض الدينية فى الغالب. و مع عدم استبعادنا لما يذكره عن هؤلاء المسلمين الطيبين، فأننا لا بد من ان ننوه هنا بأن منشأ اهتمام هورغرونيه الخاص بهذه الطبقة من سكان مكة قد يرجع الى كونه هولانديا، لأن هولاندا ظلت تحتل

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۰۷

أندنوسية، و تستغلها مدة طويلة من الزمن.

و مع كل هذا الاختلاف الملحوظ فى طبقات المجتمع المكى فان الطابع الذى يطغى فيه هو طابع بلاد العرب الغربية، فى لغته و عاداته و طباعه، الذى يفرض عليه من أعلى، بوجود العدد الكبير من الشرفاء و السادة و غير هم من أبناء الأسر المكية العريقة فى القدم، و من أسفل يتوارد سائر أبناء الحجاز و أفراد قبائل حرب باستمرار عليه. على انه يقول من جهة أخرى ان سكان مكة ال يخضعون بسهولة للشرفاء و من لف لفهم، و لذلك نجد ان لهم نزاعاتهم و تقاليدهم الخاصة. و بينما نرى ان اللغة و العادات و أساليب العيش المعروفة فى بلاد العرب الغربية هى السائدة، نجد من جهة أخرى ان الجميع يجتمعون فى صعيد واحد هو صعيد استغلال الحجاج و الاستفادة منهم، لأن جميعهم من اكبر شريف فيهم الى الشحاذ فى الشارع يعتاشون بصفة مباشرة و غير مباشرة على توارد الحجاج و حركتهم.

و يتطرق هورغرونيه كذلك الى النخاسة و المتاجرة بالعبيد فيقول ان جميع أنواع الأفريقيين منهم كان يمكن الحصول عليهم بكثرة يومذاك عن طريق الدلالين (النخاسين). وقد وجد فى سوق النخاسة الخاص، الذى كان عبارة عن قاعة كبيرة بالقرب من باب الحرم الشريف (باب الدريبة) ان العبيد من كلا الجنسين كانوا يعرضون فيه، و منهم من كان قد استورد حديثا الى السوق و منهم من كان يباع على حساب مالكه السابق.

و هو يصف السوق و ما فيه من «بضاعة» و صفا مفصلا لا مجال لنقله هنا، و انما نكتفى بالقول بان ما تحسس به هورغرونيه أكثر من أى شىء آخر فى هذا الشأن هو ان تلك البضاعة البشرية كانت تعرض فى سوق النخاسة و كأنها بقر يعرض للبيع، و لا سيما النساء الشابات. لكن التدقيق فى الأمر سرعان ما يظهر ان اولاء الشابات لم يكن يبدو عليهن أنهن مشمئزات من ذلك على ما يقول.

و يتعمق هورغرونيه فى شؤون العبيد الأفريقيين و كيفية الإتيان بهم

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۰۸

على أيدى «الجلابة»، و فى تأثير الأسلام عليهم فى مواطنهم الأفريقية و خارجها، فيقول ان العرب و المسلمين ينشرون الأسلام اينما يذهبون فى أفريقية. و ليس بوسع حتى المبشرين المسيحيين ان ينكروا تأثير ذلك فى قرى العبيد التى سرعان ما تصبح نظيفة، و ينصرف سكانها الى العمل المثمر فى الزراعة و الصناعات البسيطة و التعلم، و كثيرا ما تتميز بهذا القرى المسلمة عن القرى الوثنية. و يقول متحسرا ان المسيحيين المخلصين كانوا يشعرون بالخجل على الدوام حينما يلاحظون عند تقصيهم للحقائق ان العبيد نصف العراة الذين يمثلون الحضارة الأوربية يعرفون بلبس القبعات الكبيرة و شيوع المشروبات الروحية بين ظهرانيهم، بينما يجدون من جهة أخرى ان المسلمين السود ينصرفون الى الأنتاج و العمل المثمر. ثم يخلص من ذلك، بعد كثير من البحث و السرد، الى ان الآلاف من العبيد و الأحباش الذين يؤتى بهم الى البلاد الأسلامية و يتذكرون نشأتهم الأولى فى بلادهم الأصلية يعتبرون أنفسهم بأنهم قد جعلوا أناسا من البشر عن طريق الرق و العبودية. و تجدهم فى العادة قانعين بحالهم، و غير راغبين فى العودة الى بلادهم. و لذلك كله يدعو هورغرونيه الى عدم مكافحة التجارة بالرقيق بالأساطيل و القوة، و انما بشيء أحسن من ذلك. فعندما يتعلم الأفريقيون أنفسهم معنى الحياة و قيمتها فان هذه التجارة الممقوته تبطل من أساسها. و لا شك ان مرور الوقت قد برهن على هذا القول الذى كان يدعو اليه هورغرونيه. و يلاحظ ان هذا الكاتب يعتذر عن توسعه فى موضوع الرق و العبيد نظرا للأهمية التى كانت تعطى له منذ الأزل فى المجتمع المكى نفسه، و لأن المشكلة كانت من مواضيع الساعة فى تلك الأيام.

و يعمد بعد ذلك الى ذكر الكيفية التى يستفيد بها أهالى مكة من الحجاج.

فيبدأ بالأشارة الى آل شيبة سدنة الكعبة، و يقول ان هذه الأسرة تستفيد من بيع قطع الكسوة القديمة عند تجديدها كل سنة، و من أيام فتح الكعبة و الدخول اليها. فأن أيام فتحها معروفة، فهى تفتح على ما يقول فى يوم

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۰۹

۱۰ محرم الحرام، و ۲۷ رجب، و ۱۵ شعبان، و بعض أيام رمضان، و فى أشهر الحج. لكنها قد تفتح فى أيام غير هذه للأثرياء الغرباء الذين يدفعون مبالغ غير قليلة عن ذلك. على ان البعض من أغوات مكة الخصيان يستفيدون شيئا من هذه المناسبات كذلك.

و يذكر بعد ذلك طبقة «الزمزميين» فيقول ان السقاية فى مكة كانت فى ايدى العباسيين، يتوارثونها جيلا بعد جيل، و يتولون شؤون زمزم بموجبها. و منذ ان تخلى العباسيون عن ذلك بقى امر الاستفادة من مياه هذه البئر المقدسة شيئا مباحا للجميع. لكن الحقيقة هى ان هناك طبقة كبيرة خاصة تحتكر لنفسها أمر توزيع مياه زمزم، يطلق عليها «الزمزمية».

و هؤلاء جميعهم كانوا يحتفظون بجرارهم فى الحرم الشريف و دوارقهم الخزفية التى تبرد الماء، و هذه تؤجر للحجاج فيحتفظ لهم بها ليشربوا منها عند الحاجة. و قد يقوم الزمزميون بخدمات أخرى للحجاج فيتقاضون عنها شيئا من المال أيضا.

و يشير هورغرونيه كذلك الى قوّام أماكن الزيارة المقدسة أيضا مثل (مسقط ستنا فاطمة) الذى سماه بورخارت (مولد فاطمة)، و غيره من الأماكن التى مرت الأشارة اليها من قبل. على انه يتوسع فى ذكر طبقة «المطوفين» الكبيرة، و يقول ان المطوف كان و ما زال يقوم هو و أفراد أسرته بشؤون الحاج و خدمته من جميع الوجوه. و المعروف ان المطوفين يختصون عادة بخدمة الحجاج العائدين لقوميات و ملل خاصة، فهناك مطوفون للأتراك و آخرون للعراقيين، و غيرهم لأهل الشام، و غير ذلك. و هم يستقبلون زبائنهم من جدة و غيرها، و يأخذونهم الى مكة فيستضيفونهم و يتولون أخذهم الى الحرم الشريف، ثم الى عرفات و منى و المزدلفة و غير ذلك. و يكوّن هؤلاء عصبة خاصة لها قوتها و أهميتها فى مجتمع مكة، و يختلفون فى مستواهم الحضارى و الثقافى و فى منزلتهم الاجتماعية تمام الاختلاف.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۱۰

ثم يتطرق الى ذكر الخدمات الخاصة الأخرى، و الباعة فى الأسواق، و الصرافين، و غيرهم ممن يستفيد من توارد الحجاج على مكة و حركتهم.

ا يتطرق الى ذكر أصحاب البيوت و الشقق، الذين يؤجرونها بأثاثها خلال الموسم.

و مما يـذكره هورغرونيه فى هـذا الباب من كتابه كـذلك، عودة مكـة الى الهـدوء النسبى فى محرم الحرام حين يخرج منها عدد كبير من الحجاج عائدين الى بلادهم. لكنه يشير الى فتح الكعبة فى يوم عاشوراء و تخلف عدد كبير من الحجاج من أجله، و يشير أيضا فى الحاشـية (بمناسـبة ذكر عاشوراء) الى ان الأيرانيين الموجودين فى مكة يقومون سـرا بأحياء ذكرى بطولة الحسين فى هذا اليوم. اما فى جـدة فأنهم أخـذوا يحيون هذه الذكرى بصـفة علنية منذ وقوع الحرب الروسـية التركية قبيل تلك الأيام، و لا يدرى ما هى العلاقة بين الترخيص بأقامـة المآتم الحسـينية و هـذا الحادث. و يقول هورغرونيه ان الايرانيين يجتمعون هناك خلال العشـرة الأولى من محرم فى دار كبيرة يسـتطيع الغريب ان يـدخل اليهـا كـذلك، و انه حضـر المـأتم بنفسه فى تشـرين الأول ۱۸۳۴ فوجـد ان الحـاكم التركى كان حاضرا فيه أيضا بدعوة من القنصل الأيرانى. و لم يشرب هذا الحاكم (الشربت) فقط هناك و أنما بكى بكاء مؤثرا كذلك.

و يتطرق علاوة على هـذا الى ذكر المواسم التى يحيى فيها أهالى مكـة ذكرى بعض الأولياء، فيخرجون الى قبورهم و يحتفلون بقربها. و هنـاك أيام خاصـة فى السـنة لمثل هـذه الاحتفالات، و هى أيام «سـتنا ميمونـة» و «الشـهداء» و «الشـيخ محمود» و «المهـدلى». و يوم الشـهداء هذا هو اليوم الذى سقط فيه الحسين بن على و أنصاره شهيدا فى أسفل جبل فخ، بعد ان جاء من ينبع ثائرا على العباسيين سنة ۷۸۶ للهجرة. على ان بعض

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۱۱

المكيين يعتقدون ان هذا المكان يرقد فيه البعض من الصحابة مثل عبد اللّه بن عمر.

الحياة العائلية

و لقـد أفرد هورغرونيه قسـما خاصا من الكتاب للحياة العائليـة فى مكة يومذاك (۱۸۸۵) . و قـد عالج هذا الموضوع من جميع نواحيه معالجة تفصيلية مملة فيها الكثير من الوهم و التحامل فى بعض الأحيان. فهو يقول ان المرء فى مكة حينما يتكلم عن حريمه فأنه يقصد زوجته و خادماته أو أيـة امرأة أخرى تعيش فى بيته. ثم يـدعى ان الرابطـة الزوجيـة عند المسـلمين فى مكة و غيرها غير متينة، و الا لما وضـعت على النساء القيود و فرض الحجاب و العزلـة عليهن. و يـذهب الى القول بان المرأة غير المتزوجة، سواء ا كانت عزباء ام باكر، تعتبر عبئا ثقيلا على أهلها و أقربائها مالم يكونوا أثرياء. و لذلك فان امرأة مثل هذه تتشبث بان تكون شـريكة موقتة لرجل من الرجال فى حياته، و بـذلك تحصل على معيشـة مجانيـة لنفسـها عـدا نوع من المهر الذى يتفق عليه اذا كانت أحوال الرجل المالية تساعد على ذلـك، كمـا تحصل على خادم أو خادمـة من العبيـد. و حتى بعض النساء الثريات يتمنين لو يحصـلن على مثل هـذا الزواج بالمقاولـة، ليتخلصن من اسـتغلال أقـاربهن لهن. و يقول فى مناسـبة أخرى ان الغربى بينمـا يجـد صـعوبة فى الأـفتراق حتى عن خليلته فـأن علاـقة الزواج المستديم، و الحب الصادق بين الأزواج، بعيدة كل البعد عن تفكير الرجل المسلم!!

و مع انه يقر ان القاعـدة العامـة فى حياة مكـة العائليـة هى الزوجـة الواحـدة، و ان تعـدد الزوجات يصـعب وجوده الا عند الأثرياء، فأنه يخوض فى استنتاجات كثيرة غير واردة عن الخيانة الزوجية التى يعتبرها قاعدة عامة فيها.

و اورد هورغرونية الشىء الكثير من هذا و قد اكتفينا بالاشارة اليه منتقلين الى موضوع آخر.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۱۲

الحياة العلمية

و يبحث هورغرونيه بالاضافـة الى ذلك فى حياة مكـة العلمية فيفرد لها بابا خاصا يزيد على الخمسـين صـفحة من الكتاب. فيتطرق فى بحثه الى نشوء الفقه الأسـلامى، و العلوم الدينيـة، و الى العلوم الأخرى التى قـد يدرسـها طلبـة العلم فى مكـة المكرمة. كما يتطرق الى

المذاهب السنية الأربعة و انتشار كل منها فى مكة و غيرها، و الى الوظائف الدينية و ما أشبه. و لا يتسع المجال هنا الى ايراد الكثير مما يقوله فى هذا الشأن لأن معظمه أشياء عامة تختص ببلاد المسلمين جميعها، لكننا سنحاول ذكر شىء مما يختص بمكة ذاتها.

فهو يقول ان الدراسة الدينية تتم فى الحرم الشريف فى الأعم الأغلب، على شكل حلقات تعقد بعد الصلوات الخمس. و تتم على المذاهب الأربعة المعروفة، لكنه يذكر ان الاساتذة او العلماء الذين كانوا يتولون التدريس فى الحلقات كان قليل منهم من الحنابلة الذين يشابه فقههم فقه الوهابية على ما يقول. و كانت حلقات المالكية تزيد فى عددها على حلقات الحنابلة بقليل لان موطن المالكية الحقيقى هو البلاد الأفريقية المسلمة عدا مصر السفلى. فان أهل السودان و العبيد التكروريين، و الأحباش المسلمين، و جميع المستسلمين من بلاد العبيد الأخرى، و الذين يتبعون الطريقة السنوسية هم من معتنقى المذهب المالكى. اما المذهب الحنفى فقد كان هو المذهب الرسمى للأتراك، و لذلك كانت تكثر حلقاته التدريسية فى الحرم الشريف على الدوام. و قد كان الأتراك يعينون فى بداية الأمر فى مكة لكل مذهب قاضيا خاصا، بالنظر لطبيعة مكة الدولية بالنسبة للمسلمين فى انحاء العالم كافة. غير انهم سرعان ما لاحظوا ان تنفيذ القانون لا بد من ان يكون بأيديهم لتأمين مصالحهم فى البلد الحرام، فصاروا يقتصرون على تعيين قاض حنفى واحد فقط برغم وجود أكثرية شافعية فى مكة نفسها. و كان (۱) الص ۱۵۳- ۲۱۲.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۱۳

هذا القاضى يتولى البت فيما يختص بقانون الأحوال الشخصية، اما سائر الأمور فقد صار يبت فيها بموجب «القانون المنيف» و هو القانون المدنى الجديد.

و قد كان من الطبيعى و الحالة هذه ان يتقاضى الأئمة الحنفية فى الحرم الشريف أكبر الرواتب و أكثرها فى مكة، على ما يقول هورغرونيه.

فقد كان فى القائمة المرسمية لسنة ۱۸۸۵- ۱۸۸۶ خمسون الى ستين اماما يتقاضون رواتب من واردات الحرم الشريف، و كان حوالى ثلث هذا العدد من الحنفية و بينهم أئمة من الهند و آسية الروسية و مكة، و غير ذلك من البلاد الخاضعة للامبراطورية العثمانية. و مع كل هذا فقد بقى المذهب الشافعى له أهمية كبرى فى مكة، و استمر أئمته على تدريس حلقاتهم غير القليلة فى الحرم الشريف. و يعزى انتشاره فى هذه الجهات الى ان العباسيين كانوا يرعونه خلال مدة حكمهم كلها، و كان المذهب الذى ينافسه فى مكة يومذاك المذهب الشيعى الزيدى الذى كان يكثر معتنقوه فى جنوب و غرب الجزيرة العربية.

و هنا يقول هورغرونيه ان الشرفاء كانوا انتهازيين بالنسبة للمذهب الذى يعتنقونه، لأنهم استبدلوا عقيدتهم الزيدية الشيعية بالشافعية التى كانت تعتنقها الغالبية العظمى من رعاياهم أهالى مكة. ثم يذكر ان بعض المناطق فى جوار مكة ما تزال فيها بقايا قوية من الشيعة الزيدية التى سيطرت على غربى الجزيرة العربية فى يوم من الأيام. و بعد ان يفصل انتشار الشافعية و انحسار الشيعة الزيدية أمامها يقول انه ليس من المستغرب ان يتولى عدد من علماء الشافعية منصب «شيخ العلماء». و ان يبلغ عدد الأئمة الشوافع فى الحرم الشريف عشرين الى ثلاثين من مجموع خمسين الى ستين. و تعد حلقات الشافعية من أهم نماذج الحركة العلمية فى مكة. و أغلب أئمة الشافعية

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۱۴

من متولدى مكة نفسها مثل شيخ العلماء أحمد دحلان، و السيد عبد اللّه الزواوى الذى كان أبوه المشهورمحمد صالح رجلا شريفا من أئمة الصوفيين، و أبى بكر الشطا. و ممن اشتهر منهم كذلك أئمة أكملوا دراستهم فى الأزهر مثل محمد البسيونى و عمر الشامى و مصطفى عفيفى و محمد المنشاوى. و كان هناك علماء شوافع من أصل حضرمى أيضا من مثل محمد سعيد بابصل الذى يشغل منصب أمين الفتوى لشيخ العلماء، و من أصل داغستانى مثل عبد الحميد الداغستانى الذى كان البعض يعتقد بأنه أعلم من سيد دحلان.

و يورد هورغرونيه معلومات كثيرة عن حلقات التدريس و طلبتها، و العلوم التى تدرس فيها، و أوقاتها، و الأصول المرعية فيها، و غير ذلك مما لا يمكن أيراد شيء منه هنا لعدم تيسر المجال الكافى له.

فى أواخر القرن التاسع عشر

كانت العلاقات الموجودة بين الشرفاء الحاكمين فى مكة و الولاة الذين كانوا يعينون من استانبول قد أخذت تزداد توترا فى العشرات الأخيرة من القرن التاسع عشر. فقد أخذ الولاة يغتنمون الفرص لحصر السلطات المختلفة بأيديهم، و جعل الشرفاء حكاما بالأسم فقط و هياكل دينية لا يملكون سوى مناصبهم المبجلة. غير ان الشريف عبد المطلب، الذى كان ينتمى الى ذوى زيد، ما ان تولى الحكم للمرة الثالثة، بعد قتل الشريف حسين، حتى أخذ الصراع يحتدم بين الطرفين و ظلت شخصيته تطغى على الحكم و تفرض نفسها فى كل مكان بحيث فكر أولو الأمر فى الباب العالى بأن يضعوا حدا لذلك.

فتعين فى مكة فى تشرين الثانى ۱۸۸۱ قائد فعال جديد يدعى عثمان نورى باشا، و اعيد تعيين الوالى السابق عزت باشا فيها. و بعد خطة ارعة اتخذت فى مكة احيط قصر الشريف عبد المطلب بقوات كافية،

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۱۵

و قرىء عليه أمر عزله، ثم أخذ محجوزا عليه الى الطائف . و بعد ذلك نقل الى قصره الخاص فى منى و بقى فيه حتى وافته المنية فى ۲۹ كانون الثانى ۱۸۸۶. و قد ارتأت الجهات المسؤولة فى الباب العالى ان يتولى الشرافة الكبرى فى مكة الشريف عون الرفيق الذى كان فى الخمسين من عمره.

و مع ان هذا الشريف كان يتصف بالميل الى التجدد وسعة الأفق، فأنه كان يؤثر الانعزال فى كثير من الأمور و يتحاشى التحدث فى الشؤون السياسية.

لكن الوالى التركى تمادى فى خطته و لم يترك مجالا للشريف عون بممارسة سلطته و تنفيذ مآربه. و قد بلغ الاستيلاء فى الاوساط الشريفية فى مكة و غيرها حدا جعل الشريف يقدم على عمل لم يقدم عليه شريف آخر من قبل. فقد قرر ان يغادر مكة الى المدينة مع أفراد أسرته البارزين، و عدد من أشراف مكة و تجارها، و القاضى الشافعى مع جملة من العلماء و رجال الدين.

فتمت هذه الهجرة الفريدة فى بابها خلال الليل من دون علم السلطات المسؤولة بها. و أرسلت الرسل من المدينة الى استانبول تحمل احتجاج الشريف الى المسؤولين و تذمراته، و تخبرهم بأن الشريف مع وجوه مكة و أشرافها لن يعودوا اليها حتى يكون الوالى قد نقل منها الى الأبد. و لما كان السلطان يومذاك يكن احتراما خاصا للشريف عون الرفيق، تحتم على الباب العالى ان يذعن لمشية الشريف فنقل الوالى عثمان باشا الى حلب فى الحال.

فعاد الشريف الى مكة، و نحى الموظفين الذين كانوا منسوبين الى الباشا السابق عن وظائفهم. و حينما تولى الوالى الجديد جمال باشا الحكم فى مكة كان يتصف بالكثير من المرونة و الميل الى تلبية رغبات الشريف.

و حينما توفى الشريف عون فى ۱۹۰۵ بادر الوالى أحمد راتب باشا الى ترشيح ابن اخت عون (على بن عبد اللّه بن محمد بن عون) فى مكانه، ليفسح لنفسه مجال السيطرة على الأمور فى مكة نظرا لصغر سن الشريف

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۱۶

وحداثة عهده فى الشؤون العامة. و فى ۱۹۰۸ أعلن الدستور العثمانى و عزلت الحكومة التركية الجديدة أحمد راتب نفسه، ثم نحى الشريف على عن الحكم فى مكة فالتجأ الى الانكليز فى مصر. فتعين الشريف عبد الأله باشا فى مكانه، و كان هذا رجلا طاعنا فى السن قضى معظم حياته فى استانبول، و قد قدر له ان لا يمارس الحكم فى مكة برغم تعيينه شريفا أكبر فيها لأنه توفى قبل ان يتوجه

اليها. و قد ترشح فى مكانه رجلان بارزان من الشرفاء، الشريف على حيدر من ذوى زيد و الشريف حسين ابن على من ذوى عون. و نظرا لأن الشريف على حيدر كان متزوجا بامرأة انكليزية فى استانبول، فقد رأت الجهات المختصة ان تفضل الشريف حسين عليه فصدر الفرمان بذلك و تسلم الخلعة المعروفة .

الحسين بن على

كان الشريف حسين بن على قد دعى من مكة الى الأستانة ليقيم فيها مع أسرته سنة ۱۸۹۳، فى السابعة و الثلاثين من عمره لأنه كان يتصف بروح ثورية على ما يقول دى غورى فى (حكام مكة). و كان له يومذاك ثلاثة أولاد، على و عبد اللّه و فيصل، أدخلهم فى مدارس استانبول.

و بقى هناك خمسة عشر عاما فى حكم المعتقل، و لم يغادرها الا فى ۱۹۰۸ حينما توجه الى مكة ليشغل منصب الشرافة الكبرى.

و قد تم فى عهده أنشاء سكة حديد الحجاز التى توصل الشام بالمدينة فتسهل وصول الحجاج الى مكة. و يقول ديغورى انه بينما كانت سكة الحديد تمتد خطوطها ما بين سهول هذه البلاد العربية و وهادها، أخذت تنتشر فى أنحاء البلاد العربية التابعة للامبراطورية العثمانية آراء و أفكار جديدة عن القومية العربية و أحيائها. فقد أدى صدور الدستور العثمانى

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۱۷

فى ۱۹۰۸ الى ان تفلت الآمال و الأمانى القديمة من عقالها و تنتشر فى البلاد بالطرق البخارية. و فى مثل هذا الجو توجه الحسين بن على الى مكة، فاعتبر موالیا للأتراك فى أول الأمر لكنه حينما أخذ يجرد الحملات على العسير و القصيم لأخضاع العشائر فيهما، و استعادة نفوذ الشرفاء بينهم، صار الباشا العثمانى فى الحجاز يشك فى إخلاصه و سلوكه.

و قد استطاع ضابط من الضباط الانكليز يدعى ويفل ان يحج متخفيا الى مكة خلال السنوات الأولى من عهد الشريف حسين، و يكتب كتابا خاصا عن مغامرته هذه بعنوان (حاج عصرى فى مكة). و يصف ويفل الملك حسين و الحفلة الرسمية التى كانت تقام سنويا فى العيد لتأييد تنصيبه فيما يأتى:

.. لقد كان هذا يوم العيد، و كان كل فرد قد لبس أحسن ما عنده من لباس، فصار المخيم كله يبدو فى منظر جذاب. و قد ذهبنا صباحا لنشاهد حفلة تقديم الهدايا الى الشريف، الذى كان مخيمه و هو مقام فوق مرتفع اصطناعى يتألف من أربع سرادقات عالية و عدد من الخيم الصغيرة.

و كانت صفوف الجنود تكوّن فيما بينها ممرات للمدعوين، و تمنع الناس عن التقدم الى الأمام .. فصار كبار المدعوين يصلون واحدا بعد آخر مع الحاشية و يستقبلهم الشريف فيجلسهم على منصة تقوم فى الطرف البعيد من السرادق الكبير. و كان هؤلاء هم وفود البلاد الأسلامية، و حاكم مكة، و بعض و جهاء المسلمين القادمين من الهند و غيرها، و غيرهم من الناس المعروفين. و بعد ان اجتمع الجميع و أخذ كل مقعده المعد له وصل السفير التركى مع هدية السلطان الموضوعة فى صحن من الذهب. و يقول ويفل و لا اتذكر أى شىء كانت تحتوى عليه الهدية لأنها كانت مغطاة بقطعة من القماش، لكننى علمت انها كانت تتألف فى السابق عادة موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۱۸

من مبلغ نقدى بعدة الاف. فجاء الشريف الى حافة المنصة لاستقبال هذا الزائر الكبير و مرافقته الى الداخل.

و ما ان انتهت المراسيم و ركب السفير التركى للرجوع من حيث أتى حتى قام وجهاء مكة و الحجاج الأجانب للسلام على الشريف و تقديم التبريكات له .. و الشريف الحالى، السيد حسين، رجل محبوب جدا. و هو بالنسبة لما شاهدته بنفسى أهل لهذا التقدير كله، لأنه فى الوقت الذى يحافظ فيه على هيبته و وقاره فى المنصب يحاول أحياء تقاليد النبى و الخلفاء الأقدمين الذين كان يستطيع الجميع

الاتصال بهم و الدخول عليهم، و يضعون و صايا الأخوة و المساواة الواردة فى القرآن فى موضع التطبيق .

الثورة العربية

و يصف ديغورى فى (حكام مكة) طموح الشريف حسين، و كيفية اتصاله بالأنكليز و انتفاضه على الأتراك بمساعدتهم، بما سمى بالثورة العربية التى بدأ بها فى ١٠ حزيران ١٩١۶ (٩ شعبان). فهو يقول ان الحسين أقدم على الثورة فى هذا الوقت بنتيجة المراسلات التى تبودلت مع السر هنرى مكماهون المندوب السامى البريطانى يومذاك فى مصر، و بعد زيارة رونالد ستورز (السكرتير الشرقى لدار الاعتماد فى مصر) للحجاز، فضلا عن خوفه من قيام الحملة التركية، التى كان يؤمل وصولها الى المدينة المنورة فى طريقها الى اليمن، بعزله و تنحيته عن منصبه فى مكة.

و قد بدأت الثورة فى يوم ٩ شعبان (١٠- ۶- ١٩١٨) فى الساعة الثالثة و النصف من منتصف ليلة السبت، بأطلاق النار من البنادق على الثكنة العسكرية فى مكة و بناية الحميدية التى كانت تضم الدوائر الحكومية.

ثم فرض الحصار على القوات التركية التى كانت موجودة فى جميع القلاع

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ٣١٩

الأخرى. و كان اطلاق النار بهذا الشكل مفاجئا للموظفين الأتراك و حاميتهم، و لذلك اتصل الضباط بقصر الشريف للاستفسار عن جلية الأمر فقيل لهم ان البلاد قد اعلنت استقلالها، و ان عليهم ان يستسلموا فى الحال فرفضوا ذلك. و بعد حصار استدام ثلاثة أيام استسلمت حامية مكة، و تبعتها بعد ذلك حامية الطائف التى كان على رأسها حاكم الحجاز العام غالب باشا. و فى ٩ تموز تمّ الاستيلاء على جميع النقاط العسكرية الأخرى فى مكة. و فى تشرين الثانى من تلك السنة نودى بالشريف حسين ملكا على البلاد العربية كلها، لكن الحكومتين البريطانية و الفرنسية أبلغتا الشريف فى كانون الثانى ١٩١٧ أنهما تعترفان به ملكا على الحجاز فقط.

و يقول الكولونيل ديغورى ان البريطانيين كانوا يطلبون من الملك حسين أكثر مما ينبغى، لأنهم كانوا يسعون لشرائه بصراحة على ما كان يبدو.

فأن حزنه و دهشته لما تمخض عنه مؤتمر سان ريمو، حول الانتداب على فلسطين و العراق الذى منح الى بريطانية، و المعاهدة التى أريد عقدها معه فى الأخير بتقديم الحماية له و مده بالمنح المالية لقاء اعترافه بأطماع الصهيونية فى فلسطين، أمور تذكرها جميع المراجع المختصة على ما يقول. و قد ألحّ فى المفاوضات التى تكرر إجراؤها حول عقد المعاهدة على عدم إفساح المجال لليهود فى فلسطين لأنهم كانوا يستهدفون إقامة دولة خاصة بهم فيها. و فى آب ١٩٢٣ كتب الملك حسين الى رئيس الوزارة البريطانية يستنجزه الوعود التى بذلوها له خلال الحرب و يطالبه بوجوب وضعها فى موضع التنفيذ، لكنه لم يحصل على رد عن ذلك مطلقا و فى تلك الاثناء تمّ زحف الوهابيين على الحجاز، و ما حل تشرين الأول حتى تنازل هو عن العرش. و حينما استنجد بالبريطانيين لمساعدته فى الوقوف بوجه الوهابيين أجيب على آخر نداء وجهه فى هذا الشأن بأنهم يعتقدون بان النزاع بين الطرفين كان نزاعا دينيا لا يستطيعون التدخل فيه. و بذلك عاد الحكم مرة أخرى الى الوهابيين و كان الملك حسين قد تنازل عن الملك الى ابنه

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ٣٢٠

الكبير الملك على. و يختم ديغورى بحثه هذا بقوله و قد قدر للحسين ان يقضى نحبه و هو أبى كسير فى منفاه بعمان يوم ۴ حزيران ١٩٣١، و ان يموت ابنه على فى بغداد يوم ١۴ شباط ١٩٣٥.

لورانس بلاد العرب

و كان من مقتضيات المساعدة البريطانية للشريف حسين فى مكة، حينما ثار على الأتراك فى ۱۹۱۶، أن أوفد الى الحجاز عدد من رجال الاستخبارات البريطانية الذين كان يضمهم فى القاهرة ما يسمى ب «المكتب العربى». و كان من أهم هؤلاء و أكثرهم اشتغالا مع الحسين و أنجاله خلال الثورة العربية الكابتن تى أى لورانس، الذى حصل على شهرة واسعة خلال اضطلاعه بهذه المهمة حتى سمى بلورانس بلاد العرب .

و قد دون لورانس مذكراته و خبرته، و رسائله فى كتاب (أعمدة الحكمة السبعة)، و كتاب (ثورة فى البادية) و كتاب (رسائل لورانس السرية) .

لكن الذى اشتهر منها هو كتاب اعمدة الحكمة السبعة الذى طبعت منه طبعات عديدة.

و لا ـ شك ان لورانس كان قد اتصل بالملك حسين و ابنائه الأربعة اتصالا وثيقا، و لا سيما الأمير فيصل، و تجول كثيرا فى البلاد الحجازية عدا مكة المكرمة و ما يحيط بها من المنطقة المحرمة على غير المسلمين. و لذلك لم نجد فيما طبع من كتاباته شيئا خاصا عن مكة بالذات، لكنه كتب عن الثورة من نواحيها المختلفة بطبيعة الحال، و عن الحسين و أبنائه و حكومته موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۲۱

و لا ـ سيما فى «رسائله السرية» التى كان يبعث بها خلال اضطلاعه بالمهمة الى المكتب العربى فى القاهرة يومذاك، و الى مراجعه الأخرى. و قد وجدنا من المناسب أن ندرج شيئا من ذلك هنا .

فهو يقول عن نشوء الثورة فى الحجاز، كما سردها فى حديثه اليه «سيدى فيصل» فى كانون الأول سنة ۱۹۱۶، ان أخاه عبد اللّه كان يدور فى خلده أول الأمر بأن الحجاز يستطيع مناجزة تركية بمساعدة الجيشين اللذين يمكن تشكيلهما من العراقيين و السوريين، و بمعونة الأنكليز السياسية. غير ان الفكرة أهملت نظرا لما أبداه فيصل بأن تركية كانت قوية بحيث لا يمكن الوقوف فى وجهها. و حينما أعلنت الحرب العظمى قرر الشريف حسين ان فرصته قد سنحت، فبعث فيصلا الى الشام لتمهيد الطريق الى ثورة فى سورية نفسها فوجد ان الوقت لم يكن مناسبا و أشار على والده بالتريث. غير ان عبد اللّه أبدى لأبيه ان فيصلا كان يتهيب و يخاف من إشعال الثورة، و لذلك تم إشعالها فى حزيران ۱۹۱۶. و كان الشريف قد أعد البدو للأمر قبل أشهر و أخبرهم بأن لا يتحركوا قبل ان تصل أوامره اليهم.

و فى رسالة من رسائل لورانس السرية منشورة فى نشرة المكتب العربى الصادرة فى ۲۶ تشرين الثانى ۱۹۱۶ نراه يبدى ملاحظات شخصية عن أفراد الأسرة الشريفية و يقول ان المرء يستطيع ان يرى بسهولة ان الشريف و ابناءه الثلاثة يعدون أبطالا فى نظر البدو فهو على ما يبدو على درجة من الدماثة و مراعاة الغير بحيث يكاد ان يكون ضعيفا، غير ان مظهره ذلك يخبىء وراءه سياسة حصيفة عميقة الغور و أطماعا بعيدة المدى، و بعد نظر غير عربى مصحوبا بالعناد وقوة الشخصية.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۲۲

.. و كانت ميوله عشائرية فى الغالب، كما كان و هو ابن ام جركسية موهوبا بسجايا تعد غريبة عن الترك و العرب معا، غير انه عزم على أسر قلوب البدو بتنشئة أبنائه نشأة بدوية، لكن الأتراك كانوا يصرّون على تثقيفهم فى استانبول فوافق الشريف على ذلك بطيبة خاطر. و لذلك تلقى جميعهم تربية تركية من الطراز الأول، و تعرفوا خلال ذلك على أحوال العالم. لكنهم ما عادوا من استانبول و هم يلبسون الألبسة الغربية و يتخلقون بالأخلاق التركية حتى جعلهم يبدلون ذلك فى الحال و يراجعون عربيتهم من جديد. ثم كلفهم بأن يخرجوا على رأس دوريات الهجانة لحماية طرق الحج من تعديات البدو. و قد منعوا من العودة الى مكة حتى فى أيام العيد.

.. و هم الآن بدو خلص بأجمعهم، و عندهم بمقتضى دراستهم معلومات الموظفين الأتراك و خبرتهم، و يجرى فى عروقهم ذلك المزيج المتكون من الذكاء الفطرى و الحيوية اللذين يتأتيان فى غالب الاحيان من اختلاط الدم العربى بالدم الجركسى. و هذا يجعلهم

مجموعة عائلية قوية جدا مرهوبة الجانب، ذات أهلية و كفاية تثير الأعجاب.

و يقول لورانس عن «سيدى على» انه قصير القامة نحيف البنية، تبدو عليه أمارات الكبر برغم كونه ما يزال فى السابعة و الثلاثين من عمره.

و تميل بشرته الى الصفرة فى لونها، و له عينان و سيعتان دعجاوان، و أنف رقيق قليل الانعقاف، و وجه مجهد كثير التغضن، و فم ذابل، و لحيته سوداء خفيفة، و يداه نحيفتان جدا. اما عاداته و طباعه فبسيطة برمتها، و هو حى الضمير متأن كيس شريف الخصال من دون قوة فى الشخصية.

و كثيرا ما يجعله ضعفه الجسمى فريسة لنوبات سريعة من الغضب و الانتفاض مع حالات من العناد غير الجامح. و هو على ما يبدو لا يحمل طموحا لنفسه، لكنه سهل الاندفاع برغبات الغير. على انه يميل الى الكتب و المطالعة، و لديه اطلاع واسع فى شؤون الشريعة والدين. و يبين فى سحنته الدم العربى

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۲۳

أكثر مما يبين فى اخوته.

اما «سيدى عبد اللّه» فيذكر لورانس عنه انه يبلغ الخامسة و الثلاثين من عمره، لكنه يبدو أصغر من ذلك. و هو قصير القامة، ممتلىء التكوين، ظاهر القوة كالجواد، مع عينين مرحتين شديدتى الدعج و وجه مدور غير متغضن و شفتين قصيرتين ممتلئتين، و أنف أقنى و لحية سمراء. يضاف الى ذلك انه صريح فى طباعه لدرجة تلفت النظر و كثير الجاذبية، غير متقيد مطلقا بالرسميات و لذلك تراه يختلط مع افراد القبائل و كأنه احد شيوخهم. و قد يزن كلماته بتحفظ فيصبح منطقيا قويا فى المناسبات الحظيرة، لكنه قد لا يكون متوقد الذهن مثل ابيه. و هو يجد الآن فى بناء مجد اسرته، و لهذا يمتلىء رأسه بالافكار الغريضة الواسعة التى تختص بنفسه بلا ريب.

و سيكون التصادم بينه و بين فيصل أخيه شيئا موجبا للاهتمام. و العرب يعدونه سياسيا بارعا و رجل دولة بعيد النظر، لكن ما فيه يدل على أنه سياسى أكثر منه رجل دولة.

و يقول لورانس عن «سيدى فيصل» أنه طويل القامة، حلو الشمائل، عنيف، ملكى الملامح، يبلغ من العمر احدى و ثلاثين سنة. و هو كثير السرعة غير مستقر فى حركاته، كثير التفوق على أخوته فى المهابة، يعرف ذلك عن نفسه فيساوم به. و تصفو بشرته كما تصفو عند الجراكسة الأصلاء، مع شعر فاحم و عينين سوداوين تشع منهما الحياة و تتركبان فى وجهه بشىء من الميل، و أنف أشم و ذقن قصير. و لذلك يلوح للرائى كأنه أوربى، شديد الشبه بتمثال ريشارد الاول. و هو حاد المزاج صعب المراس قليل الصبر، غير معقول احيانا، يبدل اتجاه حديثه بصورة مفاجئة. و يمتلك من الجاذبية الشخصية و الحيوية أكثر بكثير مما يمتلكه أخوته منهما، غير أنه أقل منهم فطنة و تبصرا. كما أنه شديد البراعة غير كثير الوسواس احيانا، لكنه قد يكون ضيق الفكر متسرعا عندما يعمل بتحريض من الغير، و مع هذا فأنه عنده ما يكفى من قابلية التأمل و التفكير بحيث يستطيع إصدار

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۲۴

الأحكام الصحيحة، و فوق هذا كله فهو صنم محبوب طموح، تمتلىء مخيلته بالاحلام و يتصف بالقدرة على تحقيقها، مع عمق نظر شخصى حاد كما انه رجل عمل كثير الكفاية.

و يقول عن الشريف زيد انه يناهز العشرين من عمره، و يطغى عليه بالكلية صيت اخوته و سمعتهم. و هو كثير الاقتداء بأمه التركية، مولع بركوب الخيل و اللعب من فوقها. و لم يعهد اليه بأية مهمة ذات شأن لكنه فعال متحرك. و مع ان طباعه فيها القليل من الفظاظه الا انه رفيق غير عاطل.

و هو خجول بشوش، و قد يكون احسن توازنا من اخوته الى حد ما لأنه على جانب أقل من الحدة.

اما بالنسبة لعقيدة الشريف و آرائه الدينية فيقول لورانس فى نشرة المكتب العربى الصادرة فى ۲۸ تموز ۱۹۱۷ ان الشريف حسين قد

أوضحها للكولونيل و يلسن بحضوره. و هو يعتقد ان الشريف شافعي في الظاهر.

و كان يتخذ موقفا وسطا بين الشيعة و أهل السنة عند تحدثه، لكن المعتقد بوجه عام انه يعتنق العقيدة الزيدية. و يقول لورانس كذلك ان (سيدى عبد اللّه) شيعي بالصراحة تقريبا، و هو كثير الميل الى الجعفرية، و ان سيدى على جازم في سنيته، اما سيدى فيصل فهو غير اصولي و يميل الى اتخاذ موقف غير واضح بالنسبة للعقيدة الدينية، لكنه قد يكون شيعيا اكثر منه سنيا برغم الغموض الذى يبدو فيه. على انهم كلهم غير ميالين الى إظهار موقفهم الحقيقى فى هذا الشأن، و يحافظون على اعتراف لا مطعن فيه بالشافعية امام الناس.

و قد سأل لورانس الشريف الاكبر عن حقيقة اللقب الذى يلقبه به العرب الشماليون، و هو لقب «امير المؤمنين»، و هل يلاقى ذلك التلقيب قبولا عنده، فأجاب بعد شيء من التأمل بالنفي. ثم قال له ان الناس ينسبون له اطماعا لا شيء منها عنده، و انه سمعهم يتحدثون عن إحيائه للخلافة.

و بادر الى توضيح موقفه من ذلك ايضا بقوله ان الخلافة قد انتهت بأبى بكر،

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۲۵

و ان إحياءها اليوم يعد ضربا من السخافة، لا بل كفرا بالنسبة لقواعد الدين و أصوله، و انه لن يتدخل قطعيا فى شؤونها. و قال الشريف علاوة على ذلك ان فكرة الخلافة الاسلامية كان البريطانيون قد اقترحوا استغلالها على السلطان عبد الحميد فاستغلها فعلا ليضرب الشرفاء بها. و كان ذلك شيئا قاضيا على هيبة الأسلام لأنه حاول قلب الدين الى عقيدة سياسية، فتحمل مسؤولية القلاقل التى وقعت فى تركية و جزيرة العرب و شمال أفريقية و جاوة و الهند و الصين. و هو بالنسبة لهذا المثل السيىء أمامه، و بالنظر لصداقته مع بريطانية العظمى، لا يسعه الاعتراف بخلافة أخرى أو بوجوب تسنمها على ما يقول.

و يعود لورانس فيذكر بعد كل ذلك أنه يرى شخصيا بأن الشريف حسينا لا يمكن ان يرفض لقب «أمير المؤمنين» اذا ما جاء عن طريق مبايعة أتباعه له بهذه الأمارة، و ليس بطريق انتحاله اللقب من تلقاء نفسه. هذا و يقول لورانس بالمناسبة ان تلقيب الشريف بهذا اللقب كان شائعا فى الحجاز يومذاك بين القبائل من قاف الى قنفذة.

استيلاء الوهابيين على مكة

لقد كان استيلاء الوهابيين على مكة نقطة تحول خطيرة فى تاريخ البلد الحرام، و صفحة جديدة من صفحات تاريخه المفعم بالحوادث. و خير من يصف هذا الحدث المهم، و ما يحيط به من مضاعفات، من الغربيين سنت جون فيلبى الذى اعتنق الأسلام على يد الملك عبد العزيز السعود فأصبح يسمى باسم الحاج عبد اللّه فيلبى . فقد أشار فيلبى الى استيلاء الوهابيين

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۲۶

على الحجاز كله فى معظم كتبه تقريبا، لكن اهم كتابين يرد ذكر هذا الحادث فيهما هما كتاب (اليوبيل العربى). و كتاب (أربعون سنة فى الأوعار).

فهو يعود بالحادث الى أيام الملك حسين، و مبايعة بعض العرب له بالخلافة، و يقول فى (اليوبيل العربى) ان مصطفى كمال كان قد اعلن ألغاء الخلافة فى تركية فتمسك الملك حسين تمسكا قويا بخرقة النبى، الى ان يقول: و لو كانت الظروف غير الظروف التى كانت تحيط بالملك حسين لرحب العالم الأسلامى بهذا الحادث الذى تعود فية الخلافة الى رجل من آل البيت النبوى الكريم، و لكن الحسين لم يستطع الحصول على التأييد المطلوب لادعائه الا فى شرقى الاردن و سورية و العراق، حيث تمكن أولاده فيها من استحصال بعض الدعم و التأييد. و وصل الى عمان فى كانون الثانى ۱۹۲۴، و نودى بخلافته رسميا فى عمان يوم ۱۴ مارت بعد ان

جرى الشيء نفسه في الجامع الأموي في دمشق.

و في آب من تلك السنة وصل هجوم الأخوان الوهابيين الى زيزا في جنوب عمان و بمفاجأة مذهلة وقع في اليوم الثالث من أيلول ما لم يكن في الحسبان. فقد ظهرت قوة و هابية كبيرة يقودها سلطان بن بجاد في ضواحي الطائف عاصمة الحجاز الصيفية. فانسحب الأمير علي، ابن الملك الأكبر، مع قواته على عجل الى ما يقرب من مكة تاركا الطائف لمصيرها المحتوم.

و استسلمت من دون مقاومة تذكر، و لم يجد ابن بجاد صعوبة في التخلص من علي و قواته في موقعه حدة التي تقاطرت على أثرها الى مكة فلول تلك القوة و المدنيين الهاربين من سكان الطائف.

و سرعان ما تناهت هذه الأنباء الى ابن سعود في الرياض، فاندهش موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۲۷

في سهولة تداعى خط الدفاع الحجازي أمام هذا التعرض البسيط. و أصبح يعني في الدرجة الاولى بما سيحدث بعد هذا، و يتوقع حدوث معركة في مكة قد تؤدي الى كثير من القتل واراقة الدماء. و لأجل ان يحد من تعصب رجاله المتطرفين بعث بأوامر مستعجلة الى الجبهة يمنع فيها احتلال مكة بالقوة و يحث الوهابيين على ضبط انفسهم حتى يصل اليهم هو بنفسه.

و الحقيقة ان الأمير عليا كان في تلك الأثناء قد تجاوز مكة خلال فراره امام الوهابيين الى جدة. فقرر الملك حسين بعد كثير من الاحجام و التردد ان يخلي مكة المكرمة ليتحاشى وقوع معارك دموية في شوارعها. و لذلك وقع شرف احتلال مكة من دون مقاومة على عاتق سلطان بن بجاد، و لم يتعرض احد خلال ذلك بسكان مكة انفسهم، لكن بعض القبب المشاهدة فوق قبور مقبرة المعلا قد هدمت و نهبت ممتلكات بعض الشرفاء.

اما في جدة فقد رضخ الملك حسين لضغط الرأي العام عليه، و تنازل عن العرش لأبنه علي، ثم استقل باخرة من البواخر مع أسرته الى العقبة التي كان قد نزل فيها قبل سبعة اشهر فقط في طريقه الى حيث نودي به خليفة للمسلمين. و قد كانت مهمة الملك علي في الدفاع عن جدة مهمة شاقة، و لذلك حاول فيها ان يحسم الخلاف مع ابن سعود بالحسنى فاستقدم من الخارج لهذا الغرض السيد طالب النقيب، و أمين الريحاني، و المستر فيلبي، و يقول فيلبي أنه نصحه بمقابلة ابن سعود شخصيا حينما يصل الى مكة، و يستسلم. على ان مستشاريه العسكريين حرضوه على قتال الوهابيين وردهم الى باديتهم، بعد ان يصل اليه المتطوعون من سورية و شرقي الاردن.

و يقول فيلبي في (أربعون يوما في الاوعار) ان الملك حسينا ابرق الى ابنه من العقبة في مثل هذا الوقت العصيب، الذي كان الجو مشحونا فيه بالتأزم، يطلب اليه الاستماتة في الاحتفاظ و لو بجزء صغير من البلد

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۲۸

الذي ولدت فيه الثورة العربية. فتقرر عدم الرد عليه.

و يفهم مما كتبه فيلبي ان المفاوضات و الوساطات بين الطرفين لم تجد نفعا فترك جدة في يوم ۳ كانون الثاني ۱۹۲۵، و أخذ ابن سعود يقصف جدة بمدفعيته في اليوم الثاني بعد أن وجه إنذارا لأهاليها بالاستسلام. و يقول فليبي انه عاد الى جدة في تشرين الثاني من تلك السنة ليشهد المرحلة الأخيرة من انهيار المملكة الهاشمية في الحجاز. لكنه يذكر ان رجلا انكليزيا آخر يدعى ايلدون رثر Eldon Rutter كان قد قضى صيف ۱۹۲۵ و خريفه كليهما في مكة منتحلا صفة أحد الحجاج المسلمين، فكتب كتابا مهما في ذلك (لم نعثر عليه مع الأسف) يصف فيه أول عهد ابن سعود في حكم الحجاز. و هو يصفه شخصيا كذلك، و يصف ديموقراطيته و بساطته المحببة للناس. فيقول «.. ان طموحه الشخصي لا يحده حد، لكن الذي يخفف من وطأته هو ما عنده من حذر و قابلية تمييز شديدة.

و هو عدو لا يرحم في المعارضة و الحرب، لكنه أعظم العرب أنسانية في التاريخ عند النصر. اما طريقته في الحكم فمن مزاياه فيها أنه يلجأ الى المشورة و الرأي حتى بين الأقارب، و يعد حكمه حكما مطلقا في أساسه».

و بعد ان استولى ابن سعود على الحجاز أدرك البريطانيون ان وجود الملك حسين فى العقبة سيؤدى بطبيعة الحال الى تدفق الجيش الوهابى على حدود شرقى الأردن و فلسطين، فاتخذوا الخطوات اللازمة لنقل الملك اللاجىء على ما يقول فيلبى الى قبرص، و احتلوا العقبة بسرية من السيارات المصفحة. فكان لذلك وقع سيء عند ابن سعود الذى أبدى تذمره لأيلدون رتر .. و لأجل ان يظهر ابن سعود للعالم بأنه غير عازم على التخلى عن أى جزء من مسؤوليته الجديدة تجاه الحجاز، اتخذ الترتيبات اللازمة للمناداه به ملكا عليه خلفا طبيعيا للأسرة الهاشمية، بعد ان تشاور مع سكان مكة و المدينة وجدة، و رؤساء العشائر. فتم ذلك فى المسجد الحرام بمكة المكرمة بعد صلاة الجمعة فى اليوم الثامن من كانون الثانى ۱۹۲۶.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۲۹

و كان من حسن حظ المستر ايلدون رتر ان يحضر هذه المناسبة العظيمة، التى صادف وقوع يوبيلها الفضى فى نفس اليوم الذى وقع فيه اليوبيل الذهبى للمناداة به ملكا فى الجزيرة العربية، بالتقويم القمرى.

أسلام عبد اللّه فيلبى

كان المستر سنت جون فيلبى، أو الحاج عبد اللّه فيلبى، قد بدأ الاتصال بالعرب عند أول اشتغاله فى العراق مع الحملة البريطانية التى نزلت الى البر العراقى سنة ۱۹۱۵ لمقاتلة العثمانيين خلال الحرب العالمية الأولى.

و قد ازداد تعلقه بالعرب و تقربه لهم خلال مدة وجوده فى العراق، و اتجه اتجاها خاصا نحو السعوديين و الملك عبد العزيز السعود بعد ان أوفد بمهمة رسمية خاصة اليه. و صار يكره الهاشميين بعد ذلك و يدعو الى آل سعود فى كل فرصة او مناسبة. فأدى به ميله هذا الى مقاومة فيصل الأول عندما جاء الى العراق، و الدعوة الى تأسيس حكم جمهورى فيه. فأخرج من وظيفته على أثر ذلك، و تقلبت به الأحوال حتى استقر عند الملك عبد العزيز السعود بعد ان توفق فى احتلال الحجاز، و صيّر عاصمة ملكه فى مكة المكرمة سنة ۱۹۲۶.

و حينما توطدت علاقته بالسعوديين على هذا المنوال و بقى مقيما فى الحجاز و الرياض أشيع عنه انه تزوج من أميرة سعودية فتركته زوجته الانكليزية و عادت الى بلادها. و كان لا بد له من ان يفكر بالأسلام و اعتناقه للدين الأسلامى و هو فى وضعه هذا، ففعل ذلك على يد الملك عبد العزيز السعود. فهو يقول فى كتابه (أيامى فى البلاد العربية):

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۳۰

.. و منذ أيامى الأولى فى الهند انجذبت الى الأسلام انجذابا تاما لتأكيده الشديد على ما كان يبدو لى صالحا من الفلسفة و أساليب الحياة. و كنت قد تخليت عن المسيحية منذ مدة طويلة لأكون فيلسوفا ليس له حس دينى خاص او اقتناع بأى دين من الأديان، مع أننى كنت أعترف بأن الدين فى حد ذاته يعد ضرورة لا مناص منها للسواد الأعظم من البشر. و كان الاسلام فى الهند من جهة أخرى يبدو لى أنه قد حمّل بأكثر مما يجب من المبادىء و الطقوس غير الأساسية التى كان يصعب قبولها من دون تحفظ و احتراز زائد. و قد وجدت أهل السنة فى العراق على شىء غير يسير من الضحالة و على جانب كبير من الرسميات فى ممارسة الدين او التفكير به، بينما لم تجذبنى العقيدة الشيعية بقديسيها و علمائها الأصوليين.

و لذلك لم تتح لى الفرصة للاتصال بما كنت أعتقد أنه الشكل البقى الطاهر من الأسلام الا عندما ذهبت الى جزيرة العرب، التى ألفيت فيها ذلك الأسلام الذى يستمد تعاليمه بالكلية من منابع وحيه الأصلية فى القرآن و سنة النبى الأعظم، من دون ان يمت بشىء من الصلة الى ما طرأ على التعاليم الأصلية من تفسير و تأويل بعد ذلك. و قد لاح لى بعد درس عميق ان العقيدة الوهابية هى الشكل المثالى للدين، و ان تعصب أتباعها لم يكن مكروها فى نظرى أنا. ذلك لأننى وجدت عند الوهابيين مزية غير موجودة عند غيرهم، و

هى أنهم يمارسون ما يعتقدون به و يدعون اليه بصراحة، و ان عقيدتهم تبدو متفقة تمام الاتفاق مع ما تتطلبه حياة الأنسان و المجتمع البشرى بأبسط أشكالهما. و هى عقيدة يستطيع المرء ان يتقبلها بسهولة، و يتخذها دليلا فى حياته و مسلكه من دون ان تستولى عليه ذهنية عدم النزاهة فى الفكر. كما أن مقاييسها الاخلاقية تناسب، على ما يبدو، حاجات البشر الأساسية أحسن مما تناسبها الديانات الأخرى كالمسيحية مثلا. و لئن كان تشريعها قاسيا من بعض الوجوه، فهى لا تقر الزيف، اما تعدد الزوجات الذى تقره و تعترف به، و الذى كثيرا ما كان هدفا

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۳۱

للنقد و التجريح، ففيه من التدابير الواقية ضد العهر و الفسق ما يفضل على التدابير الموجودة فى الوصايا العشر ..

و بعد ان يسرد فيلبى فى كتابه المشار اليه كيفية دخوله الأسلام و اعتناقه أياه نهائيا، و أخذه الى مجلس الملك ابن سعود فى مكة يقول:

.. و قد روى الملك للمجلس المحتشد كيف صفقت السيدة نورة شقيقته من فرحها عندما سمعت أننى اصبحت مسلما، ثم قص عليهم بعض ما كان دار بين كلينا من الحديث فى هذا الشأن. ثم قال فجأة اننا يجب ان نجد له أسما جديدا، فماذا تقترحون كلكم؟ .. لماذا لا نسميه عبد اللّه؟ نعم، فليكن اسمه عبد اللّه، عبد اللّه فيلبى. و هكذا كان منذ ذلك الوقت حتى اليوم ..

و يكتب فيلبى فى (أربعون عاما فى الأوعار) فصلا خاصا عن خطواته الأولى فى الأسلام على ما يسميها، و يقصد بذلك حجه الى بيت اللّه الحرام لأول مرة، اى بعد ان اعتنق الأسلام. و يفهم مما كتبه فى هذا الفصل انه كان قد فاتح صديقه الملك عبد العزيز منذ مدة برغبته فى اعتناق الاسلام و حجه الى البيت الحرام، لكن الملك كان يوصيه بالصبر و الانتظار.

و قد أشار عليه بعد ان أسلم بان يقضى «مدة تجربة» فى جدة تستغرق عدة أشهر قبل ان يقدم على أداء هذا الواجب الدينى المقدس، لكن الأقامة فى جدة طوال هذه الأشهر كانت شيئا لا يروقه و فاتح الملك بأن يقضيها معه فى مصيفه الجميل بالطائف على ما يقول. فاستجاب له الملك، و فى يوم ۷ آب ۱۹۳۰ اتصل به تلفونيا و أمره بأن يستعد للتوجه الى مكة بعد ظهر ذلك اليوم نفسه حيث تدبر له زيارة البيت الحرام.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۳۲

و يقول فيلبى ان ذلك قد تم بالفعل فوصل بعد ان ترك جدة بساعتين الى واحة الحده فى وادى فاطمة الكائنة على بعد أميال معدودة عن منطقة مكة المحرمة التى كان ينتظره فيها وفد من الشخصيات المرموقة من مثل الشيخ عبد اللّه السليمان وزير الماليه السعودى، و الشيخ فؤاد حمزة نائب وزير الخارجية، اللذين أوكل لهما الأشراف على قضية دخوله الى مكة المكرمة. و بعد ان التقى بالوفد المذكور فى مخيم خاص، توضأ و أحرم و أخذ بالسيارة الى بيت الشيخ عبد اللّه الجميل الكائن فى ضواحيها الغربية، بعد ان مر بالشميسى و العلمين اللذين يدلان على الحل و الحرم، و يقهوة العبد (قهوة سالم) و ما فيها من بئر و مقهى، ثم بالمقتلة و أم الدود و بستان البير و جرول.

و بعد ان تناول العشاء متأخرا تلك الليلة، و هى ليلة المولد النبوى لسنة ۱۳۶۰ ه، جىء له بسيارة خاصة قبيل منتصف الليل و أخذ بصحبة «مطوع» من مطوعى الوهابية يدعى صالح العنقرى. و يقول فيلبى انه توجه الى البيت الحرام مع هذا المطوع بقلب خافق، و هو آخر الملتحقين بأبسط الأديان و أشدها تأثيرا فى النفس، بالدين الذى يقول نبيه الكريم (كل مولود يولد على الفطرة، و انما أبواه يهودانه أو ينصرانه).

ثم يتابع وصف دخوله الى البيت الحرام فيقول .. و بعد ان تركت الخفين فى خارج العتبة العالية، التى تصد المياه المتدفقة عند هطول الأمطار، سلمت قيادى الى دليلى الذى أمسك بمعصمى الأيمن و أدخلنى من (باب السلام) الى صحن الحرم الكبير الذى كان يمتد أمامنا بروعة و بهاء فى ضوء القمر اللامع. و كانت تقوم فى وسطه الكعبة المشرفة، المجلله كلها بالكسوة السوداء، التى كان يدور

حولها من ثلثى ارتفاعها عن الأرض حزام من الكتابة المنقوشة بالفضة. و كان بضع مئات من الناس ينتشرون فى الصحن الكبير هنا و هناك، للصلاة و سائر أنواع العبادة و التأمل، بينما كان عشرات الناس غيرهم يطوفون حول الكعبة مكونين تيارا لا

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۳۳

ينقطع الا فى أوقات الصلاة. و قد سرت، و أنا أكرر الأدعية و الجمل الدينية التى يتلوها دليلى الآخذ بيدى على الدوام، على طول الممشى المبلط بخشونة الى وسط المسجد الحرام حتى وقفت بين يدى الكعبة نفسها.

و كان الكشك المشاد فوق مقام ابراهيم (او مصلاه)، و البناء المبنى فوق بئر زمزم، يقعان على يمينى و شمالى بالتعاقب، حينما كنت أواجه الحجر الأسود الموضوع بارتفاع الكتف فى الركن الشرقى للكعبة المشرفة نفسها.

و حالما تنحى الحجاج الآخرون عن الحجر تقدم دليلى اليه بخشوع فقبله، ففعلت كما فعل، ثم قادنى للطواف سبع مرات حول الكعبة و هو يتلو الجمل الدينية المطلوبة لأكررها بعده. و كنا نقف فى كل دورة لنقبل الحجر الأسود، كما كانا فى الركن الجنوبى نحيى على الشاكلة نفسها الحجر اليمانى الذى كان عبارة عن قطعة غير منتظمة من الغرانيت ناتئة من فتحة فى العمود.

و حينما انتهينا من الطواف فى الدورات السبع، انتقلنا الى مقام ابراهيم لأداء، ركعتين من الصلاة فيه كالمعتاد، ثم انتهت الشعائر بزيارة لبئر زمزم حيث شرب كلانا قدحا من الماء المقدس الذى وجدته شيئا مستساغا خاليا من التأثير السيء فى المعدة، على خلاف ما ذكره الرحالة بورتون و غيره ممن انتقد مذاقه و محتواه الكيمائى. و الحق ان شعيرة الطواف كانت شيئا مؤثرا فى النفس، الى أبعد ما تستطيع الكلمات وصفه و تحديده. لكن الغريب فى الأمر أنها كانت تكاد تكون شيئا مألوفا عندى كما لو كنت قد قمت به من قبل، و لا شك ان ذلك قد يكون مرجعه كثرة ما قرأته و اطلعت عليه من كتب الحج و شؤونه من قبل .. و يمكننى ان أدعى بالنسبة للعطف الذى شملنى به عبد العزيز السعود من دون مبالغة بأنى كنت أول شخص دخل الأسلام دخولا فعليا و هو فى وسط جمع حاشد من الرموز و الأنصبة التاريخية العريقة، و على مقربة من المسجد الحرام فى مكة.

و بعد ان تركنا المسجد الحرام من (باب الصفا) توجهت مع دليلى

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۳۴

الى أداء شعيرة السعى. المنطوية على على قطع المسافة ما بين تلى الصفا و المروة سبع مرات متتاليات على الاقدام، أى قطع مسافة تقدر بثلاث مئة و ثمانين ياردة. و يتم هذا السعى بالهرولة عبر الطريق العام خلال خمس و ثلاثين ياردة، و مشيا على الاقدام خلال المسافة المتبقية. و قد كانت مسافة الميل و النصف من هذه المرات السبع المارة فى طريق و عر غير مبلط مسافة متعبة حقا، حينما تتخللها الوقفات القصيرة فى نهاية كل مرة لأداء الصلاة فى اتجاه الكعبة. و لذلك سرنى ان أعود الى دار الشيخ عبد اللّه السليمان لأتضى بقية الليل مرتاحا فيها، بعد ان بقيت فترة قصيرة من الزمن أتحدث فيها الى ضيف آخر فى البيت هو المهندس البولونى المسلم فؤاد أحمد سافيشكى الذى كانت بعهدته الورشة الحكومية يومذاك.

و فى صباح اليوم الثانى، الجمعة، شرفنى بالزيارة الشيخ عبد اللّه ابن

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۳۵

حسن أحد العلماء الوهابيين فى مكة، الذى كان ينتمى الى أسرة مؤسس الوهابية الشيخ محمد بن عبد الوهاب. و كان قد جاء ليهنئنى على اعتناقى الأسلام، و يدبر أمر اصطحابى له مع سائر أقطاب المذهب الوهابى فى مصلى الداودية لأداء صلاة الجمعة فى المسجد الحرام. و الى ان يحين ذلك الوقت أخذنى الشيخ فؤاد حمزة لمشاهدة معالم مكة و ضواحيها القريبة بالسيارة.

و بعد أن أديت صلاة الجمعة لأول مرة فى حياتى عدنا جميعا الى بيت عبد اللّه السليمان للغداء. و كان الشيخ عبد اللّه بن حسن رقيقا جدا فى استقبالى و الاحتفاء بى. و قد ضحكنا حينما تحدثت اليه عن ما كان قد جرى ذات يوم قبل سنوات. فقد صادفنى فى قهوة بير ابن حسانى الواقعة فى طريق المدينة فاعترض اعتراضا شديدا على وجود كافر مثلى يومذاك فى تلك الجهات. و كانت الملاحظة

التى ابداها اليوم «انه لم يكن بينى و بين جهنم يومذاك سوى الموت، اما اليوم فتوجد الجنة اذا استجاب اللّه تعالى لأسلامى و اعتبره شيئا نابعا من القلب».

و يفهم مما يذكره الحاج عبد اللّه فيلبى فى فصل آخر من كتاب (أربعون عاما فى الأوعار) انه خرج من مكة بعد زيارة الحرم الشريف لأول مرة فى حياته، و عاد الى الطائف فرحب به الملك ابن سعود و سماه عبد اللّه على النحو المار ذكره قبل هذا، لكنه عاد الى مكة مرة ثانية بعد ذلك ليقيم فيها و يصبح مواطنا من مواطنيها المرموقين، و كان ذلك فى تشرين الثانى سنة ۱۹۳۰. و هو يقول أنه قضى عند عودته اليها يومين فى ضيافة عبد اللّه الفضل رئيس المجلس الاستشارى حتى وجد له بيتا خاصا يعيش فيه. فتم له ذلك و سكن فى الدار رقم ۲۷ من محلة جرول المعروفة

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۳۶

فى مكة، بقرب حدائق البلدية و قصر وزير المالية، و هو يقول «.. و فى اليوم الأخير من تشرين الأول ۱۹۳۰ اصبحت مواطنا من مواطنى مكة، و بقيت كذلك مدة ربع قرن.»

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۳۷

مراسيم الحج و فرائضه

اشارة

كتبه الخطيب جواد تبر عضو جمعية منتدى النشر و جمعية الرابطة العلمية فى النجف

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۳۹

فريضة الحج

الحج لغة هو القصد، و لهذا سمى الطريق محجة لانه يوصل الى المقصود.

و الحج شرعا هو القصد الى بيت اللّه الحرام و اداء مناسك خاصة و طقوس معينة فى زمن معين، و هو واجب على كل مسلم و مسلمة تتوفر فيهما الشروط المعينة.

و تتفق طقوس الحج و كيفية ادائها عند جميع المذاهب الاسلامية باستثناء فرق طفيفة اوردنا اهمها فى آخر هذا البحث.

و المتفق عليه عند عامة المسلمين ان الحج يجب فى العمر مرة واحدة، و وجوبه عند حصول الاستطاعة. و من وجب عليه الحج فاتى به فمات فى الاثناء، فان كان بعد الاحرام و دخول الحرم اجزأه و الا فلا.

شروط وجوب الحج

هى: ۱- البلوغ. ۲- العقل. ۳- الاستطاعة و ذلك بأن يكون مالكا مؤونة السفر من الزاد و الراحلة ذهابا و إيابا، و قادرا على تموين عياله الذين و جبت نفقتهم عليه. و كان سالما من المرض متمكنا من السير و غير خائف فى الطريق

و اول واجبات الحج هو الاحرام من احرم يحرم اذا اهلّ بالحج

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۴۰

و العمرة و باشر اسبابها و شروطها من خلع المخيط، و اجتناب الاشياء التى منع منها الشرع. و هو توطين النفس على اجتناب تلك المحرمات التى نهى الاسلام عنها و سيأتى الكلام عليها.

واجبات الاحرام

۱- لبس ثوبى الاحرام، للرجل و هما: ازار ورداء يأتزر باحدهما ساترا ما بين السرة و الركبة، و يرتدى بالآخر ساترا للمنكبين.

و يجب ان يكونا غير مخيطين للرجال، و يعتبر فى الثوبين مما تصح فيه الصلاة.

۲- النية و هى القربة و الاخلاص فينوى الاحرام لعمرة متمتع بها الى حج التمتع حج الاسلام لوجوبه قربة الى اللّه تعالى.

۳- التلبية و هى قول الحاج: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك ان الحمد و النعمة لك و الملك لا شريك لك.

و يجب النطق بها على النهج الصحيح و تجب مرة واحدة إذ لا ينعقد الاحرام الا بها. و قد تتكرر استحبابا.

محرمات الاحرام

يجب على المحرم ان يلتزم بترك ما يحرم فعله ما دام محرما، و هى محرمات الاحرام الواجب على المكلف ان يلزم نفسه بتركها.

۱- صيد الحيوان البرى و ذبحه، دون غيره من الحيوانات، و كذلك امساكه و اكله و الاعانة على صيده بدلالة أو اشارة او نحو ذلك من اساليب الصيد أو الذبح، قال تعالى (لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَ أَنْتُمْ حُرُمٌ) اما السباع الضارية اذا كان يخاف منها، او السباع من الطيور اذا اذت حمام الحرم فيجوز قتلها حفظا لنفسه و لحمام الحرم، فاذا اصطاد المحرم الصيد أو

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۴۱

ذبحه كان ميتة، و يحرم عليه و على كل احد أن يأكل منه. نعم لا يحرم قتل الحية و العقرب و الفأرة، و لا كفارة فى قتل الزنبور خطأ، و فى قتله عمدا صدقة بشىء من طعام.

هذا اذا كان الصيد برّيا. اما الصيد البحرى فلا يحرم.

و كما يحرم الصيد على المحرم و لو كان فى غير الحرم، كذلك يحرم الصيد على المحل فى داخل حدود الحرم و تلزمه الفدية كما تلزم المحرم و لو قتل المحرم الصيد فى الحرم لزمته الكفارتان: القيمة و العين.

۲- تحرم مباشرة النساء على المحرم وطأ، بل حتى التقبيل و اللمس بشهوة.

۳- عقد النكاح سواء كان ذلك لنفسه ام لغيره، دائما او منقطعا، و سواء كان للمحل أو المحرم.

و يجوز الرجوع بالمطلقة فى حال الاحرام.

۴- الشهادة على النكاح و لو لغيره.

۵- الاستمناء بأى سبب كان بالملاعبة أو باليد أو غير ذلك.

۶- الطيب بجميع اقسامه و انحاء استعمالاته كالمسك و العنبر، و العود، و الزعفران، و الكافور، و عطر الورد و غيرها من العطور، و حتى الهيل و القرنفل. فلا يجوز وضع ذلك فى الثياب و لا فى الطعام و الشراب او دهن البدن به. و لكن لا بأس بأكل الفواكه العطرية كالتفاح و السفرجل و بقية الفواكه.

۷- لبس المخيط للرجال فقط دون النساء. و يستثنى من ذلك محفظة الدراهم.

۸- لبس الخف و الجورب و نحوهما مما يغطى ظهر القدم، و خير شىء هى احذية (الاسفنج) و لا بأس بستر ظاهر القدم بثوب الاحرام

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۴۲

أو ثنى الركبة عند الجلوس او تحت الدثار عند المنام.

۹- الاكتحال بالسواد.

۱۰- النظر فى المرآة مطلقا، سواء كان بقصد الزينة ام بقصد آخر، و اذا نظر فى المرآة استحب له تجديد التلبية- رجلا كان الناظر او

امرأة- و لا بأس بالنظر فى الماء الصافى.

۱۱- الفسوق- اى الكذب سواء كان على اللّه أو على الرسول او الائمة عليهم السلام، أو على الناس. و السباب و المفاخرة و كل كلام بذىء و لفظ قبيح.

۱۲- الجدال- و هو قول- لا- و اللّه، و بلى و اللّه- اما فى اظهار المودة و تقديم الاكرام و الانعام و عند اثبات الحق و دفع الباطل فلا بأس به.

۱۳- التختم- و هو لبس الخاتم للزينة. و لا- بأس بلبسه اذا كان للسنة- اى للاستحباب الشرعى- و يجوز للمرأة لبس ما اعتادت من الحلى.

۱۴- الادهان- بأن يطلى جسده بالزيت أو السمن او غيرهما من الادهان، حتى و لو لم تكن فيه رائحة طيبة الا للضرورة كاستعماله وقاية من تشقق الجلد.

۱۵- ازالة الشعر مطلقا الا للضرورة مثل الوقاية من القمل أو خشية الصداع. و يكره الاحرام فى الثياب الوسخة و ان كانت طاهرة.

۱۶- الحنّاء للزينة، و الاولى تركها مطلقا، و يستحب النظافة فى البدن و الثياب قبل ذلك.

۱۷- تغطية الرأس اختيارا، و يحرم ذلك على الرجل دون المرأة.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۴۳

و تجب عليه الفدية عند تغطية الرأس .

۱۸- تغطية المرأة وجهها بنقاب و غيره مما يلصق على الوجه كلا او بعضا و حتى فى حال النوم.

۱۹- التظليل للرجال اختيارا فى حال السير الا اذا كان ماشيا، فيجوز ان يمر تحت الظل عابرا.

۲۰- إخراج الدم من البدن بأى سبب كان. بالقصد أو بالحجامة او السواك او حك الجلد.

۲۱- قلع الضرس و ان لم يخرج الدم عدا الاضطرار.

۲۲- تقليم الأظافر و لو ظفرا واحدا او بعض ظفر الا مع الأذى يجوز تقليمه.

۲۳- لبس السلاح بأنواعه. اما (السكين) الصغيرة للشؤون الخاصة فلا بأس بها. و يجوز حمل السلاح اذا خاف من عدوّ أو سارق بشرط اخفائه.

۲۴- يحرم على المحرم و غيره قطع كل نبت فى الحرم و كذلك قلعه، و يستثنى من ذلك (الاذخر) و كذلك يستثنى النخل و الفواكه، و ما كان الانسان قد غرسه هو بنفسه، او كان نابتا فى ملكه أو فى منزله و يكره الكلام بغير ذكر اللّه تعالى.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۴۴

الميقات او المواقيت

و هى الحدود المكانية المعينة بالذات لمواضع الاحرام، فلا يجوز للحاج ان يتعداها الا باحرام منها او مما يحاذيها، و لا يجوز لأحد ان يدخل مكة الا محرما الا لمرض او من يتكرر دخوله كالخطاب و الحشاش و نحوهما.

و لو خرج بعد احرامه ثم عاد فى الشهر الذى خرج فيه اجزأ و ان عاد فى غيره احرم ثانية.

يجب عليه ان يتجرد من ملابسه و يرتدى ثوبى الاحرام و هو: ازار و رداء، و يتقدم إلى بيت ربه بثوبين غير مخيطين و رأس مكشوف.

المواقيت المكانية هى التى عينها رسول اللّه و حددها تحديدا كاملا واضحا محيطا بمكة المكرمة من جميع جهاتها و سائر اقطارها و نواحيها:

شمالا و جنوبا و شرقا و غربا.

اولا- مسجد الشجرة و يسمى (ذو الحليفة) لاهل المدينة و لمن كان طريقه على المدينة من اهل الافاق و الاقطار كسائر الحجاج الذين يؤمون زيارة المدينة و يقومون بزيارة النبى اولا و قبل الحج.

و يبعد عن مكة نحو ۴۹۲ كيلومترا. اما الذين يذهبون الى جدة عن طريق الجوثم الى مكة فعليهم ان يحرموا من حدود الحرم بالمكان المسمى ب (الحديبية).

ثانيا- وادى العقيق، و يبعد عن مكة المكرمة نحو ۱۰۰ كيلومتر و هو ميقات اهل العراق و اهل نجد. و اول هذه الميقات من جهة العراق موضع يسمى (المسلخ) و وسطه (غمرة) و آخره (ذات عرق).

ثالثا- الجحفة و هو لاهل الشام و مصر و من عبر على طريقهم الى مكة من اهل الاقطار و الامصار الاخرى، و يبعد عن مكة نحو ۱۸۷ كيلومترا.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۴۵

رابعا- قرن المنازل و يبعد عن مكة المكرمة نحو ۹۴ كيلومترا و هو ميقات اهل الطائف و من عبر على طريقهم الى مكة.

خامسا- يلملم و هو جبل من جبال تهامة، و يبعد عن مكة المكرمة ۹۴ كيلومترا تقريبا، و هو ميقات اهل اليمن و من عبر على طريقهم الى مكة.

سادسا- ادنى الحل- و هو حدود الحرم و ميقات من لم يعبر الى مكة من احد هذه المواقيت.

انواع الحج

الحج على ثلاثة انواع:

۱- حج التمتع ۲- حج القران ۳- حج الافراد

و النوع الاول و هو حج التمتع يتكون من عبادتين: الاولى: العمرة، و الثانية: الحج، و هو الواجب على كل مكلف مستطيع يبعد وطنه عن مكة المكرمة ۴۸ ميلا اى ما يساوى ۹۶ كيلومتر تقريبا من كل جانب فان كانت المسافة اقل من ذلك كان حج قران او افراد.

و التمتع اصله التلذذ، و سمى هذا النوع به لما يتخلل بنى عمرته و حجته من التحلل الموجب لجواز الانتفاع و التلذذ بما كان قد حرمه الاحرام مع ارتباط عمرته بحجه حتى انهما كالشىء الواحد.

و افضل انواع الحج: حج التمتع، ثم حج القران، ثم حج الافراد و انما سمى بالقران (او القارن) لان الحاج يقرن هديه معه و يسوقه عند احرامه اما (الافراد) فلإنفراد العمرة عن الحج فيه بخلاف حج التمتع و ذلك بأن يعتمر بعد ان يحل من الحج عمرة مفردة و حج التمتع تكون عمرته مقدمة عليه و مرتبطة به بخلاف القران و الافراد فان عمرتهما متأخرة عن حجتهما.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۴۶

كيفية حج الافراد و حج القران

و هو فرض اهل مكة و من بحكمهم. و كيفيته اجمالا:

ان يحرم بالحج اولا من ميقاته الذى مرت الاشارة اليه فى المواقيت، أو من حيث يسوغ له الاحرام. ثم يمضى الى عرفة فيقف بها ثم الى المشعر فيقف به ثم الى منى يوم النحر فيقضى مناسكه بها ثم يأتى الى مكة فيطوف بالبيت و يصلى ركعتى الطواف و يسعى و يطوف طواف النساء و يصلى ركعتين و ليس عليه هدى و لا اضحية، و عليه عمرة مفردة بعد الحج، و لا بد فيه من النية. و له ان يأتى بها بعد الحج بلا فاصل، و ان يؤخرها الى غير اشهر الحج.

و حج القران كالافراد الا انه يتميز عنه بسياق الهدى عند احرامه و لا يجب الهدى على الحاج المفرد، و لا على القارن الا اذا ساق

القارن معه الهدى من الاحرام.

قال الامام محمد الباقر عليه السلام:

الحاج على ثلاثة وجوه:

رجل افرد الحج و ساق الهدى، و رجل افرد الحج و لم يسق الهدى، و رجل تمتع بالعمرة الى الحج.

و لما كان اكثر من يؤم بيت اللّه من القسم الثالث من اقسام الحج، و من كل فج عميق من النائين عن مكة و من يكون حجهم حج تمتع استدعى التفصيل فيه دون القسمين الاولين: القران و الافراد.

ان الواجب هو تقديم العمرة على الحج، و ان حج التمتع يتكون من عبادتين:

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۴۷

الاولى العمرة ، و الثانية الحج.

اما الواجب على هذه فخمسة افعال:

۱- النية و هى القصد و العزم على الفعل و طلب القربة الى اللّه تعالى اذ لا عبادة بلا نية القربة.

۲- الاحرام و هو ان يحرم لعمرة التمتع لحج التمتع حج الاسلام من الميقات متقربا الى اللّه تعالى.

۳- الطواف و ركعتاه و الطواف سبعة اشواط.

۴- السعى بين الصفا و المروة سبعا.

۵- التقصير بأن يأخذ المعتمر شيئا من شعر رأسه و يقصر منه او من اظفاره.

هذه هى واجبات عمرة التمتع، و لا يجب فيها طواف النساء، فاذا فرغ من تقصيره حل له كل شىء احرم منه، و لهذا سميت: عمرة التمتع اى التلذذ و الانتفاع مما كان يحرم الانتفاع به عليه بسبب الاحرام. و يبقى المعتمر محلا يتمتع بما يشاء مما يحل للمحل فى الحرم حتى يحرم للحج على التفصيل الآتى بيانه.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۴۸

الطواف و واجباته

يجب على المعتمر للتمتع بعد دخول مكة أن يبتدىء بالطواف لعمرة التمتع. و الطواف ركن فمن تركه عامدا الى زمن لا يمكن فعله فيه قبل الوقوف بطل حجه و صار حج افراد قال تعالى (وَ لْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ) و المريض يطوف معتمدا، أو راكبا، او محمولا، فان لم يتمكن استناب.

و يجب الطواف فى حج التمتع، و حج الافراد، و حج القران، و عمرة الافراد و عمرة القران و العمرة المفردة مرتين:

۱- طواف الحج سواء للتمتع، او الافراد، أو القران، و عمرتيهما و العمرة المفردة و هو ركن.

۲- طواف النساء لكل من حج التمتع، و حج الافراد، و حج القران، و عمرة كل من الافراد، و القران، و العمرة المفردة. ولكنه ليس بركن بخلاف الطواف السابق فانه ركن و يبطل كل نسك بتعمّد تركه.

شرائط حج التمتع

يجب على المعتمر عمرة التمتع ان يطوف حول البيت طواف عمرة

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۴۹

التمتع بشروط:

۱- النية المشتملة على قصد القربة و التعيين بكونه طواف حج، او عمرة، أو نساء، أو غيرها. و تكون هذه النية مقارنة لاول جزء منه. و ذلك بأن يقول: أطوف سبعة أشواط فى بيت اللّه الحرام طواف عمرة التمتع لحج الاسلام. حج التمتع لوجوبه قربة الى اللّه تعالى.

۲- الطهارة من الحدث الاكبر و الاصغر، و المتعذر عليه الوضوء او الغسل يتيمم بدله فلو احدث فى اثناء الطواف قبل اكماله اربعة أشواط استأنف.

۳- طهارة البدن و الثياب.

۴- اباحة اللباس بأن لا يكون لباسه مغصوبا.

۵- ستر ما يجب ستره فى الصلاة للرجال و النساء، كل بحسب حاله.

۶- الختان فلا يصح طواف الاغلف و ان كان طفلا.

۷- يجب ابتداء كل شوط من الاشواط السبعة بالحجر الأسود و الاختتام به، فلا يصح ان يبدأ الطواف بغيره كما لا يصح الاختتام بغير الحجر الأسود ايضا.

و يكفى فى حصول الابتداء و الاختتام المحاذاة العرفية فى ابتداء الشوط و ختامه.

۸- جعل البيت على اليسار فلا يصح الطواف بعكس ذلك.

۹- ادخال حجر اسماعيل فى الطواف و ان يجعله الطائف على يساره، و العكس باطل.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۵۰

۱۰- خروج تمام بدنه عن البيت و عن حجر اسماعيل و عن ما يحسب من البيت.

۱۱- كون الطواف بين البيت و المقام مقام ابراهيم فلا يصح أن يجعل مقام ابراهيم داخل المطاف، بل الواجب ان يكون مقام ابراهيم على اليمين، و البيت على اليسار. و يلزم على الطائف أن لا يبعد عن البيت ازيد من ۲۶ ذراعا بذراع اليد تقريبا من جميع الجوانب، فلا يبعد عن الكعبة بما يزيد على هذا المقدار و الا خرج عن المطاف.

۱۲- اكمال سبعة اشواط بلا زيادة و لا نقصان. فلو شك فى العدد بعد الفراغ لم يلتفت.

۱۳- الموالاة فى الطواف فانها شرط، و معناها المتابعة بين اشواط الطواف، و لا يعمل الطائف خلال القيام بالطواف عملا يفصل بينها.

ركعتا الطواف

ثم يصلى ركعتى الطواف بعد فراغه من الطواف خلف مقام ابراهيم عليه السلام و هى الصخرة التى وقف عليها ابراهيم الخليل، و هو يبنى جدار الكعبة، و ان لم يتمكن من الصلاة خلف المقام صلاها عنده من احد الجانبين فان لم يتيسر له ذلك يصليها حيث شاء فى المسجد الحرام مع مراعاة الاقرب فالاقرب الى خلف المقام.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۵۱

حج التمتع

هو الجزء الثانى الذى يقع بعد التمتع المار الذكر.

و لذا يضاف اليه، فافعاله امور مترتبة مجملها:

الاحرام، و الوقوف بعرفات، ثم الوقوف بالمشعر، ثم المضى الى منى يوم العيد، و رمى جمرة العقبة، ثم الذبح، ثم الحلق، ثم طواف الزيارة و ركعتاه، ثم السعى، ثم طواف النساء و ركعتاه، ثم المبيت بمنى ليلة الحادى عشر و الثانى عشر و الثالث عشر، و رمى الجمرات الثلاث.

- التفصيل:

بعد الاحلال من عمرة التمتع يكون الاحرام بالحج- و هو ركن من الاركان- و الاحرام من مكة، و الافضل من المسجد. و يتسحب ايقاعه يوم التروية- و هو اليوم الثامن من ذى الحجة، فيلبس الحاج ثوبى الاحرام ثم ينوى الاحرام للحج ثم يلبى فيقول: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك. فينعقد احرامه و تحرم عليه المحرمات المذكورة فى العمرة. اما النية فكيفيتها: ان يقول اقف بعرفة وقوف حج التمتع حج الاسلام لوجوبه قربة الى اللّه تعالى. و يخرج الى منى، و الوقوف بعرفات تاسع ذى الحجه حاضرا فيه مستوعب الوقت كله- من زوال الشمس الى غروبها اختيارا من يوم عرفة. و الموقف الاضطرارى هو من مغيب الشمس ليلة العيد الى طلوع الفجر.

عرفة

يوم عرفة يوم التاسع من ذى الحجة

و عرفة: ميدان واسع ارضه مستوية يبلغ نحو ميلين طولا- فى مثلهما عرضا، تحيط به سلسلة جبال على شكل قوس كبير و يمر بطرفى القوس

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۵۲

من جهة الجنوب الطريق الى الطائف و فى شماليه جبل الرحمة المعروف عند الناس بجبل عرفات و انما جبل عرفات ما اطاف بهذا الميدان، و جبل الرحمة اصغر جزء فيه. قالوا: وحدها من بطن عرفة و (توبة) و (نمرة) الى ذى المجاز.

سبب التسمية

يقال ان سبب هذه التسمية لان الناس يعترفون بذنوبهم فيها و قيل غير ذلك.

المزدلفة او المشعر الحرام

المزدلفة: بضم الميم و سكون الزاى المعجمة و فتح المهملة و كسر اللام اسم فاعل من الازدلاف و هو الاجتماع، تقول: ازدلف القوم اذا تقدموا. و هى موضع يتقدم الناس فيه من عرفات الى منى و قيل لانه يتقرب فيه الى اللّه، او لمجيء الناس فيها فى زلف من الليل- اى (ساعات) فسميت المزدلفة قال تعالى (فاذا افضتم من عرفات فاذكروا اللّه عند المشعر الحرام) و المشعر الحرام هو جبل فى آخر المزدلفة و اسمه قزح و وصف بالحرام لحرمته او لانه من الحرم و سمى مشعرا لانه موضع لشعائر اللّه و عبادته.

منى و اعمالها

و ينتقل الحاج من عرفات الى المشعر الحرام، و ان عليه ان يمكث فيه من طلوع الفجر الى طلوع الشمس مختارا .. فاذا طلعت الشمس من يوم العيد انتقل من المشعر الى منى، و بينهما واد يسمى واد (محسر)

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۵۳

و ليس للحاج ان يتجاوزه الا بعد طلوع الشمس.

و لمنى مناسك شتى، تستمر من يوم النحر، و هو يوم العيد الى صبيحة اليوم الثالث عشر، او مساء اليوم الثانى عشر، و فى منى تنتهى واجبات الحج، و تسمى الايام الثلاثة، و هى ۱۱، ۱۲، ۱۳، من ذى الحجة ايام التشريق.

منی

منی بالکسر و التنوین یقع فی درج الوادی الذی ینزله الحاج و یرمی فیه الجمار و قد سمی بذلک لما یمنی به من الدماء أی یراق.

و کانت منی فی الجاهلیة مقرا لسبعة اصنام: بعضها علی الطریق و بعضها علی الجمرة الاولی، و بعضها علی شفیر الوادی، و بعضها علی الجمرة الوسطی، و علی الجمرة الکبری، و علی جمرة العقبة.

و یستحب التقاط حصی الجمار من المشعر و الاحتفاظ بها الی منی للرمی و عددها سبعون.

قال العلامة الحلی فی کتابه (تذکرة الفقهاء) یرمی فی کل یوم احدی و عشرین حصاة، علی ثلاث دفعات، کل واحدة منها سبع حصیات، یبتدیء بالاولی و هی أبعد الجمرات من مکة، و تلی مسجد الخیف، و یستحب ان یرمیها حذفا- أی یضع الحصاة علی باطن الابهام و یدفعها بظاهر السبابة- عن یسار الجمرة من بطن المسیل بسبع حصیات، و یکبر عند کل حصاة، و یدعو ثم یتقدم الی الجمرة الثانیة و تسمی الوسطی و یقف عن یسار الطریق و یستقبل القبلة و یحمد اللّه و یثنی علیه و یصلی علی النبی ثم یتقدم قلیلا و یدعو ثم یرمی الجمرة، و یصنع کما صنع عند الاولی، و یقف و یدعو ایضا بعد الحصاة الاخیرة.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۵۴

ثم یمضی الی الجمرة الثالثة- و تسمی بجمرة العقبة- و یرمیها کالسابقة و لا یقف بعدها و بها یختم الرمی.

و ان مجموع ما یرمیه فی الایام الثلاثة بمنی ۶۳ حصاة- هذا ان بات بمنی لیلة الثالث عشر- کل یوم ۲۱ تضاف الی السبع التی رماها یوم العبد، فتتم علی السبعین.

الافاضة الی المشعر و الوقوف به

یجب الافاضة من عرفات الی الشعر الحرام لیلة العید و البیتوتة بها.

توضیح: اذا غابت الشمس و زالت الحمرة المشرقیة افاض الناس الی المشعر بسکینة و وقار. فاذا وصلوا الی الکثیب الاحمر عن یمین الطریق یجب فی الوقوف بالمشعر الحرام امران:

۱- المبیت بالمشعر لیلة العید، و یکفی فیه صدق المبیت و لو بعد ثلث اللیل او نصفه.

۲- الوقوف بالمشعر من طلوع الفجر الی طلوع الشمس من یوم عید النحر و عندما یفرغ الحاج من الوقوف بالمشعر وجب علیه ان یأتی یوم العید عاشر ذی الحجة الی منی و یسمی یوم النحر.

ما یجب فی منی من افعال الحج

الواجبات الثلاثة التی تجب علی الحاج بعد أن یفیض من المشعر، بعد طلوع الشمس من یوم العید الی منی لاداء مناسکها الثلاثة بالترتیب

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۵۵

۱- رمی جمرة العقبة یوم العید، و وقته من طلوع الشمس الی الغروب.

۲- الذبح او النحر .

۳- الحلق أو التقصیر.

فاذا افاض من المشعر یوم عید النحر وجب علیه العود الی منی، و یتوجه رأسا الی جمرة العقبة لرمیها بالحصیات السبع التی التقطها من المشعر، او من داخل حدود الحرم الشریف.

و وقت رميها يكون من طلوع الشمس من يوم العيد الى غروبها.

و الرمى هو اول اعمال منى. فلا يجوز للحاج أن يقدّم الذبح أو الحلق عليه. فلو اخلف الترتيب أو عمل بالعكس أثم و لا شيء عليه من الكفارات.

و تجب النية بأن يرمى الجمار تقربا الى اللّه تعالى. و الواجب ان يباشر الرامى عمل الرمى بنفسه، فلا يجزى غيره عنه الا فى بعض الأحوال.

و الرمى بسبع حصيات، فلو كانت اقل لم يكف، و اصابة الجمرة أو موضعها بكل من الحصيات السبع. فلو أخلّ بواحدة فلا بد من تعويضها باخرى. و الرمى على التعاقب و الترتيب

و أما الواجب الثانى فى منى بعد الرمى هو الذبح أو النحر. و الواجب هدى واحد و يستحب الزيادة.

و الواجب أن يكون الهدى من النعم الثلاثة: الابل، البقر، الغنم.

و المعز من فصيلة الغنم، و يشترط السن فى كل هذه. فالإبل ما اكمل السنة الخامسة و دخل فى السادسة، و البقر ما اكمل الثانية و دخل فى الثالثة،

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۵۶

و المعز ما اكمل الثانية و دخل فى السنة الثالثة، و الضان ما اكمل الاولى و دخل فى الثانية- اى ما اكمل السنة الاولى-.

و يشترط أن يكون الهدى صحيحا، فلا تكفى العرجاء و لا العوراء و لا مقطوعة الأذن او مكسورة القرن الداخل و لا المهزولة و لا الجماء، أو البتراء، و لا الجرباء.

و يجب ان يكون الذبح يوم العيد فلا يجوز تأخيره، و أن يكون بمنى فلا يجوز فى غير منى. و يكره له ان يخرج شيئا مما ذبح فى منى الى الخارج الا اذا لم يكن فى منى من ينتفع بالهدى.

اما الواجب الثالث من واجبات منى فهو الحلق أو التقصير و لو بقدر الانملة و ذلك يوم العيد بعد الرمى و النحر. فهو أن يحلق رأسه كله.

اما التقصير، فهو أن يأخذ شيئا من شعر رأسه أو لحيته أو شاربه أو شيئا من الأظافر.

و الحلق يتعين فى الحجة الاولى، اما الحجة الثانية و ما بعدها فيكون مخيرا بين الحلق و التقصير.

أما النساء فيحرم عليهن الحلق و يتعيّن التقصير.

الهدى فى الحج

الهدى: هو ما يهدى الى بيت اللّه الحرام من بدنة و غيرها.

و هو اسم للحيوان الذى يقدمه المحرم و يسوقه قربانا لوجه اللّه قال تعالى: «جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ وَ الشَّهْرَ الْحَرامَ وَ الْهَدْيَ وَ الْقَلائِدَ ذلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ»

و القلائد جمع قلادة ما يجعل فى الهدى من العلامة، و تكرر فى القرآن

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۵۷

اسم (الهدى) فى غير هذه الآية: قال تعالى «فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ» و قال (حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ) و قال «هديا بالغ الكعبة». و هو من شعائر اللّه «و البدن جعلناها لكم من شعائر اللّه لكم فيها خير فاذكروا اسم اللّه عليها صوافّ فاذا وجبت جنوبها فكلوا منها و اطعموا القانع و المعترّ كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون».

السعى بين الصفا و المروة

و بعد الفراغ من الطواف و صلاة ركعتين يجب السعى سبعة اشواط بين الصفا و المروة و تستحب المبادرة اليه فورا بعد ركعتى الطواف بحيث لا يعد متهاونا فحينما يفرغ من صلاة الطواف يستلم الحجر الاسود و يقبله ان امكن و الا اشار اليه ثم يخرج الى السعى بسكينة و وقار- من الباب الذى هو الآن معلّم باسطوانتين معروفتين و منه كان خروج النبى صلى اللّه عليه و آله و سلم، و هو يحاذى الحجر الأسود ثم يصعد الصفا و ينظر الى البيت و يستقبل الركن الذى فيه الحجر الأسود، و يحمد اللّه و يثنى عليه و يكبره و يصلى على النبى و آله.

و يجب استحضار القلب و النية بأن يقول: أسعى بين الصفا و المروة سبعة أشواط سعى عمرة التمتع، لحج التمتع، حج الاسلام لوجوبه قربة الى اللّه تعالى.

و السعى واجب بعد صلاة الطواف و هو ركن كالطواف، و ان يبتدىء بالصفا و يختتم بالمروة، بأن يحسب السعى من الصفا الى المرة شوطا، و منها الى الصفا شوطا آخر، و هكذا الى ان يتم سبعة اشواط.

فابتداء السبعة من الصفا و ختمها بالمروة.

و يجب ان يكون هذا السعى واقعا فى الطريق المتعارف فى الذهاب

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۵۸

و الاياب، فلو ذهب من وسط المسجد الحرام مثلا الى المروة أو العكس لم يكن مجزيا.

و كذا لو خالف فابتدأ بالمروة بطل سعيه كما يجب ان يحتفظ بالعدد بأن يكون السعى سبع مرات بلا زيادة و لا نقصان فى (المسعى) فلو دخل فى الأثناء الى المسجد أو خرج منه الى السوق ثم رجع لم يصح منه ذلك السعى.

و يجوز السعى راكبا كما يجوز الطواف راكبا لكن سعيه راجلا أفضل، و ان يكون على سكينة و وقار.

و يجوز له الجلوس على الصفا و المروة للاستراحة، أما الجلوس.

بينهما فالأحوط تركه بدون عذر. و تستحبّ الهرولة فى السعى ما بين المنارتين المعلمتين الآن باللون الأخضر، و لا تستحب الهرولة للنساء لقول الامام الصادق عليه السلام: لا أذان و لا هرولة على النساء بين الصفا و المروة.

التقصير

هو آخر واجبات عمرة التمتع. و يجب فى كل من الحج و العمرة:

ففى الحج يكون بعد الذبح فى منى. و فى العمرة يكون بعد إكمال السعى.

و به يفرغ الانسان و يتحلل من عقد احرامه.

فبعد فراغه من السعى يجب عليه التقصير و يحصل بأخذ شىء من شعر رأسه، او لحيته، او شاربه أو حاجبه، او تقليم بعض اظفاره.

و لا- يكفى حلق تمام الرأس بل لا- يجوز الحلق فى العمرة و تجب النية للاحلال من احرام عمرة التمتع لحج الاسلام قربة الى اللّه تعالى.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۵۹

فاذا قصر حلّ له كل شىء حرم عليه بالاحرام حتى النساء الا الصيد فى الحرم، محرما كان أو محلا.

العودة من منى

بعد اداء مناسك (منى) الثلاثة يعود الحاج الى مكة المكرمة ليؤدى الواجبات الثلاثة، و الاولى أن يكون يوم العيد و إن جاز تأخيره

الى يوم ثانى العيد.

اولا- الطواف و صلاته كالطواف السابق إلا ان النية تكون لحج التمتع حج الاسلام و يسمى ب (طواف الزيارة) و (طواف الحج) ايضا، و الصلاة ايضا خلف مقام ابراهيم، و الاولى أن يكون ذلك فى يوم العيد.

ثانيا- السعى بين الصفا و المروة.

ثالثا- طواف النساء بعد السعى مباشرة، فلا تحل النساء للرجال، و لا الرجال للنساء الا بعد الاتيان بهذا الطواف و ركعتيه و بعد أداء هذه الواجبات الثلاثة يجب الرجوع الى منى للمبيت فيها ليالى التشريق و هى:

ليلة الحادى عشر، و الثانى عشر، و رمى الجمار الثلاث فى يوميهما، ثم ان بات ليلة الثالث عشر رمى فى يومها و يجب عليه رمى الجمرات الثلاث على الترتيب الآتى:

الجمرة الاولى التى تلى مسجد الخيف.

ثم الوسطى.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۶۰

ثم جمرة العقبة و هى القصوى.

اولا- الجمرة الاولى و هى اقرب الجمرات الى منى. ثم الوسطى و هى التى تليها.

ثم جمرة العقبة و هى آخر الجمرات من جهة مكة المعروفة بالكبرى.

و لا يجوز الرمى ليلا، لا لليوم الماضى و لا لليوم الآتى مع التمكن منه نهارا.

اما الخائف و المريض و الراعى و امثالهم فيجوز لهم رمى جمرات كل يوم فى ليلته. و يجوز أن يرمى المريض من يستنيبه لذلك.

انما وقت الرمى للجمرات يكون من طلوع الشمس من يوم الحادى عشر الى غروبها و من لم يتق فى احرام الحج و العمرة من النساء و الصيد يجب عليه بيتوتة الليلة الثالث عشر، و كذلك على من لم يخرج من منى او حدودها قبل المغرب.

و من بات ليلة الثالث عشر يجب عليه رمى الجمرات فى نهارها- اى ان للحاج ان يخرج من منى فى اليوم الثانى عشر من ذى الحجة بعد زوال الشمس و قبل غروبها، و اذا بقى فى منى الى المغيب وجب عليه المبيت فى منى ليلة الثالث عشر، و لا ينفر منها الا بعد طلوع الشمس.

و عندما يفرغ الحاج من ذلك فقد أتمّ حجه، و له ان يرجع الى اهله، و الافضل ان يطوف طواف الوداع فى مكة بالبيت و يقول: «اللهم ان البيت بيتك، و العبد عبدك، و قد قلت من دخله كان آمنا، فامنى من عذابك و أجرنى من سخطك، اللهم من تهيأ و تعبأ و أعدّ و استعد لوفادة الى مخلوق رجاء رفده و جائزته و نوافله و فواضله فاليك يا سيدى تهيئتى و إعدادى و استعدادى رجاء رفدك و نوافلك و جائزتك فلا تخيّب اليوم رجائى، يا من لا يخيب عليه سائل و لا ينقصه نائل».

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۶۱

مزارات مكة المكرمة

۱- زيارة مولد النبى صلى اللّه عليه و آله و سلم، و هو فى سوق الليل بزقاق المولد.

۲- منزل خديجة زوجة النبى (ص) فى جانب مولد النبى و هو الآن مسجد معروف.

۳- زيارة عبد مناف فى مقبرة قريش، و هى بقعة معروفة بمكة ۴- زيارة عبد المطلب جد النبى.

۵- زيارة ابى طالب عم النبى، و بقعته فى وادى قريش معروفة.

۶- زيارة آمنة بنت وهب والدة الرسول (ص) و قبرها فى (المعلى) أو فى (الابواء) على خمس مراحل من مكة.

۷- زيارة خديجة زوجة رسول اللّه (ص) ب (الحجون) و قبرها هناك معروف فى سفح الجبل.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۶۲

بعض الفروق فى الحج عند المذاهب الإسلامية

قالت الشيعة الامامية: الطهارة شرط فى الطواف الواجب فلا يصح طواف المحدث، و به قال مالك و الشافعى لما ورد من قول الرسول (ص):

الطواف بالبيت صلاة الا انكم تتكلمون فيه.

و قال ابو حنيفة ليست الطهارة شرطا، و اختلف اصحابه فقال بعضهم بالاول و بعضهم بالثانى. و عن احمد بن حنبل روايتان احداهما على رأى الشيعة و الثانى ان الطهارة ليست شرطا فمتى طاف للزيارة غير متطهر اعاد ما دام مقيما بمكة، فان خرج الى بلده جبره بدم.

قالت الشيعة الامامية يجب ان تكون نية العمرة مستقلة ثم ينوى للحج نية ثانية و اوجبوا لكل نسك احراما مستقلا فلا يجيزون الجمع بين الحج و العمرة فى احرام واحد و لا بنية واحدة. و قد اجاز فقهاء السنة ان يجمع الناسك فى احرام واحد و بنية واحدة بين الحج و العمرة.

قالت الشيعة الامامية: لو استأجر الرجل الصحيح من يحج عنه الحجة الواجبة لا يجزيه ذلك، اما اذا استأجر من يحج عنه النافلة اجزأه، و به قال ابو حنيفة. و قال الشافعى لا يجوز ان يستأجر لا نفلا و لا فرضا.

قالت الشيعة الامامية: الاعمى يتوجه اليه فرض الحج اذا كان له من

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۶۳

يقوده و يهديه، و وجد الزاد و الراحلة لنفسه و لمن معه. و قال ابو حنيفة لا يجب عليه الحج و ان وجد جميع ما قلناه.

قالت الشيعة الامامية: من استقر عليه وجوب الحج و لم يفعل و مات وجب ان يحج عنه من صلب ماله مثل الدين و لم يسقط بوفاته، هذا اذا خلف مالا، فان لم يخلف مالا كان ولية بالخيار فى القضاء عنه. و به قال الشافعى و عطا و طاووس،

و قال ابو حنيفة و مالك: يسقط بوفاته بمعنى انه لا يفعل عنه بعد وفاته و حسابه على اللّه حين يلقاه و الحج فى ذمته، و ان كان اوصى حجّ عنه من ثلثه و يكون تطوعا لا يسقط الفرض به عنه، و هكذا يقول فى الزكوات و الكفارات و جزاء الصيد كلها تسقط بوفاته و لا تفعل عنه بوجه.

قالت الشيعة الامامية: من قدر على الحج عن نفسه فلا يجوز ان يحج عن غيره اما اذا كان عاجزا عن الحج عن نفسه لفقد الاستطاعة جاز له ان يحج عن غيره.

و قال مالك ابو حنيفة: يجوز له ان يحج عن غيره على كل حال، قدر عليه او لم يقدر.

قالت الشيعة الامامية: لا يجوز الاحرام قبل الميقات فان احرم لم ينعقد احرامه، الا ان يكون نذر ذلك و قالوا: لا خلاف ان النبى (ص) احرم من الميقات.

و قال ابو حنيفة: الافضل ان يحرم قبل الميقات. و للشافعى فيه قولان احدهما مثل قول ابى حنيفة و الثانى الافضل من الميقات الا انه ينعقد قبله على كل حال.

قالت الشيعة الامامية: اذا حمل المحرم على رأسه مكتلا أو غيره لزمه الفداء و به قال الشافعى. و قال ابو حنيفة لا يلزمه.

قالت الشيعة الامامية: اذا وطىء المحرم ناسيا، أو تطيب ناسيا،

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۶۴

لم تلزمه الكفارة و به قال الشافعى و عطا بن ابى رباح و الثورى و احمد و اسحاق.

و قال ابو حنيفة: و مالك: عليه الفدية.

قالت الشيعة الامامية: ما عدا المسك و العنبر و الكافور و الزعفران و الورس و العود لا يتعلق به الكفارة اذا استعمله المحرم.

و خالف جميع الفقهاء فى ذلك فاوجبوا الكفارة فيما عداها.

قالت الشيعة الامامية: الطواف يجب ان يكون حول البيت و الحجر معا، فان تباعد من البيت حتى يطوف بالسقاية و زمزم لم يجزه. و قال الشافعى يجزيه.

قالت الشيعة الامامية: اذا طاف منكوسا- و هو ان يجعل البيت على يمينه فلا يجزيه، و عليه الاعادة، و به قال الشافعى، و قال ابو حنيفة: ان أقام بمكة أعاد، و ان عاد الى بلده جبره بدم.

قالت الشيعة الامامية: التحلل فى الحج ثلاثة، اولها اذا رمى و حلق و ذبح، فانه يتحلل من كل شىء الا النساء و الطيب، فاذا طاف طواف الزيارة و سعى حل له كل شىء الا النساء، فاما الاصطياد فلا يحل له لكونه فى الحرم، و يجوز له ان يأكل منه، فاذا طاف طواف النساء حلت له النساء.

و قال الفقهاء كلهم انه يتحلل بتحليلتين معا: بالرمى و طواف الزيارة، و التحلل الاول يحصل بشيئين: رمى و حلق، او رمى و طواف، او حلق و طواف، و يستبيح عند ذلك اللباس و ترجيل الشعر و الحلق و تقليم الأظفار. قال الشافعى و لا يحل له الوطء الا بعد التحلل الثانى قولا واحدا و الطيب على قولين، قال فى القديم لا يحل بالتحلل الاول، و الآخر يحل قولا واحدا، فاما عقد النكاح و الوطء فيما دون الفرج و الاصطياد

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۶۵

و قتل الصيد فعلى قولين، قال فى القديم لا يحل، و الثانى يحل له كل هذا، و به قال ابو حنيفة و لم يعتبر احد طواف النساء بحال.

قالت الشيعة الامامية: اذا وطىء المحرم ناسيا لا يفسد حجه.

و قال ابو حنيفة يفسد حجه مثل العمد، و هو احد قولى الشافعى، و قوله الثانى لا يفسد.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۶۷

فهرست الكتاب

مكة قديما

مكة المكرمة و اسماؤها ۹

بكة ۱۰

ام القرى ۱۰

البلد، البلد الأمين، و الحرام ۱۱

اسماء مكة الأخرى ۱۲

أول ظهور مكة فى التاريخ ۱۴

ابراهيم ۱۶

اسماعيل ۲۲

قصة الذبح ۲۵

بناء البيت ۲۷

دين ابراهيم ۳۰

البيت و الكعبة و المسجد الحرام ۳۲

تمصير مكة ۳۴

إمارة جرهم ۳۵

حلف الفضول ۳۶

اتساع رقعة مكة ۳۷

إمارة خزاعة ۳۸

مكة أيام قريش ۴۰

دار الندوة ۴۱

طراز الحكم وصفته ۴۱

اصحاب الفيل ۴۴

اسواق مكة ۴۷

ديانة مكة و عبادتها ۵۳

الاستقسام و الازلام ۵۵

نذر عبد المطلب ۵۷

اشهر امراء مكة ۵۸

كسوة الكعبة و تزيينها ۵۸

تجديد بناء الكعبة ۵۹

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۶۸

قبائل مكة قبل الإسلام

القبائل التى سكنت مكة قبل الاسلام (العمالقة) ۶۳

جرهم ۶۵

خزاعة ۶۷

قريش ۷۰

أقسام قريش ۷۵

بنو عبد مناف ۷۷

بنو هاشم ۷۸

اصحاب الايلاف ۸۱

عبد المطلب و بنوه ۸۲

بطون قريش ۸۳

بنو جمح ۸۴

بنو تيم ۸۴

بنو خزيمة ۸۵

بنو زهرة ۸۷

بنو سهم ۹۰

بنو عدی ۹۱

بنو عبد شمس ۹۲

بنو عبد المطلب ۹۳

بنو عامر ۹۶

بنو مخزوم ۹۷

بنو الحارث ۱۰۱

مکة فی أشهر الرحلات العربیة

مکة فی رحلة ابن جبیر ۱۰۵

شهر جمادی الأولی ۱۰۸

ذکر المسجد الحرام و البیت العتیق ۱۰۹

ذکر مکة شرفها اللّه و آثارها ۱۰۹

الکریمة و أخبارها الشریفة ۱۱۲

ذکر بعض مشاهدها المعظمة و آثارها المقدسة ۱۱۵

ذکر ما خص اللّه تعالی به مکة من الخیرات و البرکات ۱۱۸

شهر جمادی الآخرة ۱۲۳

جمال الدین و آثاره السنیة ۱۲۴

الأمور المحظورة فی الحرم ۱۲۶

شهر رجب الفرد ۱۲۷

العمرة الرجبیة ۱۲۸

عمرة الأکمة ۱۳۰

یوم طواف النساء ۱۳۱

زیادة ماء زمزم ۱۳۱

شهر رمضان ۱۳۲

تراویح رمضان ۱۳۳

ابن بطوطة و مکة ۱۳۷

مکة فی رحلة ناصر خسرو الموسومة ب (سفر نامی) ۱۴۱

رحلات عبد الوهاب عزام ۱۴۴

مکة فی رحلة السائح الهروی ۱۴۷

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۶۹

منازل مکة

منازل مکة ۱۵۱

الطریق إلی المدینة ۱۵۸

طريق الجادة من المدينة إلى مكة ۱۵۹
طريق الجادة من معدن النقرة إلى مكة ۱۵۹
الطريق من مدينة السلام الى الكوفة ۱۶۰
الطريق من البصرة إلى مكة ۱۶۱
الطريق من مصر إلى مكة ۱۶۱
الطريق من دمشق إلى مكة ۱۶۱
الطريق من اليمن إلى مكة ۱۶۲
مكة فى الشعر
أبو العلاء المعرّى ۱۶۵
احمد بن ابراهيم ۱۶۶
احمد شوقى ۱۶۶
أمية بن أبى الصلت ۱۶۷
جرهمى شاعر ۱۶۸
الحارث بن خالد ۱۶۸
ابن حجر العسقلانى ۱۶۹
حسان بن ثابت ۱۶۹
الحصرى القيروانى ۱۶۹
السيد رشيد الهاشمى ۱۷۰
ابن الزبعرى السهمى ۱۷۰
الشيخ صالح التميمى ۱۷۰
عبد الباقى العمرى ۱۷۱
عبد الحسين الحويزى ۱۷۲
الشيخ عبد المحسن الكاظمى ۱۷۳
الشيخ محمد على كمونة ۱۷۳
عبد المطلب بن هاشم ۱۷۵
قصى بن ربيعة ۱۷۵
كعب بن زهير ۱۷۵
السيد محمد سعيد الحبوبى ۱۷۶
مضاض بن عمرو الجرهمى ۱۷۶
ابن أم مكتوم ۱۷۶
مكة فى المراجع الغربية
مكة فى المراجع الغربية ۱۷۹
مكة قبل الهجرة ۱۸۱

سكان مكة ۱۸۳

الحكومة و الادارة ۱۸۴

موقع مكة و مناخها ۱۸۵

مالية مكة و حياتها الاقتصادية ۱۸۷ افل مكة ۱۹۰

ثروات مكة ۱۹۲

بعد الهجرة ۱۹۴

مكة فى العهد الأموى ۱۹۵

مكة فى عهد بنى العباس و ما بعده الى حد تولى الشرفاء (۷۵۰- ۹۶۱) ۱۹۷

الموسويون الشرفاء ۲۰۰

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۷۰

الشرفاء الهواشم ۲۰۱

حكم قتادة و نسله ۲۰۳

الشرفاء فى أيام الاحتلال الوهابى ۲۰۷

مكة فى يومها هذا ۲۱۲

مكة فى مراجع اجنبية أخرى ۲۱۳

لقب الشرفاء ۲۱۹

مكة و الصليبيون ۲۲۰

الشريف قتادة و موكب الحج العراقى ۲۲۳

الحج ۲۲۶

زمزم ۲۳۳

الكعبة ۲۳۴

تاريخ الكعبة ۲۳۸

عرفات ۲۴۳

منى ۲۴۴

المزدلفة ۲۴۶

الصفا و المروة ۲۴۸

الغربيون فى مكة ۲۵۰

لود فيكو فاريتما الايطالى ۲۵۱

مملوك برتغالى مجهول الاسم ۲۵۴

جوزيف بيتس الانكليزى ۲۵۴

القس جوزف أو فينكتون ۲۵۸

ويليام دانيال و شارل جاك بوسيه ۲۵۸

الرحالة على بك العباسى ۲۵۹

جيوفانى فيناتى ۲۶۱

جون لويس بورخارت ۲۶۳

وصف بورخارت لمكة ۲۶۵

قناة زبيدة ۲۶۷

حوارى مكة أو محلاتها ۲۶۸

بيت اللّه الحرام ۲۷۴

أماكن مقدسة أخرى ۲۷۶

الكعبة ۲۷۹

ملاحظات حول سكان مكة ۲۸۰

حكومة مكة و الشرفاء ۲۸۴

الحج ۲۸۷

السر ريتشارد بورتون ۲۹۴

فى داخل الكعبة ۲۹۷

الكسوة ۲۹۸

نقاط أخرى ۳۰۱

المستشرق الهولندى هور غرونيه ۳۰۴

الحياة العائلية ۳۱۱

الحياة العلمية ۳۱۲

فى أواخر القرن التاسع عشر ۳۱۴

الحسين بن على ۳۱۶

الثورة العربية ۳۱۸

لورانس بلاد العرب ۳۲۰

استيلاء الوهابيين على مكة ۳۲۵

اسلام عبد اللّه فيلبى ۳۲۹

موسوعة العتبات المقدسة، ج۲، ص: ۳۷۱

مراسيم الحج و فرائضه

فريضة الحج ۳۳۹

شروط وجوب الحج ۳۳۹

واجبات الاحرام ۳۴۰

محرمات الاحرام ۳۴۰

الميقات او المواقيت ۳۴۴

انواع الحج ۳۴۵

كيفية حج الافراد و حج القران ۳۴۶

الطواف و واجباته ۳۴۸
شرائط حج التمتع ۳۴۸
ركعته الطواف ۳۵۰
حج التمتع ۳۵۱
عرفة ۳۵۱
سبب التسمية ۳۵۲
المزدلفة او المشعر الحرام ۳۵۲
منى و اعمالها ۳۵۲
منى ۳۵۳
الافاضة الى المشعر و الوقوف به ۳۵۴
ما يجب فى منى من افعال الحج ۳۵۴
الهدى فى الحج ۳۵۶
السعى بين الصفا و المروة ۳۵۷
التقصير ۳۵۸
العودة من منى ۳۵۹
بعض الفروق فى الحج عن المذاهب الإسلامية ۳۶۲

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).
قالَ الإمامُ علىّ بْنُ موسَى الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... َ يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فى تلخيص بحار الأنوار، للعلاّمة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).
مؤسّس مُجتمَع "القائميّة" الثّقافيّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذى" – "رَحِمَهُ اللهُ" – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذى قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَيت النبىّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علىّ بن موسَى الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فى سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَى و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.
مركز "القائميّة" للتحرِّى الحاسوبىّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإماميّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّيجى الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالاتٍ شتّى: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...
الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثَّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشّباب و عموم الناس إلى التّحَرِّى الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فى المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ على أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِج العلوم

الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشّـُبُهات المنتشرة فى الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التى يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، على أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ– فى آكناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فى أنحاء العالَم – مِن جِهةٍ اُخرَى.

– من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فى الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثـّلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتى "القائميّة "www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضيّة، الخَطابات و... للعرض فى القنوات القمريّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمىّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسيم النظام التلقائىّ و اليدوىّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS

ح) التعاون الفخرىّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع "ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فى الجلسة

ى) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّى (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَة

المكتب الرّئيسىّ: إيران/أصبهان/ شارع"مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائى/"بناية"القائميّة"

تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ۲۳۷۳

الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵–۲۳۵۷۰۲۳– (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِى الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم – فى حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ ولىّ التوفيق.

مرکز القائمیة للبحوث والتخریبات الکمبیوتریة
اصبهان
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹